الإسلام والحضارة الإنسانية

بقلم

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
تلغرافياً : كتالبان - بيروت
ص. ب : ٣١٧٦
بيروت — لبنان

الطبعة الاولى ١٣٩٣هـ
الموافق ١٩٧٣ م

الاسلام والحضارة الانسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذه دراسات عن الإسلام والحضارة الإنسانية ، فيها شمول وعمق تناول ودقة استنباط .

وهذه الدراسات تكشف عن جوهر الإسلام وعظمة حضارته ، وجلال تاريخه .

وهي ضرورية لجيل اليوم ليعرفوا أنه لم توجد في تاريخ الإنسانية كلها شريعة أحدثت ما أحدثته شريعة الإسلام في الحياة وفي المجتمع الإنساني كافة .

وأرجو أن يكون لهذه الدراسات أثرها في تعميق فهم الشباب لدينهم ، وفي نظرتهم إلى أصوله ومناهجه .

وبالله التوفيق ، ومنه السداد المؤلف

الفَصْلُ الأوّلُ

الإسلام رسالة وأصول حضارية– الإسلام دين المدنية – الإسلام دعوة انسانية عالية – الإسلام ووجهه الإنساني – أثر الإسلام في حياة العرب–رسالة الإسلام في عالم اليوم – عناصر الخلود في الإسلام – الإسلام بين النظرية والتطبيق .

الإسلام رسالة وأصول حضارية

ينكر الملحدون رسالات السماء جملة ، ومن عجب أن ينكروا حقائق علمية لا يجافيها العلم الحديث ، فالله الذي خلق الإنسان قادر على أن يوحي إليه ما يشاء من تعاليم وعبادات ومثل وشعائر وشرائع ، ليرشده إلى طريق الخير وطريق الشر ، يقول الله تعالى : « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » أي طريق الخير وطريق الشر . وهذه الهداية إنما هي عن طريق الرسالات السماوية ، التي نزل بها جبريل عليه السلام على رسل الله وانبيائه المصطفين الأخيار .

وكما أرسل الله إلى إبراهيم وموسى وعيسى ،أرسل إلى محمد صلوات الله عليه ، وبعثه رسولا إلى الناس كافة ، رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ، وكانت بعثته في عصر ضلت فيه الإنسانية قيم السماء ، ومثل الحياة ، عصر وثني حرفت فيه الرسالات القديمة أو تنوسيت .

ذلك النور السماوي العظيم ، الذي كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة فيها خير الحياة والوجود ، لا بد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذي كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لا بد أن ينزل على رسول كريم من جديد ، ليدعو الناس الى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء ببعث رسول هو خاتم المرسلين .

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدي ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، وعثمان بن الحويرث الأسدي ، وعبيد الله بن جحش ، يجتمعون في الجزيرة العربية في يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض :

تعلمن والله ما قومكم على شيء ؛ لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ... وذهبوا يطوفون في البلاد يلتمسون حنيفية إبراهيم .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : والله لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

وفي مكة في صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوماً بعد يوم بشريات وأي بشريات ، ويحفظ الناس ما ذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة العطرة . وبدأ النور الإلهي يظهر في الأفق ، وأخذ الناموس السماوي يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب محمد ونما ، نبيلاً شريفاً وسيداً سرياً . وفتى زكياً ، ولقي قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر ، وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ، ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت حليمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهور كان محمد الغلام يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان

فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه؛فوجدته قائماً ممتقعاً وجهه فالتزمته هي وزوجها ، وقالت : ما لك يا بني ! قال : جاءني رجلان ؛ عليهما ثياب بيض ؛ فأخضعاني وشقا بطني فالتمسا شيئاً لا أدري ما هو . فتخوفت عليه حليمة وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ؛ فقالت آمنة : إن لبني لشأناً أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام ، وحملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته ؛ وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ؛ دعيه عنك وانطلقي راشدة .. وما أصدق ما يقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى .

ورأى بحيرى الراهب محمداً الغلام ، في بصرى بأرض الشام مع عمه أبي طالب : فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه فإن له لشأناً عظيماً .

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالماً بالديانات والكتب السماوية ؛ فقال لها : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ؛ وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه . وجعل ورقة يستبطىء مرور الأيام ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله يبلغه رسالة الله ؛ ويحمله أمانته .

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى . وسمع الصوت الإلهي يناديه من كل مكان : يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ؛ فقالت أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه

القصص . فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة . ولقيه ورقة في الكعبة وهو يطوف بها فقال : يا ابن اخي والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الأبطال ، ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمي حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم .

وقبيل الهجرة ، وبينما رسول الله صلوات الله عليه نائم في بيت أم هانيء بنت عمه ، إذ جاء جبريل وملائكة معه . فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء والرسل إماماً ، ثم أتي بثلاثة أوان . من لبن وخمر وماء فأخذ إناء اللبن فشرب منه ؛ فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يا محمد . ثم عرج إلى السماء فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالأفق الأعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوي العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم فذاعت في كل مكان ؛ ودعا إليها الناس كافة وأرسل بنبئها الرسل إلى الأمراء والملوك والأقيال .

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة . وأسس ونشر شريعة الله ودينه الحق في العالم كله .

وبدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الإسلام بقليل ، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه في المدينة ؛ وأخذ الاستقرار الروحي والأدبي والفكري والاجتماعي ينتشر في جزيرة العرب .

ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل . فتعهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي ، وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى ما بلغته دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية ، ولقد تألقت أضواء الحضارة الإسلامية في شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس ، وباختلاط الأوربيين والشرقيين في الحروب الصليبية وسواها .

وصحيح أن الحضارة الإسلامية اقتبست ونقلت عن حضارات الهند والصين وإيران والأشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق والرومان وسواها ، ولكنها بجانب ذلك جددت وابتكرت ، فكان الشرق بحق استاذاً وإماماً إبان العصور السالفة ، مما شهد به الفلاسفة والمفكرون في الغرب ، وسجله التاريخ في فخر وتقدير .

وإذا كان لكل حضارة مبادىء وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادىء خالدة ، لم يصل إليها العقل البشري من قبل ، ولم يستطع العالم في القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ مما يماثلها دستوراً له في الحياة . وهي مبادىء الإسلام ، وقبس من نور الله ؛ وتراث من حكمته .. فالإنسان خليفة استخلفه على الأرض ، وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له ، يعبده ويطيعه ، ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه في كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو أخفى : « **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** » .

وينظر الإسلام إلى المجتمع — بجميع عناصره وطبقاته — على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاوناً وثيقاً في الحياة ؛ يعطف الغني على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير ، ويدفع كل بالتي هي أحسن ، وهل أبلغ في التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قول الله عز وجل : « **إنما المؤمنون إخوة** »؟

والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ؛ يكفل له الإسلام الأمن والسلام ، في ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكري والعقلي والروحي والمادي ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله .

هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية والروحية والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات . ورقي الأمم والشعوب ، مما قضى على الهمجية والوحشية في عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل .

والأهداف الأولى لهذه المبادىء كلها في نظر الإسلام ، هي نشر أفكار الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة والسلام : ليعيش الناس في ظلال وحدة مجتمعة في الأفكار والأهداف والمبادىء والغايات ، ظلال عالم موحد تسوده الطمأنينة والأمن والسلم ، وحضارة مشتركة غايتها الإخاء بين الروح والمادة والعقل والجسم والواجب والحق والإيثار والأثرة .

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتعذر تقديرها ، وما يعلمه المسلمون من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيح لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكون في أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيراً منهم لا يزالون يتحامون الجري عليها ، فسيضطرهم الترقي العلمي والفلسفي إلى الاعتراف بحقيقتها ، وإذ ذاك يلتقي الناس كافة في حظيرة واحدة هي حظيرة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطري والمعارف الممحصة وأمر الناحية الدينية معروف . وأما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمي العالمي ، وتولوه بالزيادة والتمحيص ، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس في العالم اليوم من يدعي أنه ليس مديناً للإسلام من هذه الناحية . ويؤيد هذه الحقيقة كبار المؤرخين والعلماء الأوروبيين وهذا هو كتاب « حضارة العرب »

لجوستاف لوبون الذي ترجمه إلى العربية محمد عادل زعيتر ، يدل بحق على أثر العرب في الحضارة . قال جوستاف لوبون تحت عنوان « تمدين العرب لأوربا — تأثير العرب في الشرق والغرب » : لا ترى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزمن .

« ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضاً . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسماً كبيراً من معارفهم العلمية التي عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندي أو صيني .

« ويظهر أن ما اقتبسه الصينيون من العرب أهم مما أخذه الهنود عنهم ، وقد رأينا في فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلكي الصيني الشهير كوشو كينغ تناول في سنة (١٢٨٠ م) ، رسالة ابن يونس في الفلك وأذاعها في بلاد الصين ، ونثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق ، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها . إنه لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال اوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب» .

« ودخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ففي سنة (١١٣٠م) أنشئ في طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب . ولم يتوان العرب في أمر تلك الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . ولم يقتصر في تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ؛ وقد روى الدكتور (لوكلير) في كتابه الذي سماه (تاريخ الطب العربي) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان في الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ، ككتاب أبولونيوس في المخروطات ، وكتاب جالينوس في الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو في الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة ، فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة ، قال المسيو (ليبري) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون .

«إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان ، حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها ، فإلى بلاد

الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم ، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي لا تزال موضوع جدال : جربرت ، الذي صار بابا سنة ٩٩٩ ملقباً بسلفستر الثاني ، ولما أراد هذا البابا أن ينشر في اوروبا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان .

وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول ان تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر فلقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيلييه في أواخر القرن الماضي .

« وإذا كان تأثير العرب عظيماً في أنحاء أوروبا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد إسبانيا .. وإن يرى الباحث مثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى . ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال . »

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوروبيون ، والحقيقة أكبر مما قالوه وسجلوه .

الإسلامُ دينُ المدينة

الاسلام اليوم مجهول من جماهير المسلمين ، غريب بينهم لا يألفهم ولا يألفونه . يرددون اسمه في المحافل ترديداً ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه .

الاسلام الذي أحدث أعظم انقلاب عالمي ، وأكبر ثورة بشرية ، والذي بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الانسانية ، ونظريات الاجتماع ، ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون في كل جيل ومكان . هذا الدين السماوي الخالد ، هو الذي ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهرياً ، ويحرمون أنفسهم من الافادة بتعاليمه ، بل ويجاهر بعضهم أحياناً بأنه دين الرجعية والجمود . كذبوا وايم الله ، فالاسلام لم يكن في يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الانساني والعزة والكرامة والمجد . وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن فهمت أصول الإسلام ؛ واقتبست من شريعته في الاصلاح ؛ بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ،يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة ، يقول اللورد استانلي : « أنا مسلم رأيت عظم أثر الاسلام وقدرته في نفسي حق قدره ، نعم أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بي من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » ، وقال اللورد هدلي : « شرحت لكثير من الأفراد في انجلترا ماهية الاسلام . فكانوا يجيبونني اذا كان هذا هو دينك فنحن إذن مسلمون . لأن هذا هو ما نعتقده وما نفكر فيه » ، وقال برنارد

شو : « لا بد أن تعتنق الأمبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن ، ولو أن محمداً بعث في هذا العصر لنجح تماماً في حل جميع المشكلات العالمية ؛ ولقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة » .

وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق وأصول البحث والتفكير ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، وإلى الايمان بما يؤدي اليه الدليل . كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمي ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حداً ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حداً لما يمكن أن يصل اليه الانسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء ، التي هي الآن أساس المدنية الغربية .

إن المعجبين بالحضارة الراهنة انما يعنون بها عادة السكك الحديدية والكهرباء والبرق والمذياع والطائرة كما يقول برنارد شو ، أما المعجبون بالحضارة الإسلامية فيعنون بها مبادئها الروحية ، وأهدافها الأدبية ، وغاياتها الانسانية السامية ، يعنون بها العلم والعدل والاخاء والمساواة والحرية وبسط سلطان العقل ومحاربة الأوهام والاساطير والخرافات والوثنية ، وإزالة الفوارق الطائفية والعنصرية ، إلى غير ذلك من جلائل المبادىء التي دعا اليها الإسلام ، والتي تعلم منها الغرب كيف يرفع بصره إلى السماء .

يبني « أمانويل كانت » مذهبه الخلقي على أن حسن النية هو الأساس الأول في الأخلاق ، ونحن لم ننس بعد قول الرسول صلوات الله عليه : « إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » .

ويفاخرنا العالم الغربي بمجانية التعليم التي سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد ، ونحن نعلم أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم

فيها ، بل تزيد على ذلك فتصرف لطلابها الغذاء والكساء ، وتهيىء لهم السكنى في مساكن مدرسية خاصة .

ويفاخرنا بمجانية العلاج ، وهو نظام سبق اليه المسلمون في العصور القديمة .

ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعي الذي عمموه في بلادهم ، مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقد كان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء أو المساكين واليتامى والأرامل وأبناء السبيل ، كما كان لهم نصيب في الغنائم ، ونصيب في الزكاة . وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والارث ، ودعوته إلى الاحسان ، وفرضه حقا معلوما للفقراء في أموال الأغنياء .

ويفاخرنا بنظامه الشوري ، مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية التي كان دستورها القرآن ، والتي اختفت فيها الفروق والامتيازات ، ووضعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة في المسؤوليات والالتزامات ، بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم فوق القانون والمسؤوليات ، ولعلنا على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسؤول عن رعيته » ، وقوله : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فيأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فهي ليست من شأني » ، ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر « إن رأيتموني على حق فاطيعوني ، وان رأيتموني على باطل فقوموني » ، وقوله لعمرو بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » ، وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، وغير ذلك مما يعد دستوراً خالداً في تقرير مسؤولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون في القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم

من الإسلام ورسوله الكريم الذي دعا إلى أخوة المسلمين في الدين ، وأخوة الناس جميعاً في الإنسانية ، ولم يجعل لعربي على أعجمي فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وألغى الفروق بين الأفراد والطبقات والعناصر والأجناس والألوان والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامي المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور والحق والخير والمعرفة ، الدين واحد، والناس جميعاً أخوة ، يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله ؟

ولا يزال الغرب يدعي أنه أول من أعلن حق الإنسان في الحرية والاخاء والمساواة « وأنه واضع حقوق الإنسان ، وما أشد جرأة هؤلاء وهؤلاء على الحقائق، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى اعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها . وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل ، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان في الحياة والأمن ، وحقه في الملكية ، وفي الكرامة الإنسانية . وفي تكوين الأسرة ، وفي الاشتراك في إدارة شؤون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها ، وإلى الاخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة ، والمساواة الشاملة ، والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ؛ وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق ، شعاره في ذلك الآية الكريمة : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » .

لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالي من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من المهن ، وكان غيرهما يضع الرقيق والحيوانات في منزلة سواء . فأين هذا من سماحة الإسلام وسمو مبادئه ، التي سوت بين الناس جميعاً ؟

وأوربا المتمدنة اليوم لا ترى بأساً من فرض الرق البشري على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح ، وانتهاك الحرمات ،

والحجر على الحريات في سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض . فأين هذا من عدالة الإسلام التي حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال في شتى صوره، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للحاكمين ؟

والشعوب التي تتزعم مدنية اليوم لا ترى أيضاً ضيرا في تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول والمرضى ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ؛ في حروب منظمة ، يعجز العقل عن تصور هولها وفظاعتها . فأين هذا من شريعة الاسلام التي فرضت على المسلمين احترام حقوق الانسان حتى في الحروب . وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدميروالتخريب؟حتى لقد أوصى رسول اللهصلى الله عليه وسلم جنده فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تقطعوا شجراً ؛ ولا تهدموا بناء » .

وبعد فلقد بلغت المساواة في الاسلام المدى الذي يصوره الرسول الكريم بقوله : « **أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل الا بالتقوى** » . الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ؟

ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة ، وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى « مهران » الفارسي ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر – وهو خليفة – لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالي بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب .

وبلغت العدالة فيه المدى الذي يصوره قول محمد بن عبد الله : « والله لو

أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، وأن يغضب « علي » لأن الخليفة عمر كناه بأبي الحسن في خصومة بينه وبين يهودي؛وأن يقول عمر في وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ؛ ثم لا تأخذك في الله لومة لائم .. وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » . وانظروا إلى ما فعله عمر حين ضربه مجوسي أثيم ضربة غادرة قاتلة ، أوصى به خيراً ، فقال : « أطيبوا طعامه وأحسنوا معاملته فإن أنا أفقت كان لي حق القصاص ؛ فاما قصصت واما عفوت . وإن أنا مت فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا به ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة ولو في الكلب العقور » .

بل لقد أمر المسلمون أن يعدلوا حتى مع خصومهم « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون** » .

وبلغت العدالة الاجتماعية في الاسلام مبلغاً كبيراً ، مما يصوره لك قول الرسول الأكرم : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . وفي حديث جابر بن عبد الله ، قال : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه » . وحجر عمر على قريش أن يهاجروا الى البلاد المفتوحة حرصاً على امتلاك أراضيها حتى لا يضيقوا على عباد الله فقال : « ألا فإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا » . فضلا عن تحريم الاسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لاموال الناس بالباطل . وقاعدة الاقتصاد فيه ، « **فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** » ، كما أن قاعدة الاجتماع فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ان مفاخر الاسلام في احترامه لحقوق الانسان وتأييده وحمايته لها وفي وضعه لأصول التقدم الأدبي والروحي والاجتماعي ، وفي ايقاظه الروح الانساني العام ، لهي مفاخر جديرة بالاشادة والتقدير . حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ، ونقتبس من أصولها ما يحيي الروح ، ويوقظ العزيمة وينبه راقد الفكر في شتى أرجاء العالم الاسلامي ، وان الخير كل الخير في أن ينتبه الشرق الراقد الى أصول دعوة الاسلام التي جهلها وتناساها وتركها . وإنه لحري بالمسلمين جميعاً أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحاً ، ليسعد الناس ، وتستقر الجماعات وتهدأ الفتن ، وتصحح الأوضاع ؛ فالعالم لن يحيا من موته الروحي الا إذا أخذ بتعاليم الاسلام ، التي لا بد أن ينتهي اليها في يوم من الايام : « **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** » .

وصدق الله العظيم حين يقول : « **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور** » .

الإسلام دعوة إنسانية عالية

مضى على وفاة محمد صلوات الله عليه نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ؛ ولا تزال ذكراه الخالدة ملء القلوب والأسماع ، وحديث الإنسانية الذي لا ينسى ، ونشيد الحياة الظامئة الى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا العربي الأمي ، تقديساً للرسالة التي حملها أو بلغها عن الله ونشرها في الخافقين ؛ وإيماناً بسمو ما أتى به من دين ، وأداه من عقيدة ، فإن الإنسانية كلها لتذكره لأنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد في تاريخها الحافل المديد .

إن عظمة محمد بن عبد الله ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ؛ وليس مرجعها عظمة الأمة التي ظهر فيها ... وليس مردها فحسب إلى جنسه وشرفه وجلال شخصيته وسمو خلقه وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل المهذب في الحياة ؛ وأنه عاش مع فقره مجاهداً ، ومات مجاهداً في سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه رسول الله الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ليبلغ كلمة الله إلى الأرض على فترة من الرسل ، وانقطاع الوحي عن البشر وبعد أن ضل الناس وجهلوا هداية السماء التي بشر من قبل بها الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات ، وخاتمة النبوات ، وبشر بدين الله بين

الناس .. وإلى أن هذه الرسالة التي أداها عن الله هي دين البشرية عامة ، وعقيدة الانسانية قاطبة ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها . بما حوته من دعوة إلى التوحيد المطلق ، وحرية العقيدة ، وتقديس للشرف والكرامة والمروءة والفضيلة ، وتقرير لمبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وبسمو روحها ، وجلال نزعاتها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان الأدبية في الحياة ، وباشتراكيتها العادلة ، وديمقراطيتها الحقة ، وما سنته من حب ورحمة وتعاون وشورى بين الناس ، وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسؤولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، وللعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك والضلال والفساد والرذائل والمنكرات والأهواء الضالة والشهوات الجامحة والأساطير الكاذبة والتقاليد البالية والأوهام الضارة .

وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الانسانية المطلقة ، والزمالة البشرية المشتركة ، وأنه حارب العصبيات والقيود الجائرة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدي الله ، وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله .

فكانت هناك أخوة إسلامية كاملة ، لوحدة الأمة وحفظ كيانها .. « إنما المؤمنون أخوة » ، وبجانبها أخوة إنسانية عامة تجعل الناس جميعاً على اختلاف نزعاتهم وعناصرهم وأديانهم وألوانهم إخوة في الانسانية ؛ إذ يفرض الإسلام أن يكون لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات **« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »** ، **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً »** .

هذه الدعوة الجديدة التي دعا إليها الإسلام كانت منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وفي عصر يستحيل فيه التفاهم والتقارب والوحدة لسوء المواصلات ، وكثرة الجهل ، وقلة العمران والمدنية والحضارة ، وانتشار العصبيات .. ولم

يدع المفكرون إلى بعض مبادئها إلا في القرن العشرين ، بعد أن هيأت الحضارة أسباب التقارب والمودة والإخاء ، وكانت دعوة الإسلام إليها منذ ذلك العهد البعيد معجزة لهذا الدين ولرسوله العظيم الذي جعل الناس إخوة لا فرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم وأعجميهم وعربيهم ، حتى لقد غضب رسول الله إذ أهان صحابي من صحابته عبداً أسود زنجياً فعيره بأمه وقال له يا ابن السوداء ، ورؤي الغضب في وجهه ، وقال : طف الصاع .. طف الصاع ؛ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بتقوى الله أو بعمل صالح .

ثم لم تهدأ شعلة هذه الحياة المتقدة ، و ينطفىء مصباح حامل تلك الرسالة السماوية العظمى ، إلا وقد جمع محمد العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى وملك البحرين والحبشة وحاكم مصر وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أروع ما يقول في رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم :سلام على من اتبع الهدى ،أما بعد فاني أدعوكم بدعاية الإسلام : أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (عامة الشعب) : « **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » .

ثم حمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم إليها وحمل الإنسانية عليها ، فوصلت عقيدة محمد إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ؛ ولم تزل هذه الرسالة عقيدة أكثر من سدس العالم المعروف اليوم ، ولن تزال حية بما فيها من حياة وحرارة وتجدد ونمو .

ولقد اعترف أفذاذ مفكري الغرب بفضل محمد على الحياة وبأياديه الجليلة على الحضارة . يقول تولستوي : « مما لا ريب فيه أن النبي محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى

أمة إلى الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام » . ويقول توماس كارليل في كتابه الأبطال « إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرناً لأكثر من مائتي مليون من البشر ، وإن رجلاً كاذباً لا يستطيع أن يوجد ديناً وينشره ، وعجيب وايم الله أمية محمد فلم يقتبس من من نور أي انسان آخر ،ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور » .

وصدق الله العظيم حين يقول : «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً** » .

الإسلام ووجهه الإنساني

الإسلام .. ديننا الخالد الكريم ، رصيد ضخم من القيم الإنسانية ، ومن الدفاع عن حقوق الإنسان وحريته .

فحق الإنسان في الحياة حق طبيعي ، وهو من أبسط مبادىء العدالة . ولكن بعض الأمم القديمة حرمت من هذا الحق بعض الناس . وقد جاء القرآن ينهى عن القتل وسفك الدماء : وشرع شريعة القصاص ، « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص » . وقال صلى الله عليه وسلم من خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

وحق الإنسان في الحرية ، كفله الإسلام وأيده ودعا إليه :

رعى الإسلام الحرية السياسية فجعل لكل فرد عاقل رشيد الحق في أن يشترك في إدارة شؤون الدولة ، حتى قال عمر من خطبة له : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » . وقال عثمان : « إني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم ، فليروني رأيهم . فوالله لئن ردني الحق عبداً لأذلن ذلة العبيد » .

ورعى الإسلام حرية الفكر والرأي . وفي القرآن الكريم نعي شديد على المقلدين والجامدين ، ودعوة إلى تحرير العقل من شتى القيود .. حتى حرية

العقيدة والدين نص عليها القرآن الكريم : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .. وعهد رسول الله للنصارى في جزيرة العرب ، خير ميثاق يؤكد ذلك .. وكتب عمر إلى أهل بيت المقدس عقب فتحه له أماناً تعهد فيه بالمحافظة على حرياتهم وأموالهم ودمائهم وكرامتهم وحرياتهم الدينية ، وذكر أن النصارى أكثر أهل الأديان قرباً ومودة للمسلمين : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » .

ورعى الإسلام الحرية الشخصية ، ونهى عن الاعتداء عليها . بل أوجب على الحاكم الرفق بالمسلمين ، وفي ذلك يقول الرسول الأكرم : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق عليه » . وكان هدف الإسلام من تعاليمه في ذلك رفع القوة المعنوية للمسلمين ، والمحافظة على كرامتهم وإشعارهم العزة والسيادة والقوة والحياة .

وحق الإنسان في الأمن ، أشد التزاماً في الإسلام ، فقد حارب الإسلام الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وأوجب القصاص والحدود وألزم المؤمن بأن يعامل أخاه برفق وفرض عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وجعل الحاكم مسؤولا عن الأمن والنظام .

ديننا الإسلام بكل قيمه ومثالياته هو خير رصيد لنا في حياتنا التي نحياها وسط أمواج عاتية من صراعنا مع الاستعمار والإلحاد .

وأعتقد أن في هذه الأصول ما يغني الباحث والقارىء ويدلهما على عظمة الإسلام وخلوده ، وعظمة ما أتى به من مبادىء وأصول .

أثر الإسلام في حياة العرب

أثره في حياتهم الدينية :

غير الإسلام حياة العرب الدينية تغييرا ضخما كبيرا لا يماثله تغيير آخر . فأبطل الوثنية والشرك ، وقضى على عبادة الأوثان والأصنام ، وحارب العبادات الزائفة كعبادة النار والنجوم والكواكب والملائكة ، ونفى أن يكون هناك شركاء لله في العبادة أو أن يكون هناك وسطاء بين العبد وربه ، ودعا إلى التوحيد المطلق ، والإيمان الحق ، والإسلام الخالص ، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعا العرب وغيرهم إلى الإيمان بهذا الدين الإلهي العظيم ، ونبذ ما هم عليه من ضلال وباطل ووهم ، ومن تحريف لشعائر الله وكتبه ، ولعقيدة التوحيد الصافية الخالصة .

وحارب الإسلام التقليد ، وذم المقلدين ، وحرر الانسان من الاوهام والخرافات والأساطير ، والعقائد الزائفة والشرائع الزائغة ، والأديان الباطلة ، وبذلك صار الدين لله وحده لا شريك له ، وصارت العبادة خالصة لله رب العالمين سبحانه قيم السموات والارض ومن فيهن ، بيده الخير والشر ، وهو على كل شيء قدير .

أثره في حياتهم الاجتماعية :

غير الاسلام حياة الجاهليين تغييرا شاملا كاملا تاما غير منقوص .

فأبطل النظام القبلي وحياة المجتمع القبلية ، وأزال عن العربي نفوذ رئيس القبيلة الظالم ، وجعل المجتمع كله وحدة واحدة ، يسوده الحب والتعاون

والإخاء ، بعد أن كان يسوده الشقاق والخصام والخلاف وأعطى للفرد كل حقوقه المشروعة ، في مقابل ما فرض عليه من مسؤوليات وواجبات ، وحرر الرقيق والخادم والمرأة ، وأعطى لهم حريتهم كاملة غير منقوصة ، ونظـم الأسرة وأقامها على أساس متين من الحب والخير والتعاون ، وشرع لها الكثير من النظم الحكيمة الصالحة لكل زمان ومكان . وقضى على عوامل الفرقة في المجتمع ، وعلى الحروب بين الناس ، وألغى الامتيازات القبلية ، والعنصرية ، وجعل الناس جميعاً سواسية أمام الله والقانون ، وهم سواء كأسنان المشط ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، والعمل الصالح ، ولا فضل لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لشريف على وضيع ، ولا لعظيم على فقير ، ولا لرئيس على مرؤوس ، فالجميع عباد الله ، والجميع إخوان في الله ، وهم بالإسلام في خير عميم ، وفضل عظيم ، وسلام دائم ، وإخاء شامل ، وصدق الله العظيم في قوله : « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » .

وهكذا أعطى الإسلام الانسان حريته واستقلاله الفكري والمالي والاجتماعي ورفع كرامته « **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ، وجعله خليفة لله في الأرض يعمرها ويمحو منها الفوضى والجهل والجمود والظلام ، بما وهبه الله من عقل ، وما بعث إليه من دين ، وما حث عليه من علم ، وأوجب على المسلم طاعة ولي الأمر ، والعمل بدين الله في السير وراء الحاكم المسلم العادل الذي يحكم بما أمر الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس ، وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية التي تزيد في وحدة المجتمع الاسلامي وقوته كالزكاة والصدقة والإحسان ، وصلاة الجماعة والحج . وحرم الاعتداء على

أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم ، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة ، وعصبية الجاهلية ، واستبدل بها دعوة الدين . وأباح الطيبات من الرزق ومن وسائل المعيشة الشريفة التي تتفـق والإسلام الكريم .

أثره في حياتهم السياسية :

وأثر الاسلام في حياة العرب السياسية واضح للعيان لا يحتاج إلى بيان أو برهان :

١ – فقد كسب الاسلام للعرب وحدتهم السياسية الكاملة ، فاستقلت بلاد العرب استقلالا كاملا ، بعد أن كانت أطرافها تخضع لنفوذ الأمم القوية المجاورة لها ، فكانت البحرين والحيرة تخضعان لنفوذ الفرس ، واليمن لنفوذ الحبشة والفرس ، وعرب غسان لنفوذ الروم ، فذهبت هذه التبعية إلى غير رجعة ، وتجمعت القبائل والأطراف العربية والقرى والمدن وبلاد الصحراء في وحدة سياسية شاملة .

٢ – وصار العرب يخضعون لحاكم واحد ، هو رسول الله ، ثم خلفاؤه من بعده ، يحكمهم بما أنزل الله ، فتجمعت الأهواء المتفرقة ، وتآلفت القلوب المتنافرة ، وتوحدت النظم المتباينة في جزيرة العرب ، وأصبحت لهم وحدة سياسية واجتماعية كاملة ، فوق وحدتهم في الدم والعنصر واللسان والدين .

٣ – وفتح المسلمون كثيراً من البلاد والأمم والشعوب ، وحكموها ، فتعود المسلمون عـلى فن الحكم وصار منهم الأمراء والولاة والقواد والقضاة والجنود ، وسجل الكثيرون مجداً يفخر به الدهر وترويه الأيام وأحسنوا معاملة أهل الأديان الأخرى والشعوب المحكومة وكان شعارهم الحق والعدل والإخاء والمساواة بين بني الإنسان كافة .

أثره في حياتهم العقلية :

١ ــ أول شيء ، وأكبر أثر للإسلام الكريم في هذا المجال الكبير ،هو أنه حارب الأديان الفاسدة ، والعقائد الزائفة ، ووجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له ، فرفع من شأن العقل ، وذم التقليد والمقلدين ، ونهى عن اتباع الآباء في غير الحق ، وحارب الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن العقل وتدعوه الى الكسل والجمود ، وسلب الاسلام الناس ما كانوا يزعمون من القدرة على تسخير ما في الوجود من غيب ، وجعل كل ذلك مرده الى الله وحده ، يعلم الغيب وما هو أخفى ، فزالت عن العقل ظلمات كثيفة كانت تحول بينه وبين الفهم والادراك والرؤية الصحيحة .

٢ ــ ودعا الإسلام الى العلم الصحيح ، والتفكير السليم ، وبعث في الناس حب المعرفة والثقافة ، وفرض على العالم إرشاد الجاهل وتهذيبه ، الى غير ذلك من مقومات الحياة الصحيحة .

٣ ــ وبتشجيع الإسلام للمعرفة نشأت العلوم الإسلامية ، وعكف العلمــاء على البحث والتنقيب ، مما كان أساس المدنية والحضارة في الإسلام .

إلى غير ذلك من مظاهر الرقي العقلي والفكري وفي مقدمتها أن الإسلام دعا الناس إلى أن لا يؤمنوا إلا بما يؤدي إليه العقل والدليل والبرهان الصحيح ، وإلى أن يمحصوا الأمور ، ويتثبتوا في الحكم على الأشياء ،فلا يصدرون عن عن هوى ، ولا يحكمون إلا بعد تنقيب وتدقيق واستنباط صحيح . وهذا هو منهج البحث في الإسلام ، وهو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية الباهرة .

رسالة الإسلام في عالم اليوم

— ١ —

منذ ألف وثلثمائة وثلاثة وخمسين عاما ، نزلت رسالة الاسلام على محمد ابن عبد الله ، وهي رسالة ثورية جديدة ، فيها كل مقومات الحرية والمساواة والعدالة والاخاء والسلام والرفاهية لبني البشر جميعا .. وبشر بها محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — هو وأصحابه وخلفاؤه والناس جميعا ، وآمن بها بعد قليل العرب جميعا ، ثم آمن بها الكثير من شعوب العالم وفي مقدمتهم : الفرس ، والكثير من بلاد الروم ، ومصر ، وشمال افريقيا ، والسودان وسواحل افريقيا ، والأندلس ، وكثير من أهل الهند والصين ، ومن شتى سكان الجزر الواقعة في البحار والمحيطات بين افريقيا وآسيا وأوربا ، وقامت بقيام الاسلام مدنية جديدة ، وحضارة مشرقة انتشرت في العالم أجمع ، وعم أثرها العرب وغير العرب على السواء .

قاد الاسلام المجتمع العربي الى مبادىء جديدة سامية ، من الحرية والامن والسلام ، ومن الاشتراكية والرفاهية والرخاء ومن المساواة والتعاون والمحبة والاخاء .

وسار به نحو سيادة العالم وتحريره من نير الاستبداد والطغيان والرجعية والاقطاع والرق والعبودية .

وسار به الى سبل جديدة ، لنشر المعرفة والحضارة والتقدم والنهضة والمدنية والكفاح من أجل خدمة الحياة والبشر والارض .

وقاده كذلك الى الروحية الرحبة ، والانسانية المهذبة ، والمثالية الكريمة ،

وجعل منه شعبا عظيما ، يؤمن بالواجب ويقدس المسؤولية ، ويحافظ على الشرف ، ويدافع عن العرض ، ويضحي بكل شيء في سبيل الحق والوطن ، ويوفي بالأمانة ، ويلتزم بالعهود والمواثيق ، ويراقب الله ويطيعه حق طاعته .

وقاده كذلك الى المغامرة في سبيل مطالب الحياة العالية ، والى المبادرة بنصرة الضعيف ، والوقوف بجانب المظلوم ومواساة المنكوب ، ومساعدة المكروب ، والعطف على الفقير واليتيم والمسكين .

وقاده كذلك الى الاقبال على العلم وتقديسه ونشره بين الناس والافادة منه في خدمة الحياة والبشرية كلها .

وقاده كذلك الى محاربة الأهواء والمحسوبية والأثرة والأنانيـــة والضعف الانساني ، ومحاربة كل الرذائل والشرور الذاتية والاجتماعية والخلقية .

وقاده كذلك الى كل المجالات العالية من ركوب البحار ، ومن السعي في الأرض ، ومن طلب الحياة الشريفة في أي مكان وكل أرض .

وقاده إلى خير الدنيا والسعادة ،وإلى طلب خير الآخرة ورضوان الله فيها.. والى كل أمل كريم ، وغاية شريفة ، ومطلب رفيع .

حرر الاسلام كل المستعبدين ، وأنصف كل المظلومين ، وجعل العدل واجبا ، والحرية حقا ، والعلم فرضا ، وساوى بين الناس جميعا .

— ٢ —

والاسلام اليوم له كل الصلاحية ، وكل الامكانيات ، وكل الآثار في قيادة المجتمع العربي .

فتقديس الشرف والعرض والكرامة والواجب والحق والمسؤولية والأمانة والوفاء بالعهود يجب أن نستمدها من ديننا الكريم وأصوله الشريفة .

وتعود الإيثار والتضحية في سبيل الواجب والوطن والشعب ، والنزاهة والتزام العدل بين الناس والمساواة بين الناس جميعا .. كل ذلك تراث ورثناه من ديننا وأسلافنا .

ومبدأ الكفاية والعدل وهو أحد مبادىء ديننا الخالد العظيم ، قد أمر به الاسلام والزم به الناس جميعا .

والوحدة والاشتراكية والحرية أمور تعود إلى ديننا السماوي الجليل بسبب وثيق .

اننا يجب أن نستمد من ديننا كل مقومات القوة والحق والواجب وشرف تحمل المسؤولية .

يجب أن نستمد منه حب العمل ، وحب الكفاح والنضال ، وايثار النزاهة ، والأمل العريض الطويل في الحياة .

والاسلام هو ميراثنا العظيم ، وهو منجاتنا في كل الأوقات والأزمات ، وهو سفينة الأمان تصل بنا الى شاطىء السلام .. وذلك كله مما يحدد موقف الاسلام في قيادة المجتمع العربي ، وفي القضاء على الظلم والاقطاع والرجعية في شتى أنحاء العالم العربي .. وليس هناك عامل لاستئصال كل أمراضنا الخلقية والاجتماعية والقومية الا الرجوع الى مبادىء الاسلام وأصوله العامة وتشريعاته الحكيمة ، نستلهمها ما يعيننا على السير في طريق الخير والحرية والسلام .

عناصر الخلود في الإسلام

— ١ —

الاسلام دين عام خالد صالح لكل زمان ومكان .

دين سماوي نزلت به الرسالة على محمد بن عبدالله ، كما نزلت على الأنبياء من قبله : ابراهيم واسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام .

عام لأن البشر جميعا مكلفون به منذ بدأت الرسالة حتى نهاية الحياة ، لا فرق بين صاحب دين وغير صاحب دين .

لأن رسالته مستمرة متجددة دائمة ، لم تنقطع ولن تنقطع أبدا ، حتى قيام الساعة .

صالح لكل زمان ، فقد طبق في كل العصور ، فنجح تطبيقه نجاحا لم تصادفه دعوة أخرى ، أو دين آخر .. وكلما طبق صادف تطبيقه هذا النجاح ، ولاقى مثل هذا الفوز .

صالح لكل مكان لأنه طبق في بيئات كثيرة بعضها في الشرق وبعضها في الغرب ، وبعضها في الشمال وبعضها في الجنوب ، وبعضها من العرب ، وبعضها من قوميات أخرى غير عربية .. فنجحت تجربة تطبيقه نجاحا منقطع النظير . وكلما طبق في مختلف البيئات لاقت التجربة نجاحا وتوفيقا وفوزا غير محدود .

— ٢ —

فما سر الخلود في الإسلام إذن ؟

الأمر واضح كل الوضوح ، فالسر في ذلك يرجع إلى :

١ — عظمة مبادىء الاسلام ، هذه المبادىء التي تتلخص في العدالة التامة والتكافل الاجتماعي الحق ، والشعور بالمسؤولية ، ومراقبة الله الحق في كل وقت ومكان ، وفي الاخاء والمساواة ، والأمانة والحرية والانصاف والاحسان ومعاملة الناس بما يحب المسلم أن يعامله الناس به .

٢ — مثالية الاسلام ، هذه المثالية التي تتجلى في دعوته دائما الى الايثار والبر والمعروف وتقديم الخير للناس ، وفي الروح الانساني الذي يسود جميع طاعاته وأوامره ، وفي دعوته للبر بالضعفاء والفقراء والمساكين والمخالفين في في الدين ، وفي فرضه للزكاة ، وتحريره للرقيق ، وايجاب كفالة اليتيم ، والانفاق على الارامل والمحتاجين وذوي الحاجة ، ومؤاساة المنكوبين ، ومواساة المكروبين .. الى غير ذلك من شتّى الفضائل الانسانية والقربات الطيبة الصالحة .

٣ — بساطة تعاليم الاسلام ، هذه البساطة الظاهرة في عقيدته ، الواضحة في عباداته ، الماثلة في طاعاته ومعاملاته ، وقوانينه وتشريعاته .

٤ — الحيوية التي تتمثل دائما في الاسلام ، فهو متجدد الحيوية ، متجدد النشاط والعمل من أجل صالح الفرد والجماعة والأمة والانسانية . . وهو بعيد عن الجمود وعن الخمول ، وهو دين يعمل من أجل صالح العامل والتاجر والزارع والصانع والموظف والمرأة والحاكم والمحكوم والغني والفقير والقوي والضعيف على حد سواء ، وهو دين يحدد لكل انسان مسؤوليته ويلزمه بها صغيرا كان أو كبيرا على حد سواء .. وفي هذا يقول الرسول العظيم — صلى الله عليه وسلم — : « ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام

راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته ، الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

٥ ــ روح الاسلام الثوري ، فهو دين طبيعته الثورة على مصطلحات الناس في المحاباة والمحسوبية والنفاق والزلفى وكنز الأموال دون أداء حقوق الفقراء فيها ، والثورة على ما تواضع عليه الناس من قيم الحسب والنسب والمال والمظهر والجاه والسلطان والثورة على العصبيات الاقليمية والقومية والعنصرية ، وعلى الفروق بين البشر ، التي تميز جنسا على جنس ، أو لونا على لون ، وعلى كل القيم الزائفة والمثل الباطلة ، والتقاليد الفاسدة ، وعلى الشرور والفساد والبهتان والطغيان والزور والاستبداد ، وعلى أكل اموال الناس بالباطل ، وعلى كل الرذائل والآفات والموبقات والمعاصي .

٦ ــ روح الانصاف التي تسود كل نظراته في المجتمع والحياة وفي معاملة الطبقات الفقيرة والمحرومة والعاطلة والعاجزة عن العمل .

٧ ــ دعوته الى العمل أيا كان هذا العمل ، وتقديسه له ، ورفعه من كرامة العامل في الحياة .

٨ ــ ديمقراطية الاسلام التي تتجلى في الشورى والتعاون والعمل من أجل صالح الغير والجماعة ، وفي الغائه الامتيازات الطبقية ، والامتيازات التي يمنحها الاقوياء ، والحاكمون لأنفسهم دائما .. وفي غير ذلك من الاعمال .

٩ ــ اهتمامه بالعلم والثقافة والمعرفة ، ودعوته الى ارشاد الجاهل ، وتعليم الامي ، وتثقيف الناشىء .

١٠ ــ توفر العناصر الحضارية في الاسلام ، هذه العناصر التي تتمثل في عمل الاسلام من أجل التقدم والنهوض واليقظة والتجديد والاصلاح وفي

ايجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي نشره لكل القيم النبيلة الطيبة الصالحة بين كل الناس ، وفي نشره للنور والمدنية والتهذيب بين البشر جميعا .. الخ .

— ٣ —

هذا قليل من كثير حفل به ديننا الخالد السماوي العظيم ، الذي يترجم عنه القرآن الكريم .. هذا الدين الذي أحدث ثورة في العالم ما بعدها ثورة ، والذي قاد العالم طول عصور التاريخ ، وحرره من حضارات زائفة وقيم باطلة وعبودية قاتلة ، واستبداد ما بعده استبداد ، والذي أيقظ الناس من سباتهم ، وفك أسرهم من وثاق الوثنية والجهل والجمود والشرك والرق والضلال ، ونفخ فيهم روح العزة والكرامة والثقة بالنفس والايمان بمقدرة الانسان في الحياة ، وبقيمة العمل الصالح في بنائها .

هذا هو الاسلام ، وهذا هو كتابه الحكيم ، الذي نزل هدى ونورا ورحمة ، شملت العالم ، وعمت أنوارها الناس والحياة .

— ٤ —

ان الاسلام دعوة الى الاخوة الانسانية العامة ، والى الزمالة البشرية المشتركة ، وهو دعوة انسانية عالية الى السلام العالمي المنشود .

ولقد رفع الاسلام أيدي الحكام عن الشعب وأمواله ، حتى قال محمد صلوات الله عليه لابن اللتيبة وقد استعمله على صدقات بني سليم ، فلما جاء النبي وحاسبه قال هذا الذي لكم وهذه هدية أهديت لي : هلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقا ، وفي بقية الحديث انه قام فخطب الناس ، ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه .

وساوى الفقير بالغني ، والصغير بالكبير ، والمحكوم بالحاكم ، والمرأة بالرجل ، والاعجمي بالعربي ، والوضيع بالشريف ، ولقد قال لفاطمة بنت محمد : يا فاطمة اني والله لا أغني عنك من الله شيئا .

حرية وعدالة واخاء ، وعلم ونهضة ، وشعور بالمسؤولية ، وتربية للوجدان والمشاعر وارهاف للذوق، والفطرة الانسانية ، ومؤاخاة للعقل ، لا حد لها .

هذا هو الاسلام وأصوله ومبادئه وهي — من غير شك — مبادىء تقود الانسانية ، ولا بد أن تقودها ، الى شاطىء الأمن والسلام والرفاهية لبني البشر جميعا .

الإسلامُ بينَ النظريّةِ والتطبيق

— ١ —

المبادىء شيء وتطبيقها شيء آخر ، هكذا يقول الباحثون في شؤون الاجتماع فالقد تكون المبادىء حلوة وجميلة ولكنها لا تصلح للتطبيق ، وقد تكون المبادىء غير انسانية وغير مثالية ، ولكنها حين التطبيق تدل على صلاحية للنجاح ، وكثير من المذاهب والأفكار القيمة ماتت بمرور الوقت ، وكثير من شرائع المجتمعات كانت آثارا لافكار ناقصة استكملت نموها بمرور الزمان .

— ٢ —

واذا فتشنا عن مبادىء الاسلام وجدناها من السمو والقوة والكمال بمنزلة عالية ، فهي ايمان بالحرية والعدل والمساواة وفيها دعوة الى الحق والواجب والتضحية والايثار والبذل والفداء وتحمل المسؤولية ، وفيها الزام بالمساواة والاخاء بين الناس جميعا الى غير ذلك من المبادىء الشريفة .. والاصول العالية الكريمة النبيلة .

ولما طبقت هذه المبادىء في عصر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثم في عصر الخلفاء الراشدين ، أحدثت ثورة اجتماعية وانسانية لم يكن لها مثيل في الأرض .. زحفت الشعوب لتعتنق هذه المبادىء ، وبادرت الى طلب الحماية من خلفاء المسلمين ضد ملوكهم الظالمين ورؤسائهم المستبدين ، ومترفيهم

الجاهلين .. وقابلت جيوش الاسلام بالتهليل والتكبير والحمد ، ووجدت لأول مرة طعم الحرية والعدالة والمساواة في الحكم ، وشعر كل انسان بكرامته وشرفه وحريته ، وانبتت هذه المبادىء العظيمة بمرونتها وسهولتها وبساطتها كل ثمرة طيبة في الأرض في كل مكان طبقت فيه ، فازدهرت الثقـافة والحضارة في العالم ، وتأهلت جذور المدنية في قلوب الملايين .

ولم يصب المسلمون بالذل والمهانة والانهيار الا بعد أن انحرفوا عن تعاليم دينهم ، واستهانوا بأصوله ، وخرجوا على حدوده ، وتحكم فيهم الملوك الظالمون ، والرؤساء الجاهلون .. ومكنوا للمستعمرين أن يطأوا أرضهم ، ويستعمروا بلادهم ويسوموهم سوء العذاب .

— ٣ —

ان الاسلام ، من حيث المبدأ ومن حيث التطبيق ، صالح لكل زمان مكان ، يحرز قصب السبق في كل معركة ، وينال الفوز في كل مجال يدخل فيه ، وكل طريق يسلكه .

وليس علينا اليوم في المنحرفين سبيل ، انما السبيل على أنفسنا اذا انحرفنا عن مبادىء الاسلام وأصوله التي تعززها مبادىء الثورة والحرية ، ثورتنا الفتية التي تجاهد من أجل مستقبل الاسلام ومستقبل أبنائه في الأرض .

علينا أن نسير في الطريق المعبدة التي ذللها لنا الاسلام الكريم ، وأن نستضيء بنوره ، ونستهدي بهديه .. حتى يصبح التوفيق والنصر حليفنا في الأرض ، والويل لنا لو انحرفنا عن السبيل أو حدنا عن طريقنا ، طريق الخير والمحبة والسلام .

— ٤ —

ومنذ نزلت رسالة الله الخالدة على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم

بشريعة الاسلام ، وهي تخوض أعنف المعارك ، وتلاقي أضخم الخصومات ، وانتصر الاسلام في جميع معاركه ، لأنه دين الحق ، ودين القيمة ، وشريعة الحياة .. انتصر في معاركه مع الوثنية فهدم صروحها ، وخفض عروشها ، وأزال دولتها من الوجود ، وكان محمد صلوات الله عليه يؤذن بفنائها ، منذ بعث الى الناس كافة ، حتى وهو في أشد المحن والخطوب ، كان يبشر بانقضاء سلطانها ، ففي هجرته صلوات الله عليه ، وهو يسير في طريقه الى المدينة ، وشباب مكة من أتباع الوثنية يعدون خلفه ليردوه إلى مكة ، حتى يظفروا بالجوائز الطائلة التي وعدتهم بها قريش ، ولحقه منهم سراقة الكناني المكي ، حتى كاد أن يبلغ الرسول ، وحتى لقد سمع قراءته ، وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، وما هو الا أن ساخت يدا فرس سراقة في الأرض ، فنزل من فوقها ، وأقامها ، ثم ركبها حتى كاد أن يصل الى رسول الله،وهتف قائلا : يا محمد ان قومك قد جعلوا فيك الدية ، واني خرجت أطلبك ، وأطلب بطلبك المال والمجد ، وكبا به فرسه مرة أخرى فأقامها ، وضرب القداح يستشير آلهته ، أيستأنف السير ، وأشارت عليه : أن لا ، ولكنه ركب جواده ، وانطلق في أثر محمد وصحبه ، حتى أصبح منه على مد البصر ، فلكز جواده ، ولكنه كبا به كبوة شديدة ، وألقى به بعيدا ، حتى كان سراقة يقول فيما بعد ، وهو يقص قصته : لقد شعرت حينئذ أنه قد قدر أن تفوز قضية محمد ، وهتف سراقة : أنا سراقة ، انظروني أكلمكم ، والله لا أريبكم ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، والتفت محمد صلى الله عليه وسلم اليه ، فاقترب منه وقص عليه قصص الناس في مكة وما يريدونه به ، وعرض عليه سراقة الزاد والمتاع ، فلم يأخذ منه شيئا ، وقال له : اكتم عن الناس خبرنا . ويلتفت رسول الله الى سراقة قائلا : كيف بك يا سراقة اذا لبست سواري كسرى وتاجه ومنطقته .. ثم يسكت ، ويسكت سراقة متعجبا مشدوها ، سوارا كسرى وتاجه ومنطقته !! يا للعجب ..

وتمضي الأيام ، وينتصر الاسلام على وثنية الفرس ، ويحطم امبراطوريتهم

الضخمة في عهد عمر بن الخطاب ، في معارك عظمى ، هزم فيها يزدجرد الثالث وجيشه اللجب ، وأخذت خزائنه فحملت دعا سراقة ، فدخل عليه ، فاستدناه منه ، وألبسه سواري كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له : ارفع يديك ، وقل الله أكبر ، الحمد لله الذي سلب السوارين كسرى الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة ، رجلا اعرابيا من مدلج ، ورفع عمر صوته ينادي الناس ، ثم أركب سراقة ، وطيف به في المدينة ، والناس من حوله يحتفلون بهزيمة كسرى ، وبصدق محمد رسول الله فيما بشر به وهو في هجرته ... وبذلك زال أكبر معقل للوثنية ، كما انتهى من قبل معقلها في الجزيرة العربية ، بفتح مكة .

ثم انتصر الاسلام في معاركه مع خصومه من اتباع الديانات الأخرى انتصارات مدوية ..

وانتصر كذلك في معركة الحياة ذاتها ، فما أكثر المبادىء التي تفوز في الحرب ، ولكنها تفشل في السلام .. وليس من ذلك الاسلام ، ودعوته الكبرى الخالدة ، فقد انتصر في معارك العلم والمدنية والحضارة وقضى على الوحشية والهمجية والجهل والاستبداد والطغيان ، وعلى عصور الاقطاع والرق والجاهلية ونشر مكان ذلك أسمى المبادىء وأنبل الأفكار ، وأمثل الآراء والأخلاق ، وجمع أمما كثيرة حول كتاب الله الحكيم ، فاتخذته لها اماما وقائدا ومرشدا ، وحقق وحدة اسلامية بين شعوب تختلف دما ولغة وأخلاقا وتقاليد ونظما ؛ وحدة هزت المشرق والمغرب ، وكانت حديث الناس في جميع المجتمعات القديمة ، وأثل المسلمون للحضارة الانسانية مجدا لا يطوى ، ومفاخر لا تبيد ولا تزول ، وسبقوا الى كثير من العلوم والصناعات والنظم ، مما جعل مدنيتهم المادية من الرفعة في مستوى عقيدتهم الدينية من القوة والمنعة ؛ وخلفوا وراءهم من الآثار ما لا يزال المؤرخون يكتشفون من غرائبه ما يطرفون به معاشريهم .

وهكذا خرج الاسلام فائزا منتصرا من جميع ما صادفه من الخصومات في تاريخه الطويل ، ومعاركه مع الصليبيين ، وفي جبال البرانس ، وعند بواتييه ، وفي جزر البحر الابيض ، وجنوب ايطاليا ، وفي الأندلس وفي قارة افريقية ، وفي البحار الكبرى ، وكذلك حروبه مع التتار ، ثم مع الاستعمار الفرنسي والانجليزي والأوربي بوجه عام ، كانت ولا تزال مضرب الأمثال في تاريخ الانتصارات الكبرى .

واليوم ، وبعد أربعة عشر قرنا من الزمان يقف الاسلام في عصر الذرة ، أمام العلم في سلطانه وجبروته وقوته ، يقف وقفة المجد والعظمة والجلال ، وقفة الشرف والقوة والاعتزاز ، أنه لا يهزم في معركته الحاضرة مع العلم ، ولن يهزم أبداً ، انه المنتصر العظيم في انتصاراته .

واذا كان الاسلام قد احتك برجال العلم القديم ، من أهل المذاهب والآراء والديانات المختلفة والثقافات المتنوعة ، ودل على شموخ ومنعة لا ترام ولا تنال ، وقضى الحق بأن ينتصر على كل اولئك انتصارات كبيرة ، كان مظهرها قوة دعوته وذيوعها حينا بعد حين ، وثبات مبادئه وشرائعه في مواجهة الحياة والعلم لأنها من القوة والسمو والرفعة بحيث يعشى الأبصار نورها ، ويعجز العقول جبروتها ، ويؤيد العلم في تطوره انها الحق الذي لا لبس فيه ، والصدق الذي لا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وانها في تجددها وصلاحيتها لكل زمان ومكان تتمشى مع أحدث المبادىء وأعظم التشريعات . واذا كان سولون المشرع اليوناني القديم قال كلمة رددتها من بعده الأجيال ، وهي : « أنا لم أشرع لأهل اثينا شريعة كاملة مصدرهـا الخيال ، وانما وضعت لهم قوانين توافق حاجاتهم وتلائم استعدادهم » فان من حق كل مسلم أن يقول أن شريعته ، كانت أغنى الشرائع ، وأسماها ، وأقواها على مواجهة الحياء والعلم في كل عصر وجيل .

واليوم يقف الاسلام أمام العلم ، العلم في عصر الذرة ، أمام جبروت العقل الانساني الذي وصل الى الفضاء ، فلا يطأطىء رأسه بل يشعر بالفخر ، اليس الاسلام هو الذي بشر ببلوغ الانسان الفضاء ، فقال في كتابه الحكيم : **« فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق »** وكان من معجزات الاسلام الكبرى الاسراء حيث طيف بالرسول الأعظم في الآفاق والأكوان والسموات السبع ، حتى بلغ سدرة المنتهى وسمع كلام الخالق جل جلاله ، وتلقى وحيه الكريم .

ان العلم الذي يقولون عنه انه جبار عات ومارد قوي ، وانه ما صاول دنيا الا تغلب عليه — ليقف اليوم مبهورا بعظمة الاسلام وجلاله ، وبعظمة القرآن كتابه الحكيم في كل نوحيه ، في مبادئه ، في دعواته ، في تشريعاته ونظمه ، في جوانبه الانسانية والروحية والمادية والاجتماعية ، في نظراته الفكرية والسلوكية ، في كل شيء احتوى عليه . والاسلام الـذي احتك باليهودية والمسيحية وبالنحل الفارسية والسوريانية والكلدانية والاغريقية والفرعونية ، يقف اليوم أمام الفلسفات الأوربية المختلفة ، والنزعات المتباينة المتناقضة وقفة فيها ايمان بالنفس وشموخ بالحق ، واعتزاز بالقوة ، وعلى ما بلغه العلم اليوم من خوارق ومعجزات ، فانه حتى الآن لم ينقض مبدأ من مبادىء الاسلام ، ولا أنكر أصلا من أصوله ، ولا استطاع ان يهدم نظرية من نظرياته الشامخة ان العلم في جلال عنفوانه سيكون من أقوى اصدقاء الاسلام وانصاره ، لأن الفلسفات الاسلامية ، والأصول القرآنية ، تتلاقى وأمثالها من التي اهتدى اليها العلم أشرف التقاء ، وليس بينهما موطن نزاع على شيء من الأشياء ، حتى دعاة « المادية الجدلية » الذين يضللون الانسانية يشعرون في أعماق نفوسهم أنهم ليسوا على شيء ، وأن الاسلام والقرآن حق لا ريب فيه ، ودعاة المذهب المادي الذين يقولون بخلو الوجود من غير المادة وقواها ، لا يستندون على أساس متين من العلم ، ولا على تجربة حسية مرغمة

والعلم بعد أن بلغ أوجه قوته ، يأبى أن ينقاد للذين ينعتون بالعدم أو بالوجود ما ليس لهم به علم ثابت ، وهذا هو الأصل للفلسفة الحية ، وبما أننا نجهل أصول الكائنات ومصائرها ، فلا يجوز لنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لا حق لها ، كما لا يجوز لنا أن نثبت ذلك واذا كانت هذه هي أبجديات الفلسفة الحسية فانه ليس منها في شيء ما يذهب اليه الماديون من حكمهم الجازم بقدم المادة وأبديتها ، وبعدم وجود عالم أرفع من عالمها .. واذا كانوا ينكرون العالم العلوي بدعوى انه مما لا تدركه أبصارنا ، فان في الوجود الذي نعيش فيه ظواهر مادية كشفها العلم وقررها ، ونحن لا نعلم بوجودها ، فهل يتفق مع العقل والعلم ان نذهب الى وجوب نكرانها ؟ كلا ، ان الانسانية تعيش وما تزال تعيش في جهالة كثير من الأمراض التي تصيب جسم الانسان ، وحواسنا تخدعنا بحقائق كثيرة من أسرار الحياة ، فلا تزال تجهل سر الحياة وأسراراً في أشياء كثيرة ، ولا تستطيع ان تكشف لنا كل ما هو موجود ، بل انها قد تعطينا أحكاما كاذبة عن الكون المحيط بنا ، ومن الخطأ الكبير أن نقول ان ما نشاهده في هذا الكون هو كل ما فيه .. على أن الكثيرين من أعلام العلم الحديث وسدنته قد أثبتوا عن طريق العلم وجود عالم أعلى من عالم الطبيعة ، فكيف نكذبهم بدعاوى تقوم على التوهم المحض الذي تقوم عليه وعلى التحكم الباطل دعوة المادية الجدلية .. وهذا « أميل بوترو » الفرنسي يؤكد في كتابه « تغلب النواميس الطبيعية » : « ان من الخطأ أن يقال أن النواميس هي التي تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هي التي اقتضتها » .. والى أي حد تنحصر هذه النواميس في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها علم ؟

ان العلم في عصر الذرة يقف متضائلا امام عظمة الكون ، وجلال الخلق وابداعه وسمو القوة التي تحكم مصائره ، انه يقف على عتبة هذا الكون العظيم مذهولا بما يشاهد ، مشدوها بما يرى ، متحيرا في أسرار هذه العظمة الباهرة ،

وآثار هذه القوة الخارقة القادرة ، فمن الذي خلق الضحى والليل اذا سجا ، والنهار اذا تجلى ، والقمر في عليائه ، والشمس في رفعتها ، والنجوم في زينتها ؟ من الذي خلق هذه الأجرام العلوية ، الضخمة ورفعها ؟ وأوجد هذه المجموعات المتوالية من الأكوان العجيبة الغريبة ؟

ليس هناك شيء الا الله ، الذي خلق الحياة وصورها ، وأبدع كل شيء خلقه ، وكل شيء أوجده .

ووجود الله أصل « يستدعي الايمان به وبرسالاته ورسله وبالعالم الروحي ، وبالبعث والحساب واليوم الآخر ، وصدق الله العظيم حيث يقول في الكتاب الحكيم : « **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟** »

— ٦ —

والآن ما هي رسالة الاسلام في عالم اليوم ؟

تتلخص أصول الاسلام في العقيدة الاسلامية وفي المبادىء الاساسية للمجتمع الاسلامي وفي نظام العبادة للمسلم وفي الاسس التي يبنى عليها كيان الامة الاسلامية .. وفي افكار الاسلام الاساسية في خدمة الحياة نفسها .

أما من حيث العقيدة فهي عقيدة انسانية تؤمن بالله ورسالة محمد وبرسل الله جميعا لا تفرق بين أحد منهم .. ومن حيث نظام العبادة للفرد المسلم فهو يتلخص في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج .. الى وجوب اعتناقه للفضائل الانسانية الاخرى من صدق ووفاء ورحمة وشفقة وايثار وبر وأمانة الخ ..

ومن حيث مبادىء المجتمع الاساسية في الاسلام فهي تقوم على :

١ — الشعور بالمسؤولية .

٢ – التعاون التام .

٣ – العدالة الكاملة والتزامها .

٤ – المساواة بين جميع أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات .

٥ – الحرية الكاملة لكل الناس والطبقات .

٦ – نشر الرخاء بين جميع الناس .

٧ – توفير العمل وجعله حقا لكل واحد .

٨ – كفالة الدولة لجميع مرافق الحياة وايصالها لكل الناس بالمجان ما دام ذلك ممكنا .

٩ – مساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته دون ما تأخير .

١٠ – السهر على خدمة المجتمع وخدمة الامن بكل وسيلة .

١١ – محاربة كل الوان الفساد الاجتماعي والرذائل الاجتماعية والخلقية والقضاء عليها الى غير ذلك من مبادىء ليس هنا مكان شرحها .

اما من حيث الاسس التي يبنى عليها كيان الامة الاسلامية فتتلخص في الشورى – السلام بين طبقات الامة – العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي – القضاء على الامتيازات الفردية والاجتماعية الا ما يرجع الى العمل وخدمة الامة – نشر التعليم وجعله حقا لكل فرد – الى آخره .

أما افكار الاسلام في خدمة الحياة فهي ترجع الى مبادئه في تحرير الارقاء والمستعبدين والمستضعفين وفي نشر السلام ، وفي تبادل التجارة بين أمم الارض ، وفي نشر الثقافة والحضارة ومساعدة الامم المتخلفة ، وفي الانتصار لكل ضعيف ومظلوم ، وفي العمل على تقدم الحياة واثرائها بكل جديد نافع ، ومبتكر صالح .. الخ .

ورسالة الاسلام في عالم اليوم تستمد من جوهره وحقيقة مبادئه العامة وفي الامكان اجمالها فيما يأتي :

١ ــ نشر الروحية في عالم اليوم الذي تغلبت عليه المادية وحكمته فلسفاتها الجائرة .

٢ ــ الدعوة الى الاخوة الانسانية في عالم اليوم المليء بالاحقاد وبالاسباب التي تهدد السلام العالمي في كل لحظة .

٣ ــ الدعوة الى تحرير العناصر والشعوب المستعبدة لان ذلك من جوهر الاسلام وطبيعته .

٤ ــ العمل من أجل ثقافة جديدة مثالية .

٥ ــ نشر أعمال المفكرين المسلمين ومبادىء الأسلام وبطولات ابطاله وقواده ومواقف قادته بكل لغة لتكون تراثا للناس يستهدون بها ويسترشدون بسموها .

٦ ــ الكشف عن أصول الحضارة الاسلامية واعمالها في خدمة العالم ونشر ملخصات عنها بكل لغة .

٧ ــ انشاء معاهد ثقافية واسلامية في جميع انحاء العالم لنشر الثقافة العربية الاسلامية .

٨ ــ كتابة التاريخ الاسلامي في موسوعة عربية بأسلوب جديد يتفق مع تطور الحياة والفكر العالمي المعاصر .

٩ ــ نشر مفاخر الاسلام في خدمة الشعوب التي استظلت بظلاله وفي النهوض بها وكل ما اسداه اليها الحكم الاسلامي من نهضة وتقدم وحضارة ورقي .

١٠ ــ الدعوة الى مبادىء الاسلام الاساسية في الحرية والشورى والمساواة والتكافل الاجتماعي والاخاء والعدالة وغير ذلك . هذا قليل من كثير مما يجب عمله ومما يستطيع الاسلام خدمة الحياة والحضارة والعالم في مجاله .

الفصل الثاني

الطريق الى الدين – كل الطرق توصل الى الله – خصوم الدين – العالم يسير الى الدين – الدين ضرورة إنسانية – أخناتون والتوحيد – المادية حرب على الأديان – بين المادية والروحية – .

الطريق إلى الدين

إن الإيمان بالخالق المدبر فطري في كل انسان ؛ وليست الفطرة في الإسلام، عن طريق الوجدان هي طريق الايمان بل أوجب الإسلام الإيمان عن طريق العقل والبحث والنظر .

وإذا كان العلم الناشيء عن الوجدان ، والعلم الناشيء عن البحث والتأمل ، والعلم الناشيء عن رسالات السماء ، كلها توصل إلى الله ، فإن الواجب في الإسلام اقتران العقل بالوجدان في البحث في أمور العقيدة والدين والتوحيد ، وأصبح من الحتم على المسلم أن يجعل إيمانه صادراً عن تفكير وبحث ونظر ، وأن يحكم العقل تحكيماً مطلقاً في الإيمان بالله تعالى .

وهناك ما لا يستطيع العقل فهمه من الغيبيات ، التي أمر الله تعالى الناس بالإيمان بها ، وتلقى علمها من الكتب السماوية دون محاولة عرضها على العقل وذلك من مثل ما ورد عن الآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب وكذلك ما ورد عن بدء الخليقة .

إن العقل مهما تكامل فهو متفاوت النظر قصير الإدراك في جانب علم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، وقال الله سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، فكان من لطفه وإحسانه أن أرسل الرسل معلمين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وكان من لطفه وإحسانه أن أرسل إليهم الرسل بما يلزم معرفته والإيمان به من علوم السموات والأرض منظمين لحياة الناس في أسرهم وفي مجتمعهم وفي علاقاتهم كل أمة مع غيرها

من الامم حتى يعيشوا إخواناً متحابين ؛ ودلوهم على طقوس من العبادة تربطهم بخالقهم ، حتى تعز نفوسهم ولا تنكس رؤوسهم لغير خالقهم ، يعبدونه لا يشركون به شيئاً ، ثم كانت هذه الشعائر هي التي تهذب نفوسهم حتى تحسن علاقات بعضهم ببعض ، وحتى لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا ويكونوا إخواناً متعاونين وإخوة متساندين . وقد أرادت أن تلزم الناس فجعلت لكل إنسان جزاء على ما يعمل (فمن يعمل مثقال ذرة خير أيره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ؛ حتى يحاسب كل إنسان نفسه قبل أن يحاسب وحتى يخاف ربه ، ويشفق من دينه ، فلا يفعل إلا خيراً ، فإن نسي أمر ربه وانحرف عن سبيل طاعته وأساء يوماً إلى نفسه أو إلى أخيه ، فإن أمره في يسر بلا عنت ، وإن ربه رحيم به ، لا يوصد دونه باب الإصلاح والاستصلاح فليعد إلى ربه وليستغفر من ذنبه والله غفور رحيم ؛ فمن أبى إلا أن يكون شريراً مفسداً ومعانداً مؤذياً فقد جعل له عقوبات في الدنيا تزجره حتى لا يعود ، وتزجر غيره حتى يصد نفسه عن الشر . كل هذا ليسود الوئـــام والحب ، ولا يبغي بعض الناس على بعض ، وتتحقق الخلافة المنشودة . فما كانت مهمة الأديان إلا تعليم الناس وتوجيههم إلى الخير ، وما كانت فضولا ولا إعناتاً للناس . وإنما الفضول والإعنات أن يترك الناس هملا وأن يخلقوا عبثاً وأن يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء ، وأن يكون المسلم كالمجرم ، والمسيء كالمحسن .

هذا هو الخلاف بين رجال الدين والمنتسبين إليه وبين غيرهم من دعاة الإلحاد والزندقة ، الذين يريدون أن يصرفوا الناس عن التدين بشبهة أنه يخالف المدنية ، « **ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** » . وبالله لقد علموا لو كانوا يعلمون أن التدين لا ينافي المدنية الحق ، فإن المدنية الحق تقوم على نظام وتآلف ووطنية وصدق ووفاء وأمانة وقوة ودفاع وحرية ونظافة وعمل ونشاط ومعاملة دقيقة

رقيقة وعدل وإحسان . وكل هذه هي مما يدعو إليه التدين بل تدور في محوره . فليس يدخل في مسمى التدين الصحيح رجل يشتمل على فوضى وإهمال ولا رجل يستهين بحقوق الآخرين ، فلا يرعى واجبهم أو يفرط في وطنه فلا يفتديه بأعز ما لديه من مال ونفس ، أو رجل غاش أو خائن يستهين بكرامته في سبيل توزيع سلع فيحلف كاذباً ، أو يبيع شيئاً باسم شيء سواء ، أو رجل جلف غليظ يسيء إلى الآخرين أو يأكل حقوقهم أو أموالهم بالباطل . فكل طمع في حق الناس وكل أثرة وأنانية وكل معاملة غير مرضية ليست مما يمت إلى التدين في شيء ، وقد جمع رسول الله ذلك كله في كلمة واحدة « الدين المعاملة »

إن الإيمان بإله قادر عليم صانع حكيم مما دلت عليه الفطرة وهدى إليه الفعل ، فقالت به العامة والدهماء بمقتضى فطرهم وسذاجتهم ، كما قال به الحكماء والفلاسفة على مقتضى أدلتهم ومقدماتهم .. واستدل الأعرابي بالسماء وكواكبها والأرض ومسالكها على اللطيف الخبير . وكما استدل بالنور على النهار وبالخطوة على السير ؛ وكما استدل الحكماء على وجود الله بترجيح الوجود على العدم وكل ترجيح لا بد له من مرجح ، والمرجح هو الله تعالى .

وهكذا يتفق جميع العقلاء إلا من اجتالتهم الشياطين على إله مدبر لهذا الكون متصف بالكمال كله ومنزه عن النقص .

إن الأديان السماوية رحمة من الله بالعباد ، لتقيل عثار الإنسانية وتزيل تخبطات بني آدم في معاملاتهم ، وتحقق بينهم معاني الوئام والحب وترشحهم لخلافة الله في الأرض إخواناً متحابين وإخوة متساوين . والعقل وحده لا يكفل هذه المعاني النبيلة ، ولا يحقق هذه الأخوة الهانئة السعيدة : فالعقل يتحكم فيه الهوى فيميل به إلى الظلم والبغي ، ولهذا يقومه الدين ، يقول الله تعالى **« كونوا لله قوامين شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الولدين والأقربين »** . ويقول **« كونوا قوامين شهداء لله بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله »** .

فالعقل وحده لا يغني في إصلاح النفوس ، وتقويم الأخلاق وإشاعة الحب المنشود . أليس العقل هو الذي سلط الماديين الأقوياء اليوم على الضعفاء ليستعمروهم وليسلبوهم حرياتهم ؟ والأديان السماوية تأبى ذلك وتقاومه ، أليس العقل هو الذي تفنن في صنع الناسفات والمدمرات والأقمار والذرات وما إلى ذلك من الفضول ، تشقى به اليوم الإنسانية على حين تدعو الأديان إلى سعادتها ، وجمع شملها ؟

وبعد فإن العقلاء يتناقضون ويختلفون اختلافاً كثيراً جداً في وجهات نظرهم تبعاً لاختلاف ثقافتهم ، وتعدد بيئاتهم ، وتضارب ميولهم وعصبياتهم ؛ بل العاقل الواحد يناقض نفسه فيقول اليوم غير ما قال بالأمس ، لأنه اليوم في ظرف يختلف عنه بالأمس ، وفي جو غير جو الأمس وهكذا .

ولكن علم السماء واحد لا يختلف ، لأنه لا تتجدد به الأطوار ، ولا تختلف عليه الأجواء ، ولا وجود عنده لعصبية ولا هوى . وصدق الله إذ يقول « **أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** » .

وإذاً فالأديان السماوية خير سناد للفكر ، وموجه له ، توفر على الناس تجاربهم ، وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وتحول بينهم وبين التورط في العصبيات الممزقة الشمل ، والأهواء المصدعة للوحدة المنشودة ، وصدق الله إذ يقول : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فالآية الكريمة تدل على أن الاهتداء بهدي الأنبياء ضروري للبشر وأنه لا غنى لهم عنه مهما بلغوا من كمال العقل ، فإن العقل لا سبيل له إلى الوصول للحق ومعرفة ما يلزم لإنسان في توفير مصالحه وتنحية الشر عنه . فالأديان إذاً معوان للناس على تحقيق مآرب البشرية في حدود السلام والحب العام ، فهي بر ورحمة بهم ولولاها لبلغ الحيف اقصى مداه ، واضطربت بالناس سبل

الحياة ، كما ترى حين ينصرف الناس عن الأديان ويعرضون عما تلتزم به من رفق وحنان ، ولهذا صح أن يقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وقاتل الله هذا العلم الشيوعي فهو الذي فرق الجماعات البشرية وأدار رحى تلك الحروب بينها ، وصير رقاع الأرض مجازر بشرية بدل أن تكون رياضاً فيحاء وجنات عدن لأبناء آدم الأخوة الصادقين عن الصراط المستقيم .

والإسلام إذاً واحد من تلك الأديان يمثلها في أصول الخطط والتوجيهات ، وإن يكن بينها وبينه اختلاف فمن حكم اختلاف الأزمان والظروف والبيئات وما يستتبعه ذلك كما اختلف بعض الأديان مع بعض من قبل ، وكما يختلف المسلمون أنفسهم في بعض أحكام المعاملات باختلاف البيئات والعرف والأزمنة ومستتبعاتها . وقد وسع الإسلام ذلك كله لأنه آخر الأديان ، وأوسعها رقعة ، وأطولها مدة ولهذا تنوعت فيه الأحكام بين العزائم والرخص ، وتنوعت فيه تلك الرخص بما يرفع الحرج عن الناس في معايشهم ، ويكلفهم بما يطيقون في عبادتهم ، فالدين ليست مهمته الإعنات وإنما هو سناد للإنسانية وحاجز بين بعض العباد وبعض أن يختلفوا ، كما رأيت ؛ ومهذب لنفوسهم حتى لا يضلوا ، ومبين لهم حتى لا يضطربوا ؛ والله بكل شيء عليم .

إن من العجب أن ينكر الماديون الدين ، وهو حق لا ينكره إلا من بعقله خبل . تالله لقد كفروا بأنفسهم وضل سعيهم ، وما العقائد إلا معنى متأصل في النفوس مركوز في الفطر ، لا يذهب إلا إذا انسلخ الفرد من إنسانيته ورضي أن يكون حيواناً بهيمياً لا يفقه حديثاً ولا يرقى منزلة ، ويومئذ تميد الأرض وتزول الجبال وتخلو الدنيا من القائمين بالأمر ، يومئذ لا يجد الناس قائماً على شؤون الناس فيهلك العالمون ؛ ويفنى الباقون .. حينئذ تذهب خلافة الله ، وإذا ذهبت خلافة الله من الناس ، فقد قامت قيامتهم ولم يكن فيهم صلاحية للبقاء .

ومن العجب حقاً أن ينكر الماديون الأديان وفيها توجيه العالمين ، وفيها تقاليد الفضائل ومقاييس الحياة الصالحة ، وفيها الخير لهم لو يعلمون علم اليقين ، قالوا إن الأديان أفيون الشعوب ، والأفيون ما هم فيه من الترهات والافتعالات . وأما الأديان فهي نور للناس تمشي بها . إن الأفيون هو تلك الشيوعية التي طالما ضللت الناس عن القصد وأغوتهم بالشهوات ، وهي للسم الزعاف والمفرق لكلمة الناس والموقعة للعداوة والبغضاء ، لأنها لم تنظم على وفق ما رسمت الأديان . إن هذه الإباحية والتحلل إن نجحت فإلى حين قريب ، ثم يموج بعض الناس في بعض ويبغي بعضهم على بعض ويرتفع الهدوء والسلام . ويذهب الحب والوئام لا محالة ، فالرغبات متعارضة والميول متضاربة إن لم يكن بعين الأفراد فبعين الشعوب ، ولا حكم بين الناس مثل الأديان التي خلت من الهوى وتجردت من كل معنى إلا إشاعة الحب بين الناس في كل زمان وفي كل مكان ، « **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ‌* الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** » .

إن بين المادية والدين عداوة شديدة وحرباً لا هوادة فيها ولا مهادنة ، وهذا أمر طبيعي ، فإن المادية نظام يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل ما يقع في التاريخ من حركات ، فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية ولا مرجع له غيرها ، وما دامت الأسباب الاقتصادية ـ دون غيرها ـ هي التي تملي على التاريخ حركته وتسيره حيث تشاء ، فلا مجال هناك للاعتراف بالخالق أو قوة وراء الغيب توجه البشر إلى مصائرهم بقدرة وإرادة . والشعور الديني عندنا وعند كل ذي دين في الأرض ، هو إحساس طبيعي في الإنسان يشعره بأن من فوقه قوة عليا توجهه وتسدده في طريقه ، وتعصمه من اليأس

في ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ، وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية ، وتربط البشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاونة من غير انتظار لجزاء مادي أو غير مادي يلقاه الإنسان على الأرض ، فهو إذن شعور مثالي لا يتم تمام الإنسانية إلا به ، ولا يتحقق السلام على الأرض بغيره .

ولكن أتباع « ماركس » لا يرون في الدين هذا الرأي ، فليس الدين عندهم إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية ، ولوناً من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس ، فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع ، ومن واجب الشيوعيين أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويبرأوا من كل آثاره . كذلك يقول الشيوعيون ويلقنون أتباعهم بصراحة مكشوفة وبلا مواربة .

ويفيض فلاسفة المادية في تبرير إنكارهم للدين ومحاربتهم له ؛ فيزعمون أن الدين خرافة وجهل ، ويعللون انتشار الأديان بالظروف المادية التي عاش فيها الإنسان الأول ، فيقولون « إن الإنسان الفطري في العهد البدائي كان يقف عاجزاً أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والفيضانات وغيرها ، وكان جهله بأسباب تلك الظواهر يجعله يردها إلى إرادة عليا ، يسعى إلى كسب عطفها والتماس أسباب الزلفى إليها بتقديم القرابين واصطناع الوان العبادات ، ومن ثم نشأ الإيمان بالقوى غير المنظورة ، وعبادة تلك القوى ؛ ثم استفاضت تجارب الإنسان ، واتسعت آفاق معرفته ، وأنارت الكشوف العلمية بصيرته ، ولكن نظام الرأسمالية الجاثم على صدور الناس ظل يخضعهم لقوى أمضى سطوة من القوى المجهولة التي كان يخضع لها الإنسان البدائي ؛ فرأس المال يستطيع أن يسلط على الإنسان الفقر والبطالة ، ويعرضه للأزمات المالية المذلة والحاجة الملحة ، فيجد نفسه مضطراً إلى الاستعانة بالقوى غير المنظورة أي

بقوة الله ؛ وهذا الإيمان يلائم الطبقة المستغلة ، إذ يصرف جموع الشعب عن الكفاح في سبيل السعادة الدنيوية ويجعلها تتعلق بأوهام البعث ، ويغري الدين الناس بأن يشتغلوا بالعبادة ويخضعوا للطبقة المستغلة ، ويتقبلوا النظام الرأسمالي على أنه نظام لا مفر منه وقضاء لا مرد له ، ومن شأن الطبقة البورجوازية أن تؤيد الروح الدينية لتضمن سيطرتها على الطبقة العاملة ، كما يشجع المستعمرون الأديان لتعيش جماهير الشعب في البلاد المغلوبة على أمرها سادرة في ظلمات الجهل والاستسلام . وهذا في رأي الماركسيين سبب تعاون المستعمرين مع رجال الدين ، ممثلي الرجعية » [1] .

ولكارل ماركس كلمة مشهورة عن الأديان جرت في أفواه الماديين مجرى الحكم والأمثال ، وهي : « إن الدين أفيون الفقراء » ! وللزعيم الشيوعي لينين كلمات مأثورة في الحملة على الدين والحض على الإلحاد وتسفيه المعتقدات الدينية ، منها قوله : « الماركسية هي المادية ، وهي من ثم معادية للدين ! » . وفي فلسفة المادية أن « ليس هناك حقيقة سوى المادة ، ولكن هذه المادة ليست شيئاً مجرداً ، وإنما هي تشمل الإنسان وأعماله ، ويتكون التاريخ من عمل الإنسان في المادة وتأثير المادة في الإنسان ، وبين الإنسان والمادة تأثير متبادل ؛ فالمادة تغير من الإنسان والإنسان في دورة يغير في المادة لتلائم حاجاته وتقضي لباناته . وعلاقة الإنسان بغيره أساسها الإنتاج والاستهلاك ، وهو باعث الحركة الديالكتيكية التاريخية وصراع الطبقات ، وتقضي الحركة الديالكتيكية بأن يظل الصراع قائماً بين الفقراء المستعبدين والأغنياء المستغلين ، حتى تحدث الثورة ويحطم العمال النظام الرأسمالي ويتحقق الفردوس الأرضي ». ولا مكان للروح في مثل هذه الفلسفة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحشرات والسائمة بقدرته الفنية ، وليست هناك حياة أخرى ولا عالم روحي ولا حرية ، لأن الإنسان خاضع للضرورات المادية ، وأما الآداب والأخلاق فليس لها

(١) عن كتاب « حقيقة الشيوعية » – تقديم الرئيس جمال عبد الناصر .

مصدر علوي ، وإنما هي وسيلة لحفظ المجتمع » . ومن أقوال لينين في ذلك « علينا أن نكون مستعدين لكل لون ألوان من التضحية ، ، وإذا استلزم الأمر فإننا نمارس كل شيء ممكن ، فالحيل وفنون المكر وكل الأسباب غير الشرعية جميعها مباحة ، وكذلك السكوت وإخفاء الحق .. وموجز القول أننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات ! » . ويقول أحد الماديين في تقديمه لكتاب لينين عن الدين ، « الإلحاد جزء طبيعي من الماركسية لا ينفصل عنها » .

وفي برنامج المؤتمر السادس للدول الشيوعية الذي عقد في سنة ١٩٢٧ ما يأتي : « الحرب ضد الدين — أفيون الشعوب — تشغل مكاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية . ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة . وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ، ولكنها في الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التي تملكها للقيام بدعاية ضد الدين ، وتنظم التربية على أساس التصور المادي للدنيا » . ويقول لينين في فصل له عن « الاشتراكية والدين » ما يلي : « الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم في الفقر الاستسلام والصبر في هذه الدنيا ، ويغريهم بالأمل في المثوبة بالعالم الآخر » ويضرب لينين على هذه النغمة في فصل له آخر عن موقف حزب العمال من الدين فيقول : « قال ماركس إن الدين هو أفيون الفقراء وهذا حجر الزاوية في الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها ، والكنائس وكل أنواع المنظمات الدينية آلة لرد الفعل البورجوازي الذي يستهدف الاستغلال ضد مصالح الطبقة العاملة » . وفي كتاب أرسله لينين إلى الكاتب الروسي مكسيم غوركي يقول لينين : « إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شيء غير موجود ، وبدون أن نزرع لا نستطيع أن نحصد وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والألهة لا يبحث عنها وإنما تخلق [1] .

كذلك أصدرت الحكومة الروسية في ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ مرسوماً حدد

---

(١) المرجع السابق .

مسألة حرية الدين وموقف الدولة السوفياتية تجاه الدين والجمعيات الدينية ، وقد أعلن هذا المرسوم التاريخي ما يلي :

١ ــ الكنيسة منفصلة عن الدولة .

٢ ــ محظور إصدار أية قوانين محلية أو لوائح في أراضي الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييد حرية الضمير ، أو إيجاد أية امتيازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

٣ ــ كل مواطن له أن يعتنق أي دين ، أو لا يعتنق أي دين على الإطلاق .

٤ ــ لن تجري أية مراسم أو احتفالات دينية في أي عمل من أعمال الدولة أو في أي احتفال رسمي عام أو اجتماعي .

٥ ــ حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة الى الحد الذي لا يؤدي إلى اضطراب النظام العام ، إذا كانت غير مصحوبة بالتعدي على حقوق المواطنين في الجمهورية السوفياتية .. وللسلطات المحلية الحق في اتخاذ جميع التدابير اللازمة في هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

٦ ــ لا يستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

٧ ــ يلغى كل قسم أو عهد ديني ، وفي الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

٨ ــ تقوم السلطات المدنية ــ وحدها ــ بجميع أعمال التسجيل المدني عن طريق مكاتب تسجيل الزواج ، والميلاد .

٩ ــ المدرسة مفصولة عن الكنيسة ، والتعليم الديني محظور في جميع المدارس العامة والخاصة . ويتعلم المواطنون الدين على انفراد [١] .

---

(١) المرجع السابق .

كلّ الطرق توصل إلى الله

نحن نعيش اليوم في معركة الإيمان ، معركة حقيقية مع خصوم الدين ، مع الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومع الذين يزعمون أن الإيمان والأديان والبعث والقيامة والملائكة وسائر أمور الغيب إن هي إلا خرافة ، وإن هي إلا دجل ، وإن هي إلا استغلال لعواطف البشر .. هكذا يقولون ويزعمون ، وبئس ما يزعمون . ونجادل هؤلاء الشاكين في الدين وفي الله وفي الرسل ، فنجد عقلا فارغاً ، وقلباً جاحداً ، وضلالا استحوذ على أنفسهم ، وسولت لهم الشياطين هذا البهتان ، وهذا الكفران ، وسارت بهم في صحراء مظلمة ليس لهم ولا لمن يضللونهم منجاة منها إلا من عصم الله .

يقولون : « إن العقل قد ارتقى في عصر العلم ، وإن الآلة سحقت كل شيء ، وإن الحياة ليس فيها إلا جبروت هذه الآلة التي يقودها عقل الإنسان ، فالعقل يجب ألا يخرج عن نطاق العلم التجريبي ، وألا يسير وراء الأوهام ، وأن يعمل مؤمناً بالحياة وحدها ، هكذا يقولون ويسرفون ويبالغون ، ويستمرون في مزاعمهم الباطلة ، وفي جحودهم المطلق ، وفي كفرهم الصريح وفي دعوتهم إلى الإلحاد والثورة على الدين والمتدينين ... إنها ثرثرة فارغة وقول هراء ، وأكاذيب ملفقة ، بل ضلال وبهتان لاحد لهما . ولو استمع هؤلاء لصوت ضمائرهم ، ولو ركنوا إلى الحق قليلا ، ولو أنصتوا لحكم التفكير الصحيح ، لعلموا أن ما يتقولون إن هو إلا باطل وضلال مبين ، وزور من القول وبهتان عظيم . إن العقل يرشدنا دائماً إلى الله وإلى الدين وإلى الحق .. العقل المجرد من الهوى المنزه عن الغرض ... العقل البريء الذي لم

تلوثه الشهوات ولا المطامع ولا الأغراض ولا العصبيات ، فالعقل دائماً يقف مؤمناً بالله وبالرسل وبالدين وبوجود الملائكة وبالآخرة وبالبعث والنشور والحساب ؛ لأن العقل يأبى أن يرى قدرة الله وآثارها الظاهرة في السماء والأرض وفي خلق الإنسان ، ثم يكفر بوجود الله ، ولأن العقل لا يستطيع أن يفهم أن الحياة خلقت عبثاً ، ولا أن الناس خلقوا سدى ، ولا أن الإنسان يعيش لدنياه فحسب ، ولأن العقل يأبى أن يصدق مزاعم الجاحدين والكافرين والمشركين : من أن الدين خرافة ، وأن الحياة ليس وراءها بعث ولا نشور ولا حساب .

إن العقل دائماً في صف الإيمان . إنه يقف مشيراً إلى وجود الله وقدرته ، إنه يقول ما قال القرآن الكريم : « **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون** » ، العقل يقف متعجبا من خلق الإنسان ، وما ركب في جسمه من أذنين وعينين وساقين ويدين ، وما أودع في جوفه من قلب ، وفي رأسه من عقل ، ولا يجد مناصاً من أن يعترف بأن خالق ذلك كله هو الله الذي أتقن كل شيء صنعاً ، وأحسن كل شيء خلقاً . والعقل يدعو القرآن الكريم إلى جعله طريقاً من طرق المعرفة ، ووسيلة من وسائل الإدراك . يقول الله تعالى : «**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد** » . ويقول : « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** » . ويقول : « **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداه ، وأن الله ليس بظلام للعبيد** » . ففي هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمنهاج المعرفة ومذاهب التفكير والفهم عند

البشر ، وقد عني القرآن الكريم في هذه الآيات وفي سواها مما لم نذكره بأن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة حتى لا يضلوا في الحياة ، أو يتشعب بهم الظن في مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم على أساس سليم مستقيم ؛ ففي الآية الأولى يذكر الله عز وجل صنيع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التو حيد ، الدائبين على اللجاج والجدل في الله، دون أن يرتكز لجاجهم وجدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق . ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء، ويسيرون في صحراء ظلماء ،لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه .. فهم ينازعون في ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ، ملابسين للجهل ، ويتبعون في أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله ، وذلك من أشباه : أبي جهل ، والأخنس بن شريق ، والنضر بن الحارث ، وسواهم . وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين . ويقول : إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية . ويقول : الله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً ، وكان يذهب إلى فارس فيشتري كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشاً ، ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، والآية عامة في كل من أمعن في الجدل دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعاني ، وأن من الناس من يدأب على الجدل في ذات الله وصفاته ، أو في دينه وشرائعه دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلي ودون هدى وإرشاد ، متفادين كل هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلي هاد

لاخفاء في هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين ، فهو لا يؤمن بالدين وإنما يؤمن بالأوهام والتقاليد والأساطير الكاذبة يتخذها منهجاً له في التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله في نفسه إفساداً شديداً ؛ وهل هناك ما هو أضر على الإنسانية من التقليد الأعمى والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئاً كما حارب التقليد وصنيع المقلدين ، و لذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد في أصول العقائد ضلال غير جائز حتى قال الرازي : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفي في أصول العقائد » ؛ ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبل الشيطان ، والشيطان إنما يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاث الأخيرة وهي من سورة الحج ، فهي كذلك تأكيد لهذه المعاني الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس ، الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، فهم لا يرجعون في جدلهم في الله الى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضروري ، والهدى بالاستدلال والنظر الذي يهدي الى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحي . وإن كنا نحن لا نرى مانعاً من تفسيرها بما فسرناها به آنفاً ، أو بما فسرها به المفسرون هنا ، أو بتفسير آخر نذهب اليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التي تستقر في النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسي الذي تمده فطرة الله في النفس الإنسانية التي فطرها الله على التدين والإيمان ، والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو إلى مبادئه ، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنه من أحكام وآداب وشرائع وشعائر وعقائد ومثل ، ويؤكد الله عز وجل هنا ان الإعراض عن الحق والاستكبار عن السماع من الرسل هما دين هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزياً وهواناً في الدنيا وعذاباً أليماً في الآخرة،

بما اجترحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام في حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات ، والله عادل في عقابه لا يظلم أحداً ، ولا شك في أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده ، وجادلوا في الله مجادلة عن عناد واستكبار ؛ دون أن يخضعوا في جدلهم وحجاجهم لأصول العقل أو برهان العلم أو هداية السماء ، فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا استكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال . وهنا نجد القرآن الكريم يبني صرح صرح الحياة الإنسانية المثلى ، ويقيم دعائم المدنية والحضارة على أساس رائع عظيم من الفطرة والعقل وهداية السماء . فهذه الآيات ، وإن تضمنت في عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله الذين يضلون ويلوون رؤوسهم عناداً واستكباراً في الدنيا والآخرة ، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة في العقيدة بالهوى والقياس ؛ لأن في ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد في كل شيء حتى فيما يؤدي إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفي الظلم عن الله وبيان أن الأنسان هو الذي يجني على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل .. فهي كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطري المركوز في طبائع الناس كافة الذي يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظري المستفاد من الحجة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهي المستفاد من الوحي والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. فأنت إذا خلوت إلى وجدانك وقلبك وذوقك ونفسك وعواطفك ومشاعرك ، أرشدتك إلى الله موجوداً ، وإلى القدس الأقدس خالقاً ، وإلى رب الأرض والسماء إلهاً معبوداً ، وإلى محمد رسولا ، وإلى القرآن كتاباً منزلا من السماء ، فرض الإيمان به وبجميع

ما تضمنه من أوامر ونواه ، ومن طاعات وعبادات وشرائع ، على الناس كافة . وأنت إذا رجعت إلى عقلك وخلوت إلى فكرك ؛ وبحثت وفتشت ، وقدرت ونظرت واعتبرت ، هداك العقل إلى الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . وأنت إذا رجعت الى القرآن كتاب الله الحكيم ، ودستور الإسلام العظيم ، أرشدتك الى الله رباً ، وإلى الإسلام ديناً ، والى محمد نبياً ورسولا ، والى الملائكة جند الله ، والى البعث والنشور والحساب ، وكل ما جاء في الدين من الغيب ، مما فرض الله الإيمان به ، « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والمؤمنون يرون أن المعرفة بالله عن طريق الاستدلال والنظر والمنطق والقياس مرحلة بدائية من مراحل الإيمان ، لأنهم لا يعتمدون على العقل كثيراً كطريق من طرق المعرفة ، كما لا يعتمدون على الحواس الظاهرة في الإنسان ، إنما يعتمدون على القلب الذي هو مركز المعرفة وموضع الإيمان ، ومحل الدين ؛ إنهم يفتشون في وجداتهم فيجدون الله منقوشاً على كل ذرة ، مضيئاً على كل شيء ، مشرقاً في كل جارحة وكل قلب . إنهم يرون الله في السماء وفي الأرض وفي كل شيء .. يرونه عن طريق الكشف والذوق ، يرونه بوجداناتهم وقلوبهم ومشاعرهم وعواطفهم ، ويؤمنون به إيماناً صادقاً لا يزعزعه شيء ، ولا يؤثر فيه أي شيء . لقد جاهدوا أنفسهم وطهروها ، وأخلصوا لله حتى كشف عنهم حجاب الحس ، ورأوا الله بعين الإدراك وعين اليقين ، فعبدوه حق عبادته ، وأطاعوه حق طاعته ، ففازوا في الدنيا والآخرة برضائه ومحبته ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

— ٢ —

إن المذهب الواقعي يرى في المعرفة أنها ما يطابق الواقع ، فوجود العالم الخارجي هو وجود واقعي حقيقي مستقل عن الذات ، فالمعرفة عنده هي صورة مطابقة للموضوع لا أثر للذات أو للعقل فيها ، ويرى الفيلسوف الإنجليزي « جون لوك » أن المعرفة ، وإن تكن مستمدة من الواقع عن طريق الحواس فإنها مع ذلك ليست في مجموعها صورة مطابقة للواقع تماماً ، لذلك يحلل « لوك » المعرفة أو الأفكار ليبين ما يطابق منها الواقع وما لا يطابقه ، فالمعرفة عند « لوك » وإن كانت مستمدة من الواقع ليست في مجموعها صورة مطابقة للواقع ؛ فبعض عناصر المعرفة عنده موضوعي يصور الواقع كما هو تماما ، وبعضها ذاتي من نتاج العقل ولا يصور الواقع بل هو تحوير للواقع .

وأما المذهب العملي فلا يفصل بين الفكر والعمل ، فالمعرفة عنده ليست تصوير الواقع كما يذهب الواقعيون ، وإنما هي أداة للسلوك أو خطة تقود إلى عمل ، والفكرة عنده هي تصور النتائج العملية التي يمكن أن تترتب على الاعتقاد بفكرة ، ومعيار الصدق والكذب في المذهب العملي هو الاختبار العملي للفكرة من حيث نتائجها لا من حيث مصدرها وأصلها ، وهذا فيه الكثير من الإسراف ؛ فإن الفكرة تكون صادقة أو كاذبة بصرف النظر عن النتائج العملية .

أما المذهب المثالي فهو عكس الواقعي ، إنه ينكر وجود شيء خارج العقل ، ويزعم أن « ما له وجود هو العقل ، وما بالعقل من أفكار » فالشي لا وجود له إلا إذا كان فكرة في العقل ، ومعرفة الشيء هي وجوده ، فالشيء موجود في المذهب المثالي لأنه مدرك ، وفي المذهب الواقعي ، الشيء مدرك لأنه موجود ، فالموجود في المذهب المثالي هو الإدراك ، ومعرفة الشيء هو وجوده فطبيعة المعرفة هي هي طبيعة الوجود ، ومن دعاة المذهب المثالي « هيجل » الذي يرى أن المعاني الكلية أو المقولات هي مبدأ المعرفة أو شرط المعرفة

والمعرفة عنده هي الوجود .

ومصدر المعرفة عند أصحاب المذهب التجريبي هو التجربة الحسية ، وعند أصحاب المذهب العقلي هو العقل وحده ، ويمثل ديكارت هذا الاتجاه ، وأما المذهب النقدي فيرى أن مصدر المعرفة هو التجربة والعقل جميعاً ؛ فالتجربة تقدم مادة المعرفة والعقل يقدم صورة المعرفة ، ويمثل هذا المذهب « كانت » . أما المذهب الروحي فيذهب إلى أن مصدر المعرفة هو الإلهام .

وعندما نرجع إلى ديكارت نراه يقيم الأدلة على وجود الله من أن في الذات فكرة واضحة متميزة لكائن لا نهائي كامل ؛ ووجود هذه الفكرة في العقل دليل على وجود مدلول لها في الخارج هو الله ، وإثبات وجود الله كما يرى « ديكارت » وسيلة لإزالة الشك ولبلوغ اليقين في المعرفة ، فالله الذي أثبتنا وجوده لا يضللنا ولا يخدعنا ، وإذن فحواسنا التي وهبها الله لنا لا بد أنها صادقة — غير خادعة ، والعالم الخارجي الذي خلقه الله لا بد أنه حقيقي وليس وهما ، وينتهي ديكارت إلى أن معرفتنا عن العالم الخارجي التي مصدرها الحواس ليست معرفة يقينية بعد أن اعتبر العقل وحده مصدر المعرفة اليقينية .

وهذه المذاهب المضطربة كلها تنتهي بالخطأ حيناً ، وبالقصور حيناً آخر ، وقد شك الغزالي في مبادىء العقل ، ولم يطمئن إلى شهادة الحواس ، ولم يسلم بآراء الذين يبنون آراءهم في الله على النصوص وحدها ، ولا بآراء الذين لا يؤمنون إلا بالمنطق وحده كطريق يوصل إلى الإيمان بوجود الله ، ورجع المعرفة إلى الإلهام ، فهو الطريق إلى معرفة الله والإيمان به ، وعن طريق الإلهام يعرف الإنسان ذاته معرفة مباشرة ، ومتى عرف ذاته عرف الله .

ان جميع الطرق الصحيحة الموصلة إلى المعرفة توصل أيضاً إلى الله ، وأنا لا أؤمن إلا بما ذكره القرآن الكريم من طرق المعرفة ، وهي النظر العقلي ، والوحي السماوي ، والإلهام .. فهذه الطرق توصلنا إلى الله ، وتدفعنا إلى

الإيمان ، وتحتم علينا الثقة بالله ووجوده ، وهي كلها تناهض المذاهب الماركسية والوجودية ، وتناهض الإلحاد والملحدين والشك والشاكين ، والريب والمرتابين .

إني أؤمن بالله لأن عقلي يقودني إلى الإيمان به ، ولأن نصوص القرآن تحتم على الإيمان به ، ولأن عقلي الباطني وإلهامي النفسي الخفي يدفعني إلى الإيمان به ، بوجوده ، بعدله ، بقدرته ، بحكمته ، برحمته .

آمنت بالله ، وكفرت بالإلحاد ودعاته والملحدين ودعواتهم ، آمنت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن دستوراً كاملا للحياة والبشر والإنسانية .

خصوم الدين

— ١ —

رسالة الدين في الحياة هي السمو بالعواطف والمشاعر ، وتهذيب الأخلاق والضمائر ، وتطهير النفوس والعقائد ، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله في أرضه ، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب .. هي النهوض بالإنسانية ، والسير بها قدماً نحو النور والهدى ، والطهر والخير ، والعـزة والحرية ، والأمان والسلام .

الدين هو شريعة الإصلاح ينظمها قانون سماوي له في النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلي للحقيقة والإيمان والعدالة .

فليس هو مخدراً للشعوب ، كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون في إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يجافي العقل والعلم والتقدم .

إن الأديان السماوية عامة ، والإسلام من بينها خاصة ، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل ، ولا تقر ظلماً أو عدواناً ، ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين ، ولا تشرع ما ينافي ناموس الارتقاء .

ولقد جاء الإسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الإصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الإنسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلا إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيراً إلا دعا إليه . وحارب الاستغلال في شتى صوره ، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكانته الأدبية في الحياة ؛ فجعل له حقوقاً كفلها ورعاها ، وحذر من يعتدي عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم ... لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة في الإصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح . وهذه المبادىء المثلى هي التي كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام في شتى الأقطار والأمصار ، وهي التي مهدت لقيام حضارة زاهية مشرقة ، كانت نـواة الحضارة الحديثة .. ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة في تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والأخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن في اتباع مبادىء الدين ، والسير على منهاجه ، والإيمان بما يدعو إليه من مثل ؛ عصمة من الزلل ومنجاة من العثار . فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية ، إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ، ونظاماً قويماً ، يقيها عواصف الأهواء ، وزيغ الشهوات والعدوان .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين في عصور التأخر الفكري والاجتماعي ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاماً ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويجامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله ؛ ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعذاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار الكثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم المادية الإلحادية ، وجهرهم بأن الدين شيء مقدس لا

تستغني عنه الإنسانية ولا الحياة . ففكرة الله الذي ليس له نهاية ، وعقيدة الدين ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ؛ كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس له نهاية ؛ وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين ، والعقيدة في وجود الله .. ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال ، أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وإليه يرجعون ؟ ..

— ٣ —

إن الإسلام لا يزال كما كان حارس المدنية الأمين ، والمنقذ الأكبر للناس من الفوضى والانحلال ، والداعي للنهضة والتقدم والرقي ، والباعث على الخير والبر والإحسان والرحمة ، والمقوم لأفكار المسلمين من الزيغ والضلال والهوى والشر ، والحائل بينهم وبين المبادىء الهدامة ، والأفكار الباطلة .

هو الساعد القوي للحكومات على نشر الأمن والسلام والحب والتعاون في قلوب المسلمين كافة ، فهو الذي يثقف العقول ويهذب النفوس ويحيي الضمائر ويرهف الإحساس ويحفز إلى الخير ويقيم من المجتمع الإسلامي وحدة تامة يسودها الأخاء والمساواة و الحب والتعاون .

الإسلام حقائق واضحة ، وروح سمح ، وتجديد مستمر في بناء النهضة ، ودفاع عن العدالة والحق والسلام . وهو ليس طغياناً وعدواناً وإزهاقاً للأرواح وسلباً للأموال وحباً للجريمة ورغبة في الإفساد .

وإذا كانت العامة لم تفهم الدين على حقيقته في الزمن الماضي ، فما أجدرهم بالوقوف على حقائقه وفهمه حق الفهم في عصرنا الراهن بعد أن يسرت أسباب الثقافة الإسلامية وفهمها . ولقد كان انحراف العامة من المسلمين عن الدين سبباً في هذه التهمة الباطلة التي رددها المتعصبون من الماديين ، وهي أن

الإسلام يقف في طريق النهضة والحضارة لأنه دين الجمود والخمول .

ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا ، قل لي بربك متى وقف الإسلام في طريق النهضة وهو الذي نشر الحضارة والثقافة في العالم ، ورعى العلوم والآداب في عصور الظلام والفوضى ، ومهد لعصر الإحياء ، وساعد على حفظ وتجديد تراث الإنسانية الروحي والأدبي . وقل لي بربك متى كان الإسلام دين الجمود وهو الذي دعا إلى أروع المبادىء الروحية والاجتماعية والسياسية والإنسانية منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ونشر مبادىء الحق والعدالة والإخاء والمساواة والديمقراطية الصحيحة قبل الثورة الفرنسية بأجيال مديدة .

لا يزال الإسلام كما كان وكما يصوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال : « يقول اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم » . ولم يكن رسوله الأكبر زعيماً دينياً متعصباً ، بل كان ملكا رحيما بالناس والحياة فأنقذ البشرية ودعا الى تحريرها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه في وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق » .

ومع ذلك كله فلا بد من أن نفهم ديننا فهماً صحيحاً وأن يكون سلوكنا في الحياة وفق نواميسه حتى لا يرمي الإسلام بسببنا بتهم باطلة .

ما أجدرنا أن نؤمن بالدين إيماناً صحيحاً ، وأن نفيء الى الله وإلى الحق والإسلام .

العالم يسير إلى الدين

— ١ —

عندما ذاعت في آخر القرن التاسع عشر نظرية التطور ، امتدت هذه النظرة من الكائنات إلى الديانة ذاتها ، فحاول بعض الأوربيين العثور على الديانة البدائية التي انبعثت عنها ديانة الإله الواحد التي تعد أكمل صيغة للديانات .

ويحاول تيلور أن يفسر الديانة بنظريته الروحية المناقضة للنظرية الطبيعية لماكس مولير ، ولفردريك نيتشه نظرية أخرى ، زعم فيها أن جنون الإنسان وتعطشه إلى السعادة هما العاملان اللذان أوجدا الدين ، يقول في كتابه « هكذا تكلم زرادشت » إن هذا الإله الذي خلقته هو إله صنعته يد الإنسان وجنونه ، كما هي عليه جميع الآلهة » .

ويرى برغسون في كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » ، وفي كتابه الآخر « التطور المبدع » أن غريزة الإنسان لا خياله وأوهامه هي أساس الديانة ، فالديانة عنده مسيرة بنوع من الغريزة لحفظ كيان المجتمع . ويرى رينان أن الغريزة المضمرة غير كافية لتفسير نشأة الديانة ، ورأى أن مرجعها إلى الغريزة الظاهرة الحقيقية ، فالديانة عنده من الأمور الطبيعية في الإنسان ، تدفعه إليها الغريزة ، كما تدفع العصفور إلى عمل العش دون سابق معرفة .

ويرى البعض أن الطوتمية أقدم ديانة عرفت في تاريخ البشر . وهي نظام ديني اجتماعي مما يعرف بمذهب الطوتم . ويرى علماء العمران أن سكان أوستراليا الأصليين أكثر الناس تأخراً في مضمار الحضارة ، وأنهم في حالة

من التوحش والبؤس لا تضاهيها حالة ، ودیانتهم بعيدة جداً عن المظهر الذي تأخذه الصابئة في عبادة النجوم والتقرب إلى الكائنات ، وهي ما تعرف بمذهب الطوتم .

ويرى سبنسر أن الأقدمين أطلقوا على أنفسهم أسماء بعض الحيوانات تشبيهاً وتحبباً ، وورث الأبناء هذا اللقب من آبائهم وبمرور الأحيال صار هذا الحيوان موضع إجلال أفراد القبيلة وتقديسهم وعبادتهم ، وصار هذا الحيوان « طوتما » للقبيلة ، وصارت الطوتمية عبادة . وكذلك ذهب جون لوبوك ويفسر فرويد الطوتمية تفسيراً غريزياً منبثقاً من أبحاثه في الغريزة الجنسية وتأثيرها في حالة الولد النفسية .

ويرى إميل دوركهيم أن الإنسان لا يعبد الطوتم وإنما يعبد القوة الكامنة فيه . ويعزو نشأة الديانة إلى الحياة الاجتماعية فالأفراد بتآلفهم يعيشون حياة كلها حماسة ينبعث منها شكل تيار كهربائي يتوهمون أنه صنع الإله ، وهو في هذا الزعم ضال مضل .

ويرى لوروا أن الأسرة أقدم المجتمعات الإنسانية ، بل هي أساس كل مجتمع ، وينتقد النظرية التطورية فينكر أن يكون قد ابتدأ حياته على مثال الحيوانات الكبرى ، والطوتمية لم توجد الوجدان الديني الخلفي ولا الاعتقاد بالأرواح ، ولا تقديم الذبائح ، بل إن هذه الأمور كلها موجودة من قبل .

ومن غير شك أنه يوجد عاطفة دينية ، وإن كان وليم جيمس يذهب إلى أنه لا توجد عاطفة دينية لها طابعها الخاص بالمعنى السيكولوجي التام ، وليست التربية الدينية وحدها هي التي تحمل الطفل على القول بوجود إله يعلو الخلائق بحكمته ، بل هي العواطف الداخلية .

إن الكتب سماوية تفسر الدين تفسيراً معقولا خلاصته أن الله عز وجل أخذ بيد الإنسان منذ التقدم على فهم الحياة وعبادة الله فأرسل إليه رسلا بكتب سماوية لهدايته وإرشاده وتهذيبه ، ونقلته هذه الرسالات من طور إلى طور ،

حتى وصل إلى منزلة راقية جعلته أهلاً لأن تنزل عليه خاتمة الرسالات ، وهي رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وما عبادة السحر والحيوانات والنجوم الا نبت طفيلي على جذر ديانة التوحيد التي أفضى بها للبشر وحي إلهي كما يقول الأب « شميت » . ففكرة التوحيد متقادمة العهد . ترقى إلى أول عهود الإنسانية وقد عرفتها الشعوب البدائية . فنظرية « فوربخ » القائلة بأن الله هو تجسيم لعظمة الإنسان نظرية خاطئة تعارض حقائق الواقع والتاريخ والمنطق البدائي الذي يفرض أن لكل شيء سبباً ، ولكل سبب علة . ولو صح أخيراً أن فكرة الله هي وليدة عقل الإنسان الذي ذهل لعظمته ، ولم يعرف لها مصدراً فجسدها في شخص أسماه الله ؛ فإن العلم والمنطق يثبت أن وجود الله — وإن كانت طريقة إدراكه في ماضي الزمن خاطئة — حقيقة راهنة اعترف بها أكبر فلاسفة الفكر الإنساني .

إن الدين مستقر في أعماق النفس الإنسانية ، وهو قوام حياة البشر العقلية والفلسفية والخلقية والفنية والاجتماعية .

— ٢ —

ويقول الماديون إن التوحيد نتاج الحياة الاقتصادية ، وهذا وهم كاذب ، فالدين ليس لفرض سيطرة طبقية أو اقتصادية ، وليس وسيلة إكراه وعبودية ، انما هو داعية للتحرر والرقي وكرامة الإنسان .

ولا يظن ظان أن المادية قد تخلت عن فكرة حرب الدين ، فلا تجلس مع ماركسي إلا ويحدثك عن رجعية العقلية الدينية ، وأن عصر الدين قد انتهى وأن القرآن والإنجيل والتوراة كتب رجعية انتهى عصر سيادتها الفكرية والروحية ، وكان لينين يقول : « إن فكرة الله تهيمن على الإنسان فيضؤل

بها نشاطه ، وتغل الشعور الاجتماعي ؛ هي أبداً فكرة عبودية من أشنع أصناف العبودية » . ويعلن لينين موقفه من الدين بصراحة فيقول : « يجب أن نحارب الديانة » . ويقول ستالين : « لا يمكن للحزب أن يلبث في حالة من اللامبالاة تجاه الدين ، لأن الحزب قد جرد كل قواه لخدمة العلم ، بينما الأوهام الدينية تقوم حاجزاً في طريق العلم »وفي كتاب « الدين والإلحاد » الذي نشرته الأكاديمية العلمية عام ١٩٥٠ في موسكو نصوص كثيرة تطلعك على الحرب المستعرة التي يشنها الشيوعيون على الدين ؛ يقول مؤلف الكتاب : « الدين هو دوماً أفيون الشعب ، ومولد الجمود ، وإرث خرافات إنسانية منحطة » . هكذا قالوا ويقولون إفكا وبهتانا .

الدين ضرورة إنسانية

يقول هنري برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

وفي معجم لاروس للقرن العشرين : «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ؛ وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » .

وفي هذا رد على الشيوعيين والملحدين واشباههم ، والعجيب في فلسفة « أوجست كونت »أن تذهب مذهباً مادياً حين قررت أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وتجعل هذا الدور الثالث آخر الأطوار وأسماها .

وخير رد علمي على« أوجست كونت »وأشباهه هو ما يقوله الدكتور ماكس نوردوه : « هذا الشعور الديني أصيل يجده الإنسان غير المتمدن، كما يجده أعلى الناس تفكيراً .' وأعظمهم حدساً .. وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها » ، وما يقوله أرنست رينان في تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » .

ويقول محمد فريد وجدي في مادة « دين » في دائرة معارفه : « يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين ، لأنها أرقى ميول النفس ، وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان ، بل إن هذا « الميل » سيزداد ، ففطرة

التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وستزداد هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه » .

إن عصر الفضاء الكوني الذي بدأت الإنسانية تدخل فيه ، سيعزز فكرة الإيمان والتدين في النفس البشرية بما تجلى فيه للإنسان من عظمة الكون وجلاله وسعة كواكبه وأقماره وشموسه .

وإذا كان بعض الباحثين قد وقفوا أمام نشأة العقيدة الدينية يعللونها بأن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوجيه ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته ، حتى زعم بعضهم أن عقيدة الإله الأحد عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي ، فإن هناك فريقاً كبيراً من علماء تاريخ الأديان يقررون أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ؛ والوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة ، وهذه هي نظرية فطرية التوحيد وأصالته التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، ومن أشهر مشاهيرهم « لانج » الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في استراليا وإفريقيا وأمريكا ، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام ، وشميدث عند الأقزام وقبائل من استراليا ، وقد انتهى بحث شميدث إلى أن فكرة الإلـه الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية .. وهذا مصداق قوله تعالى في القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** »[1] .

---

(١) آية ٢١٣ سورة البقرة .

أخناتون والتوحيد

يقول أخناتون في نشيد له :

« أيها الإله الأوحد ..

الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه ..

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً » .

وقد اشتهر أخناتون بأنه أول دعاة التوحيد في أرض مصر القديمة ، وأنه خاض غمار حروب عاتية بينه وبين كهنة آمون ، وقد جلس أخناتون في معبده الضخم في الكرنك ، ودانت له طيبة ، وسيطر على أقطار الإمبراطورية من أعالي الفرات شمالا إلى أقاصي السودان جنوبا ؛ وقد تميز بدعوته إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، بشرهم به ، وقال عنه : إنه إله الإنسانية جمعاء والأمم جميعاً ، إذ ذكر في نشيده البلاد التي يوليها الإله رعايته قبل أن يذكر مصر ، وكان هذا الإله ليس مجسما في صورة البشر بل كان هو الحق خالق حرارة الشمس ومغذيها .

وقد ولد أخناتون عام ١٣٨٢ ق. م. من أبويه الملكين : « امنحوتب الثالث،وتي ، وسمي امنحوتب الرابع . وتولى عرش مصر ،ودعا الى عبادة « أتون » إلهاً واحداً ليس له مثيل ، ويذهب البعض إلى أن وحدانيته لم تكن وليدة تفكيره ووحي فلسفته ، بل هي مأخوذة من التوراة ، زعماً منهم ببداية ظهورها قبيل عصره .. والحقيقة التي يؤكدها التاريخ أن أخناتون عاش في عصر سابق لعصر ظهور المزامير .

على أن ديانة المصريين القدماء بما فيها من تعقيد ، وما تحويه من كثرة للآلهة قد نوهت منذ أقدم العصور بإله واحد يتجلى ذلك في كثير من أقوالهم ، ومنها الحكم والأمثال والتحذيرات التي كان يلقنها المعلم لتلاميذه في المدارس. وقد اعتنقوا منذ عصور مبكرة ديانة الإله الواحد . وقد كتب كل من الأخوين « سوني » و« وحور» على لوحتيهما ، وكانا من المهندسين المعماريين الذين سكنوا طيبة في عصر الملك امنحوتب الثالث ، ما نصه : « إنك صانع ، إنك خالق ولم يخلقك أحد ، إنك وحيد في صفاتك ، تتحرك أبدياً ، وتخترق طرقاً يتبعك فيها الملايين عندما تعبر السماء . تتطلع إليك كل الوجوه .. خالق كل شيء وهو الذي يضمن لها الحياة ، إنك خالق له حنكته ، وراع شجاع يعرف كيف يقود ماشيته ، وهو ملاذها ، ومدبر حياتها ، إنه يشرف على ما خلقته يداه » .

وإذا كان الإله « حوريس » له الصدارة في الأسرات الأولى من التاريخ المصري القديم ، فقد ظهر « رع » وسيطر على اللاهوت المصري منذ عصر الأسرة الخامسة من الدولة القديمة ، ولم يستطع «آمون » الذي ظهرت دعوته منذ الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق.م) أن يتصدر الآلهة ويصبح إلها للدولة إلا بعد أن ضموا إليه صفات « رع » وأصبح « آمون رع » وأصبح إلها للإمبراطورية وملكا للآلهة .

المادية حرب على الأديان

المادية أخطر المذاهب الحديثة ، وأشدها حربا لفكرة التدين في الانسان ، ولفطرة العقيدة التي فطر الله البشر عليها . وقد شن دعاتها في الغرب الحرب على الأديان ، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الالحادي ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون . وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية في جملتها تذهب إلى أن المادة في كافة صورها هي المؤثرة في كل شيء ، وإلى أنها في الوجود أسبق ، وأن لها — لا للمعنويات — القدح المعلى في مصائر الشعوب والإنسانية .

وكان للمادية دعاتها في القديم ، وممن آمن بها الفلاسفة « هيرقليطس » . و« ليوسيس » . و« ديمقريطس » . وممن دعا إليها في الحديث : بيكون ، وهوبز وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان وأن المعرفة الإنسانية تأتي عن طريق الاحساس . وقد أيده في ذلك تولاند الذي رأى أن المادة هي القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل . وكذلك نهج بريستلي وهارتلي ، ودارون ، وبلاماترى ، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيراً ميكانيكياً مادياً محضا . وألف « بختر » كتابه « القوة والمادة » . الذي ظل حينا دعامة قوية من دعائم المذهب المادي[1] وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودي المادي المتطرف ، وقد ورث الروح المادي عن أستاذه انجلز

---

(١) راجع ص ٢٦ وما بعدها مز كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨ .

الذي كان يقول : « إن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ، والذي نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الادراك والتفكير إلا نتاجاً لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل . بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذي يبني عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنـــه ، والمادة تأتي في الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة الماديــة للمجتمع والوجود المادي له ، لهما السيادة على الحياة الروحية التي هي انعكاس للمادة، كمـــا يقرران أن العالم بطبيعته مـــادي ، وأن الظواهر المتضاعفة للعـــالم تشتمل على أشكال مختلفة من المـــادة في تحرك ، وأن ارتبـــاط الظواهر واعتماد بعضها عـــلى بعض هو قانون ارتقـــاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة [1] .. وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ، ومن ثم تصرف على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شيء حتى الدين ، والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية [2] . ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً ، وهذا التفسير الاقتصادي للتاريخ ينكر الدين . وكان ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » وقوله : « رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين والداعين إليه » ؛ وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا » فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودي الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » . وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقا لوجود خالق » [3] .

---

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتي ؛ ٥٢ الشيوعية في الميزان .

(٢) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتي – طبع النهضة ١٩٤٩ .

(٣) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين في إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادي على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان . والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم في رأي الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التي لا تتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الانسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة . والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم في الحياة الفكرية في العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوي يقول : « إن الدين وحده هو الذي يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله ، ولولا انني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله لقتلت نفسي من زمان بعيد ، عش باحثاً عن الله وإذاً فلن تعيش بدونه ؛ وعندما اعتقدت في وجود الله اعتقدت في الكمال الخلقي وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهور : إن فكرة الاله الذي ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس له نهاية ، وهي تلك الأفكار التي لا يمكن لي ولا للحياة البقاء بغيرها . ويقول رينان : « من الممكن أن يتلاشى كل شيء نحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي » . ويثبت : كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك في كتابه ، الانسان ليس وحيدا ، وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتهي إلى أن الله في كل مكان وكل شيء ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم

والتخيل جميعاً [١] ، وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له ، ويقول الدكتور راين : إنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحا أو جسما آخر غير منظور . وقال عالم آخر : إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية الله هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود [٢] .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان وأن علينا واجب الايمان بها وبخاتمة هذه الرسالات وهي ، دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد « القرآن » معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم في قوله : « **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شهيد ؟** »

---

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ – مقالة عنوانها : سبعة أسباب لإيمان عالم بالله .
(٢) راجع عدد ٢٣ – ٨ – ١٩٥١ من جريدة المصري .

بين المادية والروحية

— ١ —

للمادية رأيها في أسس الحياة والوجود والحضارة ، الذي يتجمع في فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات .

فهي ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر ، مستقلة عنه ، والمادة أولا ، ثم يتلوها العقل .. ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادي له ، لهما السيادة على الحياة الروحية ، التي هي عندهم انعكاس الوجود .. ويعلق زعيم من زعمائها على ذلك بقوله : إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادىء العقل البشري المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقـاء الاجتماعي [١] ، ويقول انجلز : « إن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا والذي نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليست المادة من انتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة »[٢] .

وهي تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادي وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة في تحرك ، وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة [٣] ،

(١) ٣١ الدستور السوفيتي لفؤاد محمد شبل .

(٢) ٣٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨ .

(٣) ٣٠ الدستور السوفيتي .

فهي تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ومن ثم تصر على إنكار وجود الله [١] . ويرى كارل ماركس أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتينا نتائج على جانب عظيم من الأهمية لأنه يفسر تطور المجتمع ، ويرجع حوادثه إلى أسباب مادية بحيث لا يترك شيئا منها للمصادفة أو للارادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة[٢].

ومن ثم ترجع المادية كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة [٣] وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج [٤] وتهتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً [٥] ينكر الدين [٦] .

والفلسفة المادية إلحادية بطبيعتها ، معادية لكل ما يمت بصلة إلى الدين وكان ماركس زعيمها الروحي وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات ويقول : لا إله والحياة مادة [٧] ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين وعلى الداعين إليه [٨] ، ويقول « هوبز » : إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة لنا ، وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودي الخاص في هو وحده الأمر المؤكد أما ما عداه فخيال لا أصدقه [٧] ، ويقول إنجلز[٧] : لا محل مطلقا لوجود خالق ، ويقول زعيم لهم: الحزب الشيوعي لا

---

(١) ٥٣ الشيوعية في الميزان .
(٢) ٣٦ و٣٧ نقد النظرية الماركسية .
(٣) ٦٧ إنجلز .
(٤) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلي أدهم ، و١٧ إنجلز .
(٥) ٣٢ الدستور السوفيتي .
(٦) ٥٢ الشيوعية في الميزان .
(٧) ٥٢ المرجع .
(٨) ٥٣ المرجع .

يمكن أن يكون محايدا تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه [١] ، ويصرون على أن « الدين هو مخدر الشعوب » [٢] .

وللمذهب المادي دعاة في القديم والحديث ، ويناقضه المذهب المثالي والارادي والحيوي ، ومن أنصارها هيجل وديكارت وشوبنهور ونيتشه وبرجسون وسواهم .. وينقده كثير من الباحثين .

وهو على أي حال ينكر العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية والجوانب الإنسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات سواها ، مما هو دعامة الحضارة ، والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونها إلى عوامل مادية .

— ٢ —

إن هذا المذهب المادي الذي ينتهي إلى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض أسس الإسلام ومبادئه أبعد مناقضة . وينكره الإسلام ويحاربه والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء الهدامة هم في رأي الإسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله ، لأنهم يعملون على مسخ الفطرة الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ، ويهدمون الأسس التي بنتها البشرية على مر الأجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية .

وفلاسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والإيمان بالدين ، يقول شوبنهور : إن فكرة الاله الذي ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس نهاية ، وهي تلك الأفكار التي لا يمكن لي ولا للحياة بغيرها البقاء . ويقول

---

(١) راجع ١٤٢ الدستور .
(٢) راجع ١٣٥ المرجع .

رينان : من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه إلا التدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي . وكان تولستوي المبشر الروحي بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول إن الدين وحده هو الذي يجعل الحياة ممكنة ؛ ويقول : إنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله ، ولولا أني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله لقتلت نفسي من زمن بعيد، عش باحثا عن الله وإذن فلن تعيش بدونه ، وإذن يقوى اعتقادك في الكمال الخلقي وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة .. إن البشر لا يزالون في فجر عصر العلم وكلما ازداد ضياء العلم سطوعا جلا لنا شيئا فشيئا صفة خالق مبدع ، وإن التواضع والإيمان القائم على العلم يدنوان بنا رويدا رويدا إلى معرفة الله [١] . ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة والرياضة وجود الله لأن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له [٢] .

— ٣ —

والإسلام يدعو إلى الدين والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الإنسانية وبالقيم الروحية .. وأساس الحياة عنده هي الروح والمادة تبع لها والروح هي التي ناجت الله في الأزل وعاهدته على الإيمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم [٣] ثم خلقت المادة ، وحلت الروح في الجسم ، وبدأت الحياة تنمو ، وبعد هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم ، وتنطلق الأرواح ، وتبقى مخلدة ، حتى يأذن الله بالبعث وإحياء الأجسام من جديد .. فالإسلام لا ينكر المادة إطلاقاً وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح .

---

(١) راجع المختار عدد فبراير ١٩٤٧ من مقالة لرئيس أكاديمية العلوم في نيويورك عن كتاب الإنسان ليس وحيدا .

(٢) راجع المصري عدد ٢٣ – ٨ – ١٩٥١ .

(٣) راجع آية ١٧٢ الأعراف .

وكل هذه الأفكار الإسلامية تهدم الأساس الأول الذي بنيت عليه الشيوعية.

وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة ، إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد في قيامها ونموها ، والإسلام يدعو إلى بناء الحياة على الروح : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** [1] » .. ويدعو إلى التحرر من أسر المادة والعيش في رحاب التأمل والحرية والملأ الأعلى الفسيح ، ليتم وجود الإنسان وكماله وحريته في الحياة .. وذلك كله هو الأساس الأول للحضارة في رأي الإسلام .

(١) ٧٧ القصص .

الفصل الثالث

الاسلام حامي الحريات – الإسلام يكفل الحريات العامة –الإسلام دين السلام والحرية – الإسلام محرر الإنسان – السر في قيام الإسلام – هذا النور ما زال يهدي الإنسانية – عظمة نبي الإسلام – .

الإسلام حامي الحريات

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة
– البقرة ٢٠٨ الظلم ظلمات يوم القيامة.
حديث شريف

– ١ –

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام تتعثر بين وحشية ضارية : وهمجية ضالة ، واستبداد مروع ، ومذاهب وعقائد باطلة ، وتقاليد وعادات بالية ، وكان الجهل والجمود والاضطهاد والاستعباد واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان سنة الحياة ، فحيثما وليت وجهك فثم الطغاة المستبدون ، والرؤساء الذين لا يؤمنون بحق الشعوب في الأمن والحرية والحياة ، والأباطرة الذين يعيثون في الأرض فساداً بالغزو والنهب والاستعمار .

في جانب امبراطورية الفرس بعقائدها الوثنية ، ونظمها الاستعمارية ، وسياستها المتعسفة ، وحكامها المتجبرين . وفي الجانب الآخر امبراطورية الروم الشرقية تثير الرعب والفزع في الأرض ، وتنشر الفساد بين الناس والحرب مستمرة مستعرة بين الجانبين ، يصطلي بجحيمها الرعايا الحائرون المفزعون .. فإذا تنقلت في الأرض وجدت في كل مكان وقطر الشقاء والخوف والفقر والظلم والطغيان .. ولم تجد حكمة الحكماء ولا فلسفة الفلاسفة شيئاً ، لأن الحكم كان للشهوة ، والسيادة كانت للضلال ، والحق كان للقوة ..

والرأي لم يكن يستمع إليه إلا إذا صدر من رئيس أو حاكم .

ولقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران حرمان العمال والصناع من حقوقهم المدنية ، وكان الساسة والمفكرون في روما يؤمنون بسيادة أمتهم ، وأن من الواجب عليهم إخضاع الدول لجبروتهم وحكمهم بالعنف والقوة ، وكان المشرعون في أثينا ينظرون إلى الرقيق نظرتهم إلى الحيوانات العجماء، وكانت المرأة تعيش مسلوبة الإرادة والحرية والاختيار في كل مكان .

ورغم انتقال الإنسانية من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية ، ثم إلى مرحلة الحضارة ثم إلى عصور الرق والإقطاع ، ورغم الديانات والشرائع السماوية والكتب الإلهية المنزلة ، فإن الحياة ظلت كما هي لا تتبدل ، والظلام ظل كثيفاً كما كان ؛ والذي بدل وغير وحرف إنما هو الحق وشرائع السماء ،

في هذا الجو الخانق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات أرسل محمد صلوات الله عليه ، وأمر أن يبشر الناس كافة بالإسلام ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونوراً ورحمة ، فأخذ يذيع الدعوة ويتلو الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة ، ويسفه آراء الوثنية والشرك والبهتان ، ويحارب الاستعباد والاستعمار واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل ، ويناهض الأقيال المتجبرين والسادة المتكبرين والرؤساء المستبدين ، وينادي بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ، ويحرم السلب والنهب واللصوصية والربا وأكل مال الناس بالباطل والفساد ، ويؤاخي بين الناس ، ويحبب في التعاون والمحبة ، ويحطم العصبيات وحمية الجاهلية الأولى ويلغي الفوارق بين الشعوب والجماعات .

وتألب دعاة الوثنية والباطل على الدعوة الجديدة يحاولون وأدها بقوة السلاح ، فانتصر عليهم محمد وأنصاره في بدر . وفتحت مكة فدان العرب للإسلام ، وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول وعداوته، وكثرت الوفود

في السنة التاسعة للهجرة ، وبعث محمد صلوات الله عليه رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم لدين الله . فسار دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى ليسلمه إلى هرقل فقيصر . وسار عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ؛ وعمرو بن أمية إلى النجاشي . وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية . والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني . والمهاجر بن أبي أمية إلى الحارث ملك اليمن .

ثم مات محمد بعد أن أدى رسالة الله ورفع راية الإسلام في الأرض وبلغ القرآن الكريم إلى الدنيا . وبذر غرس الحرية والسلام والإخاء والمساواة بين الناس . وأقام حكماً صالحاً لا يمحى من الأرض ، وجمع الأجناس والعناصر والألوان والشعوب في ظل دولة ائتمرت بأمرها الحياة والوجود .

وكان خلفاء محمد مثلا عالياً في احترام الحقوق والحريات وحمايتها والدفاع عنها ، أذاعوا كلمة الله والحق والهدى بين الأمم كافة ، ووضعوا أصول حضارة زاهرة باهرة عاش العالم في ظلالها أجيالاً مديدة .

— ٢ —

وفي القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الظلم والاستبداد والطغيان ، إذ يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** » ، ويصور السادة الطغاة المفسدين في الأرض تصويراً صادقاً فيقول : « **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد** » ، « **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة**

بالإثم ، **فحسبه جهنم ولبئس المهاد** » ، ويدعو إلى أخوة الجماعات الإنسانية لتعيش في ظلال السلام والوئام ، فيقول : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** » . ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « **إنما المؤمنون إخوة** » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين في عهدهم فيقاتلون ويشردون في الأرض : « **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون** » .. ولم يحارب الرسول اليهود في خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه .

وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى في المحافظة على حريات الناس وحمايتها ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس في الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم في الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « **من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة** » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم ، فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم .

وكان يقول : من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي إلا أن يرفعها إلي حتى أقصه منه .

وقال لعمرو بن العاص واليه على مصر : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وكان يوصي ولاته على الأمم بالعدل بين الناس ، واحترام حقوقهم وحرياتهم .

وخطب مرة فقال : « اعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلي ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة » .

ولطم جبلة بن الأيهم ملك غسان رجلا من المسلمين في الحج لأنه داس على إزاره . فشكا الرجل إلى عمر ، فطلب عمر القصاص من جبلة ، فقال جبلة : كيف ذاك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة ، ففر جبلة والتحق بالروم .

وكان عمر بن عبد العزيز يبطل أحكام ولاته إذا رأى فيها ظلما للشعوب المحكومة ، خاصم عجم أهل دمشق إليه في كنيسة كانت أخذت منهم ، فأخرجها عن المسلمين ، وردها إلى النصارى .

وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد فهم أن يعيدها إليهم لولا أن المسلمين صالحوهم .

وكتب إليه عامله على العراق : إن الناس قد كثروا في الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكان ينوي أن يستدعي المسلمين من أرض الروم ، وأن يجلي العرب من الأندلس ، وكتب إلى عامله يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين فأبوا ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا ، ولهم مـا للمسلمين ، فأسلموا ؛ وكتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى دين الله فأسلم بعضهم .

ووفد عليه قوم من سمرقند فشكوا إليه أن ابن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين ، على غدر ، فحكم عمر قاضيا ، فحكم القاضي بإخراج المسلمين . إلى غير ذلك من احترام الحرية ، وحب العدل ، والعمل بشريعة الله .

— ٣ —

إن المسلمين لم يفتحوا البلاد للاستعمار والسيادة ، والغزو والنهب ، فقد رأيتم كيف كانوا يعاملون غيرهم ، ويحترمون حقوقهم ، ويحافظون على حرياتهم . وإنما دخلوا هذه البلاد هادين ، ودعاة مرشدين ، يقيمون العدل ، ويضعون الموازين القسط بين الناس ، ويحاربون الوثنية ، ويحطمون الضلال . وكانت أمم كثيرة ترسل إلى قواد المسلمين ، ليدخلوا بلادهم ، وينقذوهم من الظلم والاستعباد والشقاء .

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز على خراسان : إنه لا يصلح لهذه البلاد إلا السيف ، فأنكر عمر عليه ذاك وعزله .

وكانت البلاد التي يحكمها المسلمون مثلا في النظام والأمن وانتشار العدالة والرخاء والرفاهية وحرية الفكر والعقيدة والرأي .. ولم يكن المسلمون يمسون مرافقها الاقتصادية أدنى مس .. فأين هذا من استعمار اليوم ؛ الذي يحجر على الحريات ، ويعصف بالحقوق ، ويضيع الحرمات وينهب أموال الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويحاربها في قوميتها ودينها وأخلاقها ؟

— ٤ —

الإسلام هو حامي الحريات في كل مكان ، وشرائعه أعظم ضمان لحق الناس في الطمأنينة والإنصاف والمساواة والحياة .

وهو يحرم الحرب ولا يبيحها إلا دفاعا عن دين الله ، بل إنه ينهى عنها

ولو كانت بقصد نشر الدين ، ويحبب في السلام والمحبة والتعاون والوئام .

والمسلمون لهم العزة والكرامة والسيادة في الأرض ، وهم الذين نصبهم الله حماة لشريعته ، وأهلا لخلافته ، وأحقاء بكرامته ، ولم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، فهم أجدر الناس بحياة الحرية والكرامة .

إن الإسلام يؤيد الحرية ويدافع عنها ، ويقف حاميا لحريات الأمم والجماعات والأفراد والألوان والأجناس ويدعو المسلمين إلى أن ينظروا لدعوة الحرية في الأرض .

الاسلام يكفل الحريات العامة

لم تستعبدون الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟
عمر بن الخطاب

أمر كفالة الإسلام للحريات العامة للفرد مشهور مأثور ، لا نفيض في الحديث عنه في هذا المقام .

لم يضع الإسلام حدودا تفصل بين بني البشر ، أو تحول دون تفاهم أبناء الإنسان ، فكان الناس يجولون في بلاد العالم الإسلامي ، من كل عنصر وجنس وملة ، دون قيد أو حجر أو صعوبة في الانتقال ؛ أحرارا في تنقلاتهم من مكان إلى مكان .

ونهى عن تتبع عورات الإنسان ، والتجسس عليه ، ودخول منزله إلا بإذن منه ؛ وفرض حرمة المسكن ، وحرمة العرض ، وحرمة الدم ، وحرمة المال ، وحرمة الملكية ، وحرم التدخل في شؤونه الخاصة أو شؤون أسرته ، وفرض حماية الجار واللائذ والمستعيذ والمضطهد ... ولم يعترف بالعنصرية ولا بالجنسية ، بل جعل الناس إخوة في الإنسانية وفي الله وفي الإسلام .

وجعل لكل إنسان حق التملك ، وحرم أن يحرمه أحد من ملكه تعسفاً وظلما .

وأوجب حق الفرد في حرية الفكر ، والضمير ، وحرية الرأي والتعبير ، وحرية الاجتماع .

وجعل له الحق المطلق في أن يصل بكفايته إلى أعلى المناصب في الدولة ، دون نظر إلى جنسه ولونه .

ومنحه كافة الحقوق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي لا تستغني عنها كرامته ولا شخصيته في نموها المطلق .

وأطلق حرية الإنسان المطلقة في كل ناحية ، وكل مرفق .

وقرر جميع الحريات العامة له وفرضها ، وألزم الدولة بالدفاع عنها .

وأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤا كلتهم أوصى بالرفق في معاملتهم ومجادلتهم ، كما أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم ، كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ونهى عن كل إكراه في الدين ؛ وطيب قلوب المؤمنين في قوله « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم** » ، فعليهم الدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي قوة في الحمل على الإسلام ، فإن نوره جدير أن ينفذ إلى القلوب والأرواح والنفوس .

الاسلام دين السلام والحرية

كيف تستعبدون الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟
عمر بن الخطاب

— ١ —

السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هي الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان في الحياة على التقدم ، والحرب أفظع ما شهده الإنسان وخاصة في العصر الحديث الذي كشف القنبلة الذرية وسواها من وسائل الافناء .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، أوجب السلام في المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب ، وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العـام .

والمؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيماناً بالسلام ، لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية . وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة ، والتجديد والأمل .

— ٢ —

وما أروع مواقف محمد في الدفاع عن هذه المبادىء الكريمة ، وما أبقى

على وجه الزمن دعوته إلى الأمن والوئام والشمم والإباء .

ومع أنه ولد في أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً في حلف الفضول ، الذي قام لنصرة المظلوم ، ورد الحقوق إلى أصحابها . ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذي نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

كانت سياسته صلوات الله عليه اللين والشفقة والتواضع : وتحيته : « السلام عليكم ورحمة الله » .. ولقد عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والإخاء ، فآخى بين المسلمين في المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة في الدين وأن البشر جميعا إخوة في الإنسانية ، والغى الحواجز والفواصل بين الأمم ونزل القرآن يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب « **وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » .

وكان السلام النفسي شعاره في أحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون في « الطائف » كيف يلجأ إلى ظل يستظل به ويتوجه إلى ربه : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أم عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي .

لم يمش محمد إلى الحرب إلا دفعا للعدوان ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية حتى وقف وهو حدث السن يذود عن حرية قومه في حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط السلطان ، أو للفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الاقناع والبرهان ، « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن** » .

وشريعة محمد التي نزلت عليه وهي الإسلام . اشتق اسمها من السلام

وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على الناس . ويلخصها لقومه في كلمة واحدة حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبي طالب يشكون ويضجون . فقال له : « يا عم : كلمة واحدة يعطونيها . تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات . فقال : « تقولون لا إله إلا الله » وتخلعون ما تعبدون من دونه . فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا . إن هذا لشيء عجاب .

— ٣ —

هذا هو محمد المبشر بالسلام والمشرع لمبادئه في الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه . أما محمد المدافع عن الحريات فان أمره لعجب . أحب الحرية منذ طفولته . ورثها عن قومه وبيئته ورباه الله عليها ونماها في نفسه طبيعة الحياة في وطنه . فولد ونشأ كريما أبيا . وفتى حـراً عربياً . ويتجلى تقديسه لها في إبائه للضيم . وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفة الضعيف . وفرضه الدفاع عن الوطن . ومقاومة المعتدين والغاصبين . وذياده عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين الذين كان الناس في عصره ينكرون أن يكون لهم حق في الحياة ، كان إذا جلس في المسجد فجلس اليه خباب وعمار وبلال وياسر وصهيب وأشباههم هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ما سبقونا اليه ؛ ولو طردهم عنه لجلسنا اليه ، فأنزل الله تعالى : **« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه »** .

وقرر محمد ، وحمى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة ، ووصاياه في رعاية حريات الناس والجماعات والأمم وتهذيبه للضمير الإنساني ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أو يعتدي على أحد مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع يهود

يثرب المخالفين له خير تقرير لحرية العقيدة والرأي وحرمة المدينة والمال كما يقرر الباحثون .

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق ، وألغى الرق البشري ، وأبقى أسرى الحروب المشروعة في نطاق واسع من الشرف والكرامة ، وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة ، وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس مني » ، وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب وهدم العصبيات والامتيازات الطائفية والعنصرية ، « **فالناس سواء كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح** » . وليس هناك شعب له حقوق في السيادة أو الوصاية على غيره من الناس .

— ٤ —

هذا هو محمد الداعي إلى السلم والحرية ، ولذلك لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس أو ليغرر بالشعوب ، والذي حطم الشرك والوثنية ، وهدم عرش الطغيان والجبروت ، والذي دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة ، تؤمن بأكرم الأهداف ، وتخضع لأسمى المبادىء وتطبقها ، والذي نفخ في أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ليس هناك سيد ومسود ، إنما السيادة لله ولرسوله ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

الإسلام محرر الإنسان

فـــلا اقتحم العقبة ، ومـــا
أدراك ما العقبة ، فك رقبة .
١١ ــ ١٣ سورة البلد

ــ ١ ــ

كان الرق ذائعا قبل الرسالة المحمدية في كل مكان ، وكانت أسبابه متعددة كثيرة ، فهناك أسرى الحرب الأرقاء ، والأرقاء بالسبي والخطف واللصوصية ، والأرقاء بسبب إجرامهم ، والرق بسبب الدين والرقيــق بالوراثة . وكان يجوز للانسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء ، وكان بعض الأغنياء يعدون الفلاحين في مزارعهم رقيقا مملوكا لهم ، وبعض المجتمعات تعد المرأة في منزلة الرجل المملوك .

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة ، وألفه بكثرة المصريون القدامى والبابليون والبراهمة والفرس واليونان والرومان . وأقره أفلاطون وأرسطو الذي ذهب إلى أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة .

واعتبرته الديانة المسيحية شرعياً ، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة . وكان الأوربيون يسترقون سكان أمريكا بعد كشفها يعاملونهم أسوأ المعاملة ؛

ــ ٢ ــ

أما الإسلام فقد حرم شتى أنواع الرق، عدا الرق بسبب الأسر في حرب

إسلامية عامة بين المسلمين والمشركين ، وما عدا الرق بسبب الوراثة والتناسل .

ومع ذلك فقد قيد الإسلام بعد ذلك كله نظام الرق ، بقيود شديدة ، فجعل المملوكة بسبب الوراثة يولد ابنها من سيدها حرا إذا ألحقه السيد بنسبه ، وتنال هي حريتها بعد وفاة السيد ؛ وجعل الرق في الحرب قاصرا على الحرب في سبيل الدين ، الحرب التي تحدث بين المسلمين والمشركين أو المسلمين وأهل الكتاب ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله . وهي الحرب التي تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثيم ، أو مكيدة دولة كافرة ، أو للحنث بالعهود والالتزامات ، والتي ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » ، « **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** » . وجعل للإمام الحاكم الحق في أن يمن على الأسرى ، وفي قبول الفداء .

ثم فتح الإسلام الأبواب للحرية والعتق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل .. وجعله مغنيا عن كثير من الأخطاء ، وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة . وحث السادة على تحرير عبيدهم إذا كاتبوهم على مال معلوم .

فالإسلام إذن ضيق حدود الرق إلى أبعد حد ، وفتح العتق إلى أوسع مدى ، وحث السادة على عتق عبيدهم تقربا لله أو نظير مال يكاتبونهم عليه أو تكفيرا عن بعض السيئات ، وجعل الدولة قوامة على تحرير الرقاب بسهم مما يجبى من أموال الزكاة .

فأي شيء يعمله الإسلام أكثر من ذلك ، أيحرم الرق جملة ؟ كلا فإن من يصد الناس عن عقيدتك ودينك ، ويؤلب عليك القوى ، ويحاربك بالسلاح ، جزاؤه أن تضمه إليك ، لتحول بينه وبين الشر ، ولتؤدبه وترعاه وتوجهه إلى الهدى .

ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على المسلمين حسن معاملة الرقيق وتأديبه وتربيته وتهذيبه ، وجعله عضوا صالحا في الحياة ، وأن لا يكلف السيد عبده بما لا يستطيع ، وأن يعطيه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، وأن يحفظ كرامته . قال رسول الله : «لا يقل أحدكم : أمتي ، وليقل : فتاي وغلامي » ، وقال : «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .»

وقد صعد كثير من العبيد في الإسلام إلى منزلة لا يبلغها أحد ، فوصلوا إلى قيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وتبوءوا أمور الملك والولاية . بل إن عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين ، كان إذا سار هو وعبده تعاقبا على ركوب الناقة ، وعندما ذهب عمر إلى بيت المقدس ليبرم الصلح مع أهلها ، ركب عمر مرة ، وركب عبده مرة ، أثناء الطريق ، حتى لقد بلغ عمر المدينة وغلامه على الدابة ، وعمر الخليفة يسعى بين يديه .

ويقول رسول الله : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ، « اتقوا الله في الضعيفين : المملوك والمرأة » ، « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس » ، « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وتزوجها ، كان له أجران في الحياة الدنيا والآخرة : أجر بالنكاح والتعليم ، وأجر بالعتق .

وعن أبي مسعود قال : بينما أنا أضرب غلاما لي سمعت صوتا من خلفي : اعلم يا أبا مسعود — مرتين — فالتفت ، فاذا رسول الله ، فألقيت السوط من يدي فقال : « والله لله أبر عليك منك على هذا » .

إن الإسلام قضى على الرق قضاء إلى حد بعيد ، فما ظنكم بأمم الغرب اليوم التي تعامل بعض الطبقات معاملة أدنى من معاملة العبيد . فأمريكا موقفها من الزنوج الحمر معروف ، وعداؤها لهم بسبب اللون مشهور ، حتى لتحرم عليهم الوظائف العامة والتعليم ، وتنزلهم إلى درك الحيوانات . . وأسرى

الحرب العالمية الثانية لا يزالون يهيمون على وجوههم في سهول سيبريا وسواها من شتى بلاد الاتحاد السوفيتي عمالا أرقاء للدولة . بل وفي الهند طبقات المنبوذين ، الذين لا يعاملون معاملة الرقيق في الإسلام .

فأين هذا من عدل الإسلام وسماحته ، ودعوته للاخاء الحق ، والمساواة الصحيحة ، والحرية الكاملة .

بل إن الغرب قد حرم رق فرد ، وأباح استعباد أمة ، وأطلق حرية الإنسان ، وقتل حريات كثير من الشعوب ، وحرم نهب مال المواطن ، وأباح لنفسه أن ينهب المستعمرات الواسعة . وقضى على أسواق الرقيق في إفريقيا ، ولكنه حجر على رجال الفكر والعلم والاختراع من شباب الألمان ، الذين أسرهم في الحرب العالمية الثانية ، وجندهم مأسورين مساقين لخدمة المرافق العامة في روسيا وانجلترا وأمريكا وفرنسا ، بل ألقى عليهم أشد التبعات والأهوال والأعمال ، خلال الحرب وبعدها .

السر في قيام الإسلام

لم يكن الإسلام ثورة، ولم يبن على خططه على العصابات وصراع الطبقات، ولم يخدع محمد المحرومين، ولم يدع إلى مبادىء جوفاء يعجز عن تنفيذها، ولم يؤيده ذهب ولا فضة ولا نفوذ أو سلطان ولا جاسوسية أو لصوصية. إنما كان الإسلام رسالة إلهية للإصلاح، وهي رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الدينية، والعلم إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها.. ولم يكن السر في قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادىء الحق والقوة والخير والجمال [1].

لقد جمع الإسلام إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، وتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وكان قيامه في الجزيرة العربية أثرا للدعوة إليه واقتناع العرب به، إذ لم يفرض عليهم بقوة السلاح ولا بتأييد من عصبية أو سلطان.

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعاً عن حرية العقيدة التي كان الشرك يريد القضاء عليها، وعلى نور الله الذي انبثق من الصحراء على يدي محمد. وكانت مبادىء الإسلام نفسها، وروح العدالة المطلقة والإخاء والمساواة التي سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوي من دينهم، هي السبب الأكبر في انتشاره .. لقد دعا الإسلام بنفسه لنفسه، ولم يؤمر محمد لشيء إلا بالدعاية لرسالته « **وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم** [2] »، ويحق الله الحق

---

(١) راجع كتاب السر في انتشار الإسلام – محمد عرفة – ط ١٩٣١، وا راجع ٢١٧ رسالة التوحيد لمحمد عبده – ط ١٣٦١.

(٢) ٦٧ الحج.

بكلمته ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

الإسلام حرية ومساواة وعدل بين الناس والحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسؤول عن أعماله ، وحقوق الإنسان في الحياة والحرية والأمن والتعليم والتأمين الاجتماعي وسوى ذلك مصونة .. إن الإسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبحكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد والعمل على رفاهيته ، وبالحرية الاقتصادية ؛ روحه التسامح وحرية الرأي للافراد والجماعات ، ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس ... وذلك هو أساس الشورى والديمقراطية الحقة ... وحماية الإسلام للحريات ، وإطلاقه لها ، وتحريمه الحجر عليها ، أمر معروف : فحرية الفكر والرأي ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية والحريات العامة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، والحرية الثقافية والسياسية والدينية ، كل هذه الحريات قد قررها ودعا اليها وحماها الإسلام وكتابه الكريم ؛ وأبطل الإسلام الحكم الاستبدادي ، وأن الحاكم أو الدولة ظل الله في الأرض ، وليس للحاكم فيه أكثر مما للمحكوم ، يقول عمر لعامل له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ويقول : من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه ، إن رأيتموني على باطل فقوموني ، ويقول الرسول : الإمام راع ومسؤول عن رعيته .

ولقد حرر الإسلام الانسان من الجهل والجمود والفاقة ، وحرر المرأة من جور الرجل ، وساواها به في الحقوق والواجبات ، ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغيان المستبدين ، وحرر الروح الإنساني من الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الإنسانية في الحياة .

والمساواة في الإسلام حدّث عنها ولا حرج ، مساواة كاملة بين الناس جميعا ، بين المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين

جميع الطبقات والجماعات ، بين الأغنياء والفقراء ، مساواة يحميها الإسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه « ولا تعرف أي لون من ألوان التمييز بين الناس » ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشي وعبده معه راكب ، وولى رسول الله بلالا الحبشي على المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن ، وقال : ليس لعربي على عجمي ولا اعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى .

ولقد كفل الإسلام للمرأة جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأطلق لها حرية الرأي والتعبير والحرية في التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وقرر حريتها الشخصية وكيانها المعنوي ، وساواها بالرجـل في الحقوق والواجبات والإسلام يجيز اشتراكها في الشؤون العامة ، وأن تشير وتستشار فيها ، وإن كان لا يخصصها لذلك وحده حفظا للأنوثة وواجباتها .. وقد حرم الإسلام ألواناً كثيرة من رق المرأة كالزنا والبغاء ، وجعل صلتها بالرجل قائمة برباط مقدس هو الزواج الذي لا يتم إلا برضاها ، وجعلها راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هي رعاية المنزل وتربية الأبناء والتعاون مع الرجل في الحياة . ونفقة المرأة على أبيها أو ولي أمرها قبل الزواج وعلى زوجها بعده غنيـة كانت أو فقيرة ، فان لم يكن لها عائل فنفقتها من بيت المال .. ولها مهرها ، وحقها في الميراث للأنثى نصف الذكر .. وقيد إباحة تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة لأهداف اجتماعية سامية .وهذه المبادىء السامية هي التي نشرت الإسلام في كل مكان »

هذا النور ما زال يهدي الإنسانية

تلك الإنسانية الحائرة المضللة ترنو ببصرها إلى السماء، تنشد النور والهدى والحق والسلام ؛ وهذه الحياة الموحشة الكئيبة تتنسم روائح الحرية والعدالة والاخاء ، بعد أن عافت رؤية الدماء والأشلاء واستبداد الأقوياء بالضعفاء ، وملت سماع أنغام العبودية والرق والاستعباد والسيطرة على الناس والاستهانة بحريات الأفراد والجماعات والشعوب ، وهذه الأرواح والقلوب والمشاعر الظامئة إلى نبع الروحية والإيمان والأمان تحوم في أجواء السماء ، باحثة عن الصوت السماوي الخالد الذي دوى في أسماع البشرية حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل ، ليبلغها رسالة الكمال الإنساني الأعلى ، وليرشدها إلى الحقيقة الكبرى التي قامت عليها الأرض والسموات والكون .

واتجهت الآمال والأبصار كلها إلى جزيرة العرب ، إلى قلبها النابض بالحياة : مكة ، وإلى ذؤابة العرب كلها في قريش ، وإلى ميراث النبوة الخالد من آل عبد المطلب بن هاشم ، وإلى بيت عبد الله بن عبد المطلب وزوجه الطاهرة آمنة بنت وهب . واستقر الإلهام الصادق على أن رسولا جديدا يوشك أن يظهر في الكون ليحدث أعظم ثورة إنسانية أرادها الله وعرفها التاريخ وباركتها السماء ، وليقود الناس من جديد إلى الحرية الكاملة والمساواة التامة والمدنية الباهرة والحضارة الزاهرة والسلام المنشود .

وأخذت الأحبار والرهبان والكهان تهتف من أعماق قلوبها في صمت عميق وعجب عجيب : لا بد من ميلاد النور الأعظم ، الذي سيضيء الآفاق ويحرر العالم كله من إسار الظلام والظلم والعبودية ، لا بد من ذلك فالأمل

قريب والبشرى توشك أن تتحقق ، والنشيد الخالد الذي طالما ظمئنا إلى لحنه الرائع قد بدأت أنغامه الموقعة وكأنها صيحة البعث والحرية ، لا بد من أن تتحقق نبوءة موسى وعيسى بمولد « روح الفهم والمشورة ، وروح الحكمة والقوة ، وروح الخوف والمحبة ، وروح التبصر والاعتدال ، والعدل والتقوى والرحمة فما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم كله [1] » .

ومات عبد الله شابا ، وترك النور متألقاً في هذا الجنين الطاهر المطهر ، المودع في مجمع الأصلاب الطاهرة ، وسلالة أشرف من في الوجود من أهل الدنيا والآخرة .. ومسحت آمنة دموعها ، وأقامت على الإيمان والصبر والعزاء الكريم ، ولكنها كانت تسير وتقف وتنام وتستيقظ وتصبح وتمسي وتعيش في كل لحظة لتسمع هتافا أبديا خالدا تردده الأجيال من أعماق الزمن وأغوار الإنسانية : بشراك يا آمنة فإنك تحملين النور الأعظم الذي سيضيء على الآفاق وسيملأ الدنيا ذكرا وبشرا وخيرا وبرا وأملا وسعادة وحيوية وحياة ، بشراك يا آمنة بميلاد خاتم النبيين وآخر المرسلين ، بشراك بما بشر به يسوع بابتهاج قلب : « إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله » ، « وهي رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث [2] » .

ثم جاء فجر الميلاد النبوي الكريم [3] ، فرأت آمنة نوراً أضاءت له قصور بصرى بالشام ، واهتز إيوان كسرى معلنا قرب زوال العبودية من على ظهر الأرض ، وكبرت الكعبة إيذاناً بميلاد نبي السلام والإسلام والتوحيد ، ورأى

---

(١) من إنجيل برنابا إصحاح ٤٤ .

(٢) إنجيل برنابا إصحاج ١٦٣ .

(٣) كان ذلك في ليلة الاثنين اليوم التاسع أو الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق الموافق ٢٠ إبريل عام ٥٧١ م .

هرقل أن ملك الختان قد ظهر فأيقن أن دولة الرومان ستصير أثراً بعد عين ، وأخذت الملائكة تفد على مكة ، تحيي الميلاد الكريم والطفل العظيم : روح الله ، والإنسانية ، وقائد الناس إلى السمو والخير والإخاء والحرية ، « قدوس القديسين الآتي بالخير والبر الأبدي ، وهو القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة » ، و« روح الحق الذي يرشد إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » .

ثم نما الطفل وكبر ، فرأى من آيات ربه ما رأى ، وأصبح شابا ، وأصبح حكيما يومى إليه بالبنان ، ورجلا تهتز لحديثه المشاعر وتصغي إليه الناس وتهتف به الحياة ، وتردد ذكره الدنيا .

ثم نزل عليه الوحي من ربه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجدد معالم الوجود وغير مجرى الحياة والحضارة ، وحارب الوثنية والشرك ، كما حارب العبودية والرق والطغيان ، والاستغلال والباطل والزور والبهتان ، وقضى على الرأسمالية والإقطاعية التي كانت تسعى في الأرض لتفسد فيها وتهلك الحرث والنسل ، وحرر الرقيق والعامل والمرأة والخادم ، وحمى حقوق الفقراء والضعفاء ، وأقر حقوق الإنسان ورعاها ، وأقام الحياة على أصول تجمع بين الحق والواجب والخير والرحمة والعدالة والمساواة والأخاء والحرية والكرامة والشرف والروحية والمادية المهذبة ، ومحا الجهل وحارب الفقر وقضى على الظلم والجور والظلام ، وهدى الناس كافة إلى دين الله ، وبعث الأمن والسلام والسعادة والرفاهية في الأرض ، وأيقظ القلوب الغافية التي تحجرت في الصحراء فأصبحت تبكي لدموع اليتيم ، وتهتز لمرأى المسكين والمحروم وابن السبيل ، وتسعى في الأرض تطلب المجد والذكر والعظمة ، وآثرت حياة البطولة والتضحية والشرف على كل شيء ، وضربت أروع الأمثال للناس في مشارق الأرض ومغاربها ، ونشرت هدى الله ونور الإسلام في كل مكان وطئته أقدامها .

وانتصر محمد في المدينة في معارك كثيرة : انتصر في حربه مع المنافقين واليهود الذين يعماون على وأد الإسلام دعوة الحرية والطهر والسلام ؛ وانتصر في حربه مع الشرك والوثنية ففتح مكة وحطم الأصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ؛ وانتصر في الحروب التي فرضتها عليه القبائل العربية ، فمزق الحصار تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ؛ وانتصر في الميدان السياسي انتصاراً باهراً ، فجمع العرب كلها في وحدة واحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية ؛ وانتصر في ميادين الإصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، وداوى المزمن من الأمراض ، وأطفأ نزعات القلوب واستل ما طويت عليه من حقد وخصومة وإحن .

أقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغني والفقير برباط المحبة والتعاون والإخاء ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ، مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الإنساني وسعادته . وأقام المجتمع الإسلامي على أصول متينة قوية لا يعتريها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والإنصاف والحرص على كرامة الناس وطمأنينتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذي كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسؤولية ويقدس مصالح الناس وحقوقهم . وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا إلى أنبل الأخلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد في مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدران والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله في العالم حتى اهتدت به الإنسانية كافة .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو في الخامسة عشرة من عمره. واشترك في حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو في الخامسة والعشرين من سني حياته الميمونة، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه فكان

محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعاً ، وكـــان إذ ذاك في الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين ابراهيم وإسماعيل . ويتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد . فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة . وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين . ونزل عليه جبريل بالوحي وهو في حراء يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام .. قال له جبريل : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا في السماء : « يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

وبلغ محمد قومه رسالة ربه ، فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وظل يدعو إلى الله سراً وهو في قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة إلى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعياً إلى شريعة الإسلام والحق والخير والمساواة.

انقلاب كان معجزة المعجزات في تاريخ الحياة ،وثورة كانت ظاهرة فذة في نواميس الاجتماع ، ورسالة ليس لها نظير ، في الدنيا كلها ، وآيات بينات كلها هدى ونور أضاء الآفاق وغمر الأكوان وملأ العالم بهجة ومرحا ونشوة وشعوراً عميقاً بالسعادة ، هدى هذا النور الدنيا أجيالا طوالا ، ومع ذلك كله فما يزال هذا النور يهدي الإنسانية ، ولن يزال كذلك أبد الآباد حتى تقوم الساعة باذن الله .

عظمة نبي الإسلام

١ — وصف الله عز وجل في كتابه الحكيم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق ، فقال تعالى : « **وإنك لعلى خلق عظيم** » ، فهل يصح لنا أن نصف الرسول الأكرم بالعظمة ؟ العظمة بمعناها المتبادر الذي هو التميز والرفعة وعلو المنزلة ، أو بمعناها المقصود ، الذي هو ذيوع الشهرة ، وخلود الذكر ، وهو لازم للمعنى الأول ومقصود منه .. لا بمعنى الكبرياء والصلف فإنه ليس بمراد لي ولا لأحد في مثل هذا المقام .

هل يجوز ذلك ، كما أجاز بعض المعاصرين وصفه بالعبقرية ، في اعتقادي — وإن كان وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبوة هو الأتم والأكمل والأليق ، لأنه وصف يبين حقيقة شخصيته صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله — أن ذلك جائز ، وأنه ليس انتقاصاً لمكانته ودرجته عند الله عز وجل وليس محاولة لإدراج هذا العلم الأرفع في عداد الناس ولا لنعته بنعوتهم ووصفه بأوصافهم . فهو المفرد في تاريخ العرب ، والفذ في حياة الإنسانية ، والصورة الكاملة التي لم تتجل واضحة في أحد سواه .. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما بقيت الأرض والسماء .

٢ — وما هي موازين عظمة نبي الإسلام إذن ؟ إن للعظمة قيما يحكم بها على ضوئها ، وأسساً تنبني عليها ، وقد يختلف الناس في هذه القيم وفي تلك الأسس ، ولكننا سوف نحاول هنا أن نلم بجميع موازين العظمة والشخصية ، لنزن على ضوئها مدى عظمة نبي الإسلام ونقدرها قدرها الصحيح الذي تجتمع عليه كل الآراء .

ومن البدهي أن الإنسانية كلها مفكريها وروادها وقادتها وسادتها والحاكمين منها والمحكومين على حد سواء قد اصطلحت في جميع العصور والأجيال على أن نبي الإسلام صلوات الله عليه كان عظيما حقاً في كل شيء وفي كل جانب من جوانب حياته ، وأنني حين أكتب في ذلك لا آتي بجديد ، ولا أقرر حقيقة كانت غائبة عن أذهان الناس .

ومع ذلك فإني أقول : إن العظمة تقاس بقيمة واحدة من القيم ، أو بمجموعة منها . وسوف أدرس تلك القيم واحدة واحدة ، وأبين كيف أنها كلها منفردة توجب وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالعظمة بل بأنه أعظم الناس كافة ، وأعظم العظماء منهم خاصة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

٣ — وأول هذه القيم التي نحكم على ضوئها بعظمة نبي الإسلام :

القيمة الذاتية :

فالإنسان قد يوصف بالعظمة لأنه رجل ناجح في الحياة وصل في خضمها إلى كل ما يريد لنفسه من نجاح ، نجاح في الجاه أو المال أو الشخصية أو العمل . وعلى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس نجاحا في الحياة : يتيم فقير لا حول له ولا طول قد أصبح في عمره القصير صاحب دعوة ورسالة ، ورائد أمة ، بل رائد الإنسانية ، وصار باني دولة فتية كان بيدها زمام الأمور في العالم أجيالا طوالا ، كما صار باني حضارة وفكر ، لم يستطع أحد غيره أن يبنيهما على مر العصور ثم صار موضع الأمل والرجاء في مجتمعه وموضع الذكر والخلود في التاريخ ودوى اسمه في الشرق والغرب ، بل كان اسمه حين يذكر تفزع منه الملوك والأباطرة والقياصرة . أليس ذلك كله نجاحا ، بل أعظم من النجاح ، وأكبر من هذا الوصف المحدود .. وإذاً فمحمد عظيم لأنه كان إنساناً ناجحاً في كل أطوار

حياته ، لم يتخل عنه النجاح لحظة واحدة ، حتى في فترات بؤسه وفقره ويتمه .

أكان ذلك حظا وجدا ، أم كان عن كفاح وجلاد في الحياة ؟ هذا شيء آخر ، لا أحب أن أتحدث فيه الآن .

وثاني هذه القيم والموازين : هي **القيمة المثالية** : فالإنسان لا يعد ناجحا في الحياة لمجرد أنه نجح في تحقيق أمنياته في حياته ، ونال منها كل ما يريد ، ولكنه يعد ناجحا لأنه يمثل قيمة مثالية ، قيمة تنطق عن مثاليات الحياة ومبادئها وسلوكها وأخلاقها . قيمة مستمدة من مبدئه الذي سار عليه طيلة حياته فلم ينحرف عنه ، ومن خلقه الذي انطوت عليه نفسه وشخصيته ، فهو ناجح لأنه سار على ضوئه فلم يتزعزع إيمانه به ولا وقوفه عنده في نفسه . ومحمد صلوات الله عليه من ذلك الجانب عظيم ، وأعظم من كل عظيم ، فقد مثل في نفسه وسلوكه وعمله وخلقه كل مثاليات الحياة الطيبة الرفيعة ، من وفاء وصدق وأداء للواجب وللحقوق ، ومن رحمة وإنسانية وشفقة وبر وتواضع وما أصدق ما وصفته خديجة زوجه الطاهرة البرة الأمينة بقولها : « والله لن يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وكم من أناس أصبحنا اليوم نعدهم ناجحين في الحياة لمجرد أنهم جمعوا بعض المال والثراء ، أو وصلوا إلى بعض المناصب وبعض الجاه ، وإن كانوا في صعودهم إلى ما صعدوا إليه يمثلون الانتهازية حينا أو الفساد والانحلال حينا آخر ، أو الجشع وحب النهب والغش وأكل أموال الناس بالباطل حينا ثالثا .. ولو كانت هنالك قيم مرعية لطردتهم هي من ساحة النجاح طرداً ، وأبعدتهم عن ميدان ادعاء العظمة إبعاداً شديداً .

إن نجاح محمد صلوات الله عليه لم يكن مبنيا على شيء من ذلك كله ، فهو لم يكن أنانياً ولا انتهازياً ولا منافقاً ، ولم يكن مواربًا ولا مرائياً ولا مخادعاً ،

ولم يكن سلبيا في حياته ولا ممن يحرصون على الوقوف في الموضع الوسط إرضاء لكل الأطراف .. بل قد نزهه الله عز وجل عن كل ذلك واصطفاه على العالمين . كان نجاحه صلى الله عليه وسلم في حياته مقرونا بالتزامه للمثل والمبادىء ولأشرف قواعد السلوك الانساني الرفيع .

وثالث هذه القيم : هي **القيمة الروحية** : وهي قيمة لها خطرها فالمصلح الديني عظيم لأنه يمثل قيمة روحية خاصة، والنبي عظيم ، والرسول عظيم ، لأنهما يمثلان قمة القيم الروحية .

ولقد نزلت آخر الرسالات على محمد بن عبد الله ، وشرفه الله بها فأدى الرسالة وبلغ الأمانة ، ودعا الإنسانية كلها إلى الإيمان بدعوته فآمن بها الكثير من الأمم والشعوب والجماعات والأفراد .. ومن هنا كان نزول الرسالة عليه صلى الله عليه وسلم ، أعلى المقاييس لوزن عظمة نبي الإسلام عليه السلام ، فكيف به وقد كان خاتم الرسل والأنبياء ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات وكان هو إمام الأنبياء والمرسلين ، والذين اجتمعوا على التبشير به والدعوة إلى بعض أصول دعوته ؟ وفي الحديث الشريف ما معناه : أعطيت خمسا لم يعطهن نبي من قبل : جعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا ، ونصرت بالرعب . وأعطيت الشفاعة ، وختمت بي الرسالات .

ورسالته صلى الله عليه وسلم باقية إلى قيام الساعة صالحة لكل زمان ومكان .

إن هذه القيمة الروحية هي أسمى القيم ، وأرفع الموازين، وأكمل الأسس لوزن عظمة نبي الإسلام ؛ ويكفي أن نقول عنه إنه نبي ورسول فحسب ، فكيف بك إذا أضفت إلى ذلك أن شريعته خاتمة الشرائع وأنها باقية ما بقيت الحياة ، وأنه نزل عليه الذكر الحكيم كتابا من الله هاديا ومنيرا وداعيا إلى الله وإلى كل قيم الحياة ومثالياتها ومبادئها الشريفة ؟

ورابع هذه القيم : هي **القيمة الاجتماعية** : إذ تأخذ من منزلة الرجل في مجتمعه ، والتفاف الناس حوله، وثنائهم عليه، وحبهم له، دليلا على عظمته .. وقد كانت منزلة محمد صلى الله عليه وسلم في المجتمع المكي وفي المجتمع

المدني وفي المجتمع العربي والإسلامي ، بل الإنساني ، منزلة رفيعة لم يدركها أحد ، ولم ينلها إنسان من قبل ولا من بعد .. وكان سعي الرسول لخير المجتمع سعيا رائعا عظيما تتحدث به كتب السيرة النبوية الشريفة .. كان يعطف على المرأة والخادم والعامل والفقير والمريض ، كان يقيم المجتمع على دعائم متينة من الحب والإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعي والرحمة والبر . حرر الأرقاء ، أعلى منزلة المستضعفين ، لم يجعل للحاكم فضلا على المحكوم ولا للقوي فضلاً على الضعيف .. إلى غير ذلك من المبادىء التي لا يتسع الوقت لتفصيل الكلام فيها .

وخامس هذه القيم : هي **القيمة القومية** التي تأخذ من زعامة الرجل في قومه ودعوته لهم إلى قومية واحدة وإلى وحدة تجمع جميع أجناسهم وأصولهم وشعوبهم دليلا على عظمته .. وبهذا المقياس تستطيع أن تقول إن نبي الإسلام كان عظيما حقاً فقد جمع العرب على كلمة واحدة ، ووحد بينهم وألف بين قلوبهم . وأعلى قوميتهم ورفعها مكاناً عالياً ، وساوى بينها وبين القوميات الأخرى في الحقوق والالتزامات ، فلم يكن داعية عنصرية ، ولا ممن يفضلون جنسا على جنس ، ولا لونا على لون ، ثم جمع المسلمين جميعا في قومية إسلامية واحدة ، ووحد بينهم في الشرائع والقوانين والالتزامات والأهداف ، فهو رائد لقومية المسلمين . . وهو بذلك أكبر من عظيم وأكثر من رائد وداعية ، صلى الله عليه وسلم .

وسادس هذه القيم : هي **القيمة الفكرية** التي تبني عظمة الرجل على فكره وآرائه ومبادئه التي يمثلها ويدعو إليها .. وتفكير الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان مستمداً من رسالة السماء فهو يمثل في شتى وجوهه الحرية والشورى والمساواة ، ويمثل الحق والعدل والإخاء ، ويحارب الطغيان والفساد والانحلال ، وينبني على الدعوة إلى حمل المسؤولية ونشر العلم والعمران والحضارة في الأرض ، ويقوم على عمد راسخة من الوازع الديني

في النفس ومن الضمير الحر الدقيق الإحساس بكل شيء ومن تمثل الجزاء الإلهي والخوف من العقاب الأخروي ، وهو فكر حرر الحياة من نظام الرق والإقطاع والوحشية والجاهلية الأولى ، ونقلها إلى عهود جديدة من المعرفة والحضارة والأخوة في الله وفي الدين وفي المسؤولية .

وسابع هذه القيم : هي **القيمة الإنسانية** ، التي تأخذ من حياة الرجل – لا في مجتمعه وبين قومه فحسب – بل في صميم الإنسانية كلها ، ميزانا لوزن عظمة الإنسان .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم الأب الروحي للإنسانية كلها ، اتسع تفكيره لكل الأمم والشعوب والعناصر والأجناس والألوان ، دعا إلى وحدة العالم تحت شعار شريعة مطهرة منزلة من السماء ، أقام حدودا للعدالة دخل فيها كل صاحب رأي وصاحب دين وكل ذي عنصر أو جنس لا يمت إلى العرب ولا إلى العروبة بسبب .

كان قلبه الكبير يحزن للإنسانية وهي تهوي في هوة سحيقة من الشرك والوثنية . فيدعوها إلى توحيد الله وعبادته وطاعته وحده ، وكان قلبه يخفق كلما رأى دليلا من دلائل الخير في الناس والإنسانية .

إن نبي الإسلام بحق يعد الزعيم الأكبر والإمام الأعظم للبشرية كافة . دينه لكل الناس . الكتاب المنزل عليه موجه إليهم جميعا . وما أكثر ما صدرت آياته وسوره بـ « يا أيها الناس » فتشريعات الإسلام ونظمه وقوانينه تستهدف الخير للناس كافة ، وتعمل على إقامة مجتمع إنساني حر كريم تشمله الرفاهية والسعادة والتعاون بين الناس جميعا وتظلله الحرية والمساواة والإخاء بظلها الوارف الأمين .

٤ – هذه هي موازين العظمة ، فانظر بالله كيف تنطبق كلها على هذا الرسول العربي الأمين على هذا المبعوث من الله رحمة للعالمين ، على من نزل

عليه القرآن هدى ورشدا ونوراً لكل الناس أجمعين .

وقد تكون هناك موازين أخرى لوزن عظمة الإنسان ومدى قوة شخصيته في الحياة ، وباي ميزان نزن محمداً نبي العرب ورسول الإسلام ، نخرج بنتيجة واحدة هي عظمة هذا النبي الرسول ، عظمة خارقة للعادة خارجة على المألوف ، عظمة لم يدركها أحد من رواد العالم ، ومفكري الإنسانية ورسلها البررة الأوفياء .

اللهم إلا ميزانا واحدا ، هو ميزان الشرك والضلال والإلحاد والمادية الكافرة بكل دين وبكل رسول وبكل كتاب ، فإنه لا شأن لنا مع الذين يحاولون رد الإنسانية إلى حياة الغاب ونظام الجاهلية الأولى ، ممن لا يعترفون بحقيقة ، ولا يؤمنون بأية قيم روحية أو غير روحية .

إن محمد بن عبد الله الرسول العربي ، خاتم الرسل ، وآخر النبيين ، قد كان في كل أطوار حياته ، وفي جميع شمائله وأخلاقه وصفاته ، عظيما ، انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن ترك دولة فتية ، ألقى القدر في يديها زمام العالم لعدة أجيال ، وأقامها حارسة للحضارة والحرية ، واعتز بها التاريخ رمزاً لكرامة الإنسان وإرادته ولمثاليات الحياة الكريمة وروحيتها الصافية الصادقة .

فما أعظمه نبيا ، وما أرفعه رسولا من عند الله ، مبشراً بالحق ، وداعيا إلى الله وإلى صراط مستقيم .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الإسلام دعوة الى العلم – دين الثقافة والمعرفة – العلماء المسلمون يبحثون – التيارات الكبرى في الثقافة الإسلامية والعربية .

الإسلام دعوة إلى العلم

« طلب العلم فريضة على
كل مسلم ومسلمة » .
حديث نبوي شريف

— ١ —

يدعو الإسلام إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الإنسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان ، وقد صحبت الثقافة الإسلام في كل مكان ، وكانت العواصم الإسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء . ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصي الدنيا . وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعاً مستمراً .

كل هذه حقائق لا يستطيع أن يتمارى فيها إنسان .

أما التربية الإسلامية الصحيحة ، فهي مفروضة ، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم ، في المنزل والمسجد ، وفي المدرسة ، وفي مجالس العلم والعلماء . وعلى النظم العامة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة .

وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجدان وتهذيب السلوك ، وتنمية

الإدراك . وعلى المعلم أن يكون قدوة للمتعلمين في آدابه وأخلاقه وسلوكه .

ولا فرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى في مجال التربية والثقافة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان النساء يحضرن مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتي الناس ، قال رسول الله : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء .

كما أنه لم يكن فرق بين العناصر والألوان والأجناس في هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء في الأمة الإسلامية من أصول وعناصر غير عربية .. فأين هذا مما يحدث الآن في بعض أنحاء العالم من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى في ميدان الثقافة . ولعلك قرأت قصة الطالب الزنجي « برس لي جوليان » الذي كان متفوقا طول حياته في دراسته حتى نال درجة أستاذ في الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيدا ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى البيض أن يقبلوه معلما لهم .

إن الإسلام الذي حرر العقل البشري من كل قيد ، هو هو الذي حرر الثقافة وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء .

وأساس التربية الإسلامية إنساني محض : إشعار الإنسان بأنه مسؤول عن الإنسانية جميعها ... اقرأوا إن شئتم قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » ، أو قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أو قوله : « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء » ، أو قوله : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أو قوله : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي اطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» ، أو قوله لأعرابي أجهد بعيره فلما كل من العمل أراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه

حتى إذا كبر تريد أن تنحره » .. فستجدون الطابع الإنساني واضحا كل الوضوح في كل كلمة وكل عمل وكل مبدأ وكل تشريع في الإسلام عامة وفي التربية الإسلامية خاصة .

يبني « أمانول كانت » مذهبه في الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول في الأخلاق .. ولعلكم تتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبد الله سبق الفلاسفة كما سبق المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة في الأخلاق والاجتماع والتربية .

— ٣ —

وقد اتبع المسلمون هذا المنهج فكان منهم عباقرة أفذاذ أمثال جابر في الكيمياء والرازي في الطب وابن الهيثم في الطبيعة وعلم الأضواء وابن خلدون في سنن الله في الاجتماع وغيرهم ، وسار المسلمون خطوات فكانوا سادة العالم المسيطرين على ناصيته .

ثم تغلغلت في المسلمين الفلسفة اليونانية فحل المنهج العقلي محل المنهج التجريبي في دراسة الطبيعة ووقف الركب عن التقدم ، بل بدأ الركود إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه الآن .

ولكن المنهج الإسلامي وصل إلى أوربا فأخذت به وبدأت نهضتها العلمية . ومن المعروف أن حضارة أوربا الحالية لا تقوم على منهج هركليب في الطبيعة أو على قياس أرسطو ، أو على بداهة ديكارت وإنما تقوم على المنهج التجريبي الذي أخذ به روجر بيكون وفرنسيس بيكون ولكنهما لم يبتدعا هذا المنهج بل أخذاه عن المسلمين وكانت هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، فان الأوربيين المتعصبين يخفونها لأنهم يريدون ألا يتجلى العرب بأية فضيلة ولكن المنصفين منهم يعلنونها في قوة وفي صراحة ومنهم جوستاف لوبون في كتابهحضارة

العرب والأستاذ بريفولت في كتابه الإنسانية فهو يذكر لنا جملة من الحقائق التي ليست محلا للشك فيها .

إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في أكسفورد .. وكان يصرح باستمرار أن تعلم اللغة العربية وتعلم علوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة . وإن منهج العرب التجريبي كان قد انتشر في عهد بيكون انتشاراً واسعاً وأخذ الناس يدرسونه في لهفة وشوق ويتعلمونه في جميع ربوع أوربا .. ويعترف بريفولت بأن العلم الإسلامي والحضارة الإسلامية تضافرتا على بعث باكورة الحياة العلمية في أوربا ، فيقول :

« وإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي ألا ويمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة وفي المصدر القوي لازدهاره — أي في العلوم الطبيعية — وروح البحث العلمي » .. ثم يقول هذه الكلمة الحاسمة : « إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من اكتشافات مدهشة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من ذلك ، إنه يدين لها بوجوده نفسه [1] » .

— ٣ —

دعا الإسلام العقل البشري إلى حب المعرفة ، وغذى ضمير الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبني الإنسان جميعا ، ووجهه إلى ما فيه تقدم الإنسانية جمعاء .

دعا الإسلام إلى العلم ، لأنه منذ أقدم عصور التاريخ ولا يزال رافع منار المدنية ومشيد مجد الشعوب ، وغذاء العقول والأرواح ، والدواء الناجع

---

(١) التفكير الديني في الإسلام — ترجمة عباس محمود .

لأمراض النفوس والجماعات ، إن حرصت على استخدامه في سبل الخير ولتأييد نواميس الله في الكون والحياة .. وهو الداء المبيد ، والسم القاتل ، إن استخدم أداة للفتك والدمار .

ولا عجب فالعلم كاشف أسرار الحياة ، ومغاليق الكون ، وأسباب الثروة ، وبه تسعد الإنسانية ، ويبسم الأمل للناس .. وما هذه المبتكرات في الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفنون إلا ثمرة من ثمار العلم . الذي قد يصبح وبالا على الإنسانية والشعوب ، حين يكون وسيلة لاختراع المفرقعات والمدمرات والقنابل والمدافع ، وما اليها ، مما يعم شره وهلاكه ولا يخص أحدا من الناس . ومهما كان فإن العلم اليوم — فوق استخدامه وسيلة لكسب الحرب وإشاعة التدمير والهلاك — يوفر الأدوات في شتى مرافق الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وهي تقوم مقام عدد كبير من العمال .. وبذلك يتسبب في خلق مشكلة البطالة ، وحرمان كثير من العمال من الرزق .

والعلم على أي حال محمود لا يذم ، محبوب لا يكره ، لأنه خير في ذاته ، وآثاره الخيرة الجميلة لا تعد ولا تحصى ، ولن يغض من شأنه ما يقوم به العلماء من ابتكار آلات التدمير والاهلاك .

وإن الإسلام ليقف حارسا للعقل البشري ، يوجهه ويهديه ، يوجهه إلى الخير ، ويبعده عن الشر ، ويدفعه إلى أن يفكر في كل ما يعود على الإنسان والإنسانية بالسعادة والرفاهية ، ويحول بينه وبين أن يكون أداة لشقاء بني الإنسان .. إن النور يضيء ، فإذا انقلب نارا أحرق ودمر ، وإن العقل يبتكر ويفكر ، فإذا اندفع إلى التفكير في الشر أهلك وأفسد . وإن الله هو صانع الحياة ولا يحب أن يدمرها إنسان .

ولقد كان المسلمون في جميع العصور يخضعون العقل للضمير ، ويوجهون العلم للخير ، ولنفع بني الإنسان ، ولخدمة الجماهير ، ولإسعاد البشر .. وكانت حروبهم لا تعتمد على السلاح الفاتك ، ولكن على الإيمان العميق .. وبذلك لم يسعوا يوما في التدمير والفساد في الأرض ، بوازع من دينهم الكريم .

دينُ الثقافةِ والمعرفة

« إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ... »

— ١ —

لنذكر بالفخر أياما مضت ، حمل فيها المسلمون مشاعل النور ، ومصابيح الحضارة ، ورفعوا للإنسانية صروحا عالية ، وقبابا سامقة ، يؤذن عليها بدعوة الحق والعلم ، والحكمة والمعرفة ، والثقافة الشاملة ، والمدنية المهذبة .

ولنحي بالإجلال جهود علماء المسلمين الأولين في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ، والفسطـاط والقاهرة ، ودمشق وبغداد ، وقرطبة وغرناطة والقيروان ، وبخارى وسمرقند وجرجان وسواها من عواصم الإسلام الكبرى ، التي قامت فيها الجامعات الإسلامية ، ومن بينها الأزهر جامعة الإسلام الكبرى ، ومعهده العتيق ، ذو التاريخ الحافل ، والجهاد العلمي الطويل المتصل ، خلال عشرة قرون أو تزيد .

وهل ننسى محمد بن موسى الخوارزمي واضع علم الجبر ، الحسن ابن الهيثم مبتكر نظريات علم الضوء ، وابن النفيس مؤلف رسالته في الدورة

الدموية ، وجابر بن حيان صاحب المؤلفات في علم الكيمياء والفارابي وابن رشد والغزالي وسواهم من العلماء والمفكرين المسلمين ، الذين كانوا يبحثون ويدرسون ويدونون ، ويقيمون الصناعات ، ويخترعون الآلات ، ويرقبون حركات الكواكب في أفلاكها ، ويقيسون محيط الكرة الأرضية بالأجهزة الدقيقة ، وينشرون الثقافة بين الناس ؟

وكيف ننسى ودينا دين العلم والثقافة ، والداعي إلى تقديس الحكمة والاستنارة بها ، وكتابه الحكيم ذخيرة من الهداية والمعرفة والإسلام رسالة عالمية تضمنها القرآن الكريم ، وإن الإنسان ليقف مشدوهاً أمام العظمة الفكرية التي تجلى فيها الإسلام على محمد عليه الصلاة والسلام ، وما بالك بدين يعز العلم ويرفع شأن العلماء ، ويعدهم المصابيح الهادية للإنسانية ، ويجعل قداسة العلم مضارعة لقداسة العبادة لأنه يعتبر العلم في ذاته من أسمى العبادة ، وحسبك أن القرآن الكريم دائم التذكير بالعقل والتدبر والتفكير ، وقد ذكر العقل باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة ، وذكر العلم في مواضع من آياته تناهز المائة وذكر مشتقاته أضعاف ذلك ، وجاء فيه ذكر « أولي الألباب » أي العقول بضع عشرة مرة ، وذكر فيه « أولو النهى » أي العقول في آخر سورة طه ، وجاء فيه ذكر الحكمة مرات كثيرة ، وهي بمعنى التفكير الرفيع ، والفلسفة العلمية : كعلم النفس والأخلاق ، وأسرار الخلق ، وسنن الاجتماع وفلسفة التاريخ .

والعلم في القرآن يشمل علوم الدين والدنيا في شتى أنواعها وفروعها ، وهذا العلم هو ثقافة المسلم خلال الأجيال ، وهو واجب على المسلمين كافة ، كما يعبر عن ذلك الحديث النبوي الشريف « طلب العلم فريضة على على كل مسلم » وبلغ من إعزاز شأن العلماء في الإسلام أن جعلهم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ورثة الأنبياء ، وجعلهم في الذروة من طبقات الأمة ، فقال : «خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها »، يريد أن أفضل

الناس هم العلماء وأفضل العلماء هم المتخصصون في شتى الدراسات ، سواء منها الدينية والدنيوية ، ولقد قدم محمد الرسول الأمي للعالم مثالية قوامها العلم والفلسفة العملية ، وهذه المثالية العلمية هي التي أثلت للحضارة الإسلامية مجدها التليد المرموق ، وقد جرى هذا في وقت لم يكن للعلم الواقعي فيه شأن مذكور في حياة البشر ، بل كان الشأن للأساطير والأوهام .. ثم نادى بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وبأن المستقبل له ، وبهذا تقدم الرسول بمعجزة أخرى لم تدركها أفهام الناس من قبل ، ووضع الأساس لديانة تقدمية صادقة ، تحترم العلم والعقل ، وتوجه الإنسان إلى تفسير الوجود والحياة في ضوئهما ، ولم يحصر رسالته في قومه . بل ارتفعت شخصيته فوق حدود البيئة والمكان والزمان وهذه العظمة الذهنية هي إحدى معجزاته العظيمة ، ولم تكن الحضارة الإسلامية العالمية الشاملة إلا نتيجة من نتائج الفلسفة الإسلامية العملية ، وليس المنهج العلمي التجريبي الذي يعتمد على المشاهدة والتجربة والتمحيص وامتحان المقدمات من وضع بيكون في كتابه « الأداة الجديدة » الذي ألفه عام ١٦٢٠ ميلادية ، بل إن القرآن الكريم هو الذي وضع قبل ذلك التاريخ بألف عام أساس هذا المنهج العلمي بما حوت آياته من دعوة إلى التأمل والنظر والتفكير ، وترك الأوهام والتقليد ، وهذا المنهج القرآني الرفيع يجب أن ترتكز عليه ثقافة المسلم اليوم ، حتى يفكر بالعقلية العلمية ، فيواجه الحقائق ، ويعنى بالجوهر دون العرض ، ويطلب اللب دون القشور .

وفرض العلم وجعله إلزاماً على كل مسلم هو الذي ساعد على انتشار الروح العلمي بين المسلمين في الأمس البعيد ، وما أحوجنا اليوم إلى هذا كله لنستعيد مجدنا العلمي الغابر ، ونسترد شخصيتنا الإسلامية التي تعد الثقافة العلمية أولى مميزاتها الأصلية .

لقد كان من أخص صفات المسلم في القديم الحرص على التزود بقسط من الثقافة ، وطلب العلم من المهد إلى اللحد ، والرحلة من أجله والهجرة في

سبيله ، والإقبال على القراءة وعلى تكوين مكتبة متخيرة في كل منزل ، وحث الأبناء على الإقبال على العلم ، وكان من الشعائر كذلك : بذل الأموال الطائلة في سبيل تشجيع البحث والثقافة وإعزاز شأن العلماء حتى لقد كان الناس ينصرفون عن مواكب الرشيد في عنفوان خلافته ليسيروا في مواكب العلماء ، وكان العلم نورا يضيء لا نارا تحرق، فلم يتخذوه وسيلة للإفساد ولا للتجارة والمنصب حتى لقد أريد أبو حنيفة على تولي منصب القضاء فأبى ذلك إباء شديدا وكذلك فعل غيره من أعلام الفقهاء .

وظل المسلمون يحرصون على الثقافة حرصا ظاهرا ، والتراث العلمي والفكري في نضوج مستمر ، حتى توالت على المسلمين المحن ، فبددت هذا التراث العلمي الخالد ، وأشاعت الجهل في العالم الإسلامي ، وفي مقدمة هذه الأحداث : تخريب العبيديين (الفاطميين) وإحراقهم في آخر دولتهم لمدينة الفسطاط عام ٥٦٤ هـ ، بما فيها من مساجد ومدارس وجامعات ومكتبات، وكتب تعد بالملايين ، ثم تخريب التتار لبغداد مركز الحضارة الرفيع في العالم الإسلامي عام ٦٥٦ هـ ، ثم سقوط الأندلس في أيدي الأسبان الجهلة المدمرين عام ٨٩٧ هـ . وافناء علمائها ومكتباتها وجامعاتها العتيدة .

وكان الملوك في العالم الإسلامي يحمون الجهل لتظل الشعوب مسخرة لطغيانهم .

واليوم الذي فقد المسلمون فيه الزعامة العلمية والفكرية في العالم هو اليوم الذي فقدوا فيه نفوذهم الدولي ، ومكانتهم الرفيعة بين الشعوب ، وجاءت أوربا فوضعت يدها على تراث المسلمين العلمي والفكري والحضاري ، واغتصبته لنفسها ، بعد أن كانت قد ترجمت علوم المسلمين ومعارفهم وفلسفاتهم في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي .

إذا أرادت الشعوب الإسلامية اليوم أن تنهض من جديد ، وأن تتبوأ مكانها المرموق بين الأمم ، فعليها أن تحارب الجهل ، وأن تصرف كل الإسراف

في نشر التعليم ، وإقامة المدارس ، وبناء الجامعات ، وفتح الأندية الثقافية ، والمكتبات العامة ، وتشجيع الكتاب العربي ورعايته ، كما تشجع انجلترا مثلا الكتاب الإنجليزي وتتخذه أداة للدعاية لها في كل مكان في العالم .

يجب أن تنخفض هذه النسب المرفوعة للأمية في العالم الإسلامي كله ، وأن لا يكون العلم في مدارسنا معناه القراءة والكتابة فحسب ، بل يجب أن يكون التعليم الثانوي فرضا واجبا على كل مسلم في كل مكان من العالم الإسلامي .

— ٢ —

إننا لنتألم حين نرى المجتمع الإسلامي لا يقدر العلم والعلماء، ولا يحرص على القراءة والاستفادة ، وحين نرى العلماء يخلدون إلى الراحة ، والجامعات تهتم بالمظاهر لا بالحقائق . والعصبيات الثقافية يهدم بعضها البعض الآخر والصحف والمجلات تصبح مصادر لثقافة الشعب . ونأسف حين نرى المادة الجامحة تصد الشباب عن العلم ، والطلاب يجعلون هدفهم النجاح في الامتحان لا للعلم في حد ذاته .

إننا نطالب بالاهتمام بالثقافة الإسلامية والتعليم الديني وتقريرهما في المناهج الدراسية الحديثة ، بحيث تصبح المناهج شاملة لشتى الثقافات الإسلامية والعربية القديمة والجديدة على السواء .

ونطالب بالغاء قيود التعليم كافة في البلاد الإسلامية ، حتى يصبح العلم متاحا للجميع دون استثناء ، فليس للتعليم في الإسلام قيود ولا لوائح ولا قوانين تصد عنه .

ويجب الاكثار من مدارس التعليم للكبار . فالعلم حق للجميع . الكبار والصغار جميعا فيه سواء .

إن المسلم الذي يجب أن يعيش عزيزاً في وطنه . كريما على الناس هو الذي يحرص على الثقافة ويتزود بأكبر قسط من المعرفة والعلم ، ليرفع من مستواه المادي والأدبي . وليتحرر من الجهل والفقر والمرض وليكون العلم . وسيلته لنشر السعادة والرفاهية والخير والأمن والسلام بين الناس .

العلماء المسلمون يبحثون

« الذي علم بالقلم ، علم
الإنسان ما لم يعلم ... »
قرآن كريم

— ١ —

من وحي الوطن الإسلامي الخالد ، نذكر هؤلاء العلماء الأعلام في تاريخ الثقافة الإسلامية بمزيد من الفخر والإكبار والتقدير ، نذكر طائفة من حملة مشاعل النور والثقافة في العالم الإسلامي رفعوا رأس الشعوب المسلمة عاليا نحو السماء ، نذكر روادا من رواد المعرفة سجلوا بمداد من نور مجدا لا يبلى للإسلام والمسلمين ، نحيي في إكبار وإجلال هذه الكواكب من أسلافنا وعلمائنا ، ممن توجوا تراثنا العربي القديم بالرفعة والمجد والخلود .

في القرون الوسطى حيث الظلام والجهل والوحشية كانت تسود أوربا والشعوب البدائية في العالم ، كان المسلمون يؤسسون الجامعات ويبنون المعاهد ويشجعون العلماء ، ويرعى ملوكهم الثقافة وشؤون الفكر والمعرفة . وكان العلماء أنفسهم يبحثون ويعللون ويستنبطون ويستنتجون ، ويصلون إلى نتائج مذهلة محيرة ، لأنها لم يدركها من قبل أحد .

إن الإسلام بحق دين العلم والمعرفة والثقافة لأنه يحض عليها ، ويدفع إليها ويوجب العلم والتعليم على كل مسلم ومسلمة .

وقد ضرب العلماء المسلمون الأمثال الرفيعة في تاريخ الثقافة العالمية ، حتى ليقول مستشرق معاصر هو عبد الكريم جرمانوس : « إن على المسلمين أن يفخروا بأسلافهم ، ويستمدوا من مواهبهم وعيا يقودهم إلى مستقبل جديد » .

— ٢ —

ونحن هنا نضرب المثل بعلماء الجغرافيا المسلمين ، لنذكر ماذا قدموه للإنسانية وللعالم من بحوث ودراسات ، خدمت العالم خدمات جلى ، وهؤلاء العلماء بحق قد أضافوا إلى حقل الثقافة الإنسانية كل جديد مما لم يصل إليه أحد قبلهم ، يقول المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس :

تعتبر الأبحاث الجغرافية الإسلامية من أقيم ما ساهم به علماء المسلمين في ميدان المعرفة العلمية . وقد كان لفريضة الحج والحركة التجارية الإسلامية الواسعة اليد الطولى في إقبال هؤلاء العلماء على التعمق في دراسة الجغرافيا . وقد دأب رجال الأعمال والعلماء من المسلمين على وصف تجاربهم في هذا الميدان ، ولم يقف الدين الإسلامي حائلا بينهم وبين نشر الحقائق الجغرافية التي يتوصلون إليها ، ولذا فانهم لم يلجأوا إلى المغالطات ، التي كان العلماء المسيحيون يلجأون اليها لاضطرارهم إلى التمسك بتعاليم دينهم ، الأمر الذي كان يباعد بينهم وبين الاعتراف بكروية الأرض أو بقياس أطوالها بالوسائل العلمية .

وهناك مجموعة كبيرة من علماء الجغرافيا المسلمين الذين لا تزال مؤلفاتهم تعتبر مراجع قيمة للمعرفة ويقف على رأس هذه المجموعة ابن قرطبة الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي والذي يعتبر حجة في مملكة ميديا القديمة ، وهي مملكة كانت قائمة في الأجزاء الشمالية الغربية من ايران الحالية وبلغت أوجها في القرنين السادس والسابع الميلاديين . ويعتبر كتابه « كتاب المسالك والممالك » أقدم دليل بين أيدينا .

أما أبو اسحق الفارسي فقد ولد في مدينة « برسيبوليس » القديمة التي يطلق عليها العرب اسم « اصطخر » . ولذا فقد عرف هذا العالم باسم الاصطخري . وقد قام ابن حوقل بعد ذلك بنسخ كتابه الذي يحوي وصفا دقيقا للدولة وسكان كل إقليم فيها . وفي القرن العاشر الميلادي ظهر المقدسي الذي ولد في القدس عام ٩٤٦م. وقد وضع هذا العالم بين أيدينا وصفا دقيقا لتجاربه في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » . ويعتبر ياقوت الذي توفي عام ٦٢٩هـ : ١٢٢٩ م أفضل الوصافين الجغرافيين . وقد خلد معلوماته في كتابه العظيم « معجم البلدان » . كما أنه أبدى اهتماما مماثلا بالأدب فقدم لنا كتابه الشهير « معجم الأدباء » .

وقد اعتبر الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي جزر فارو أقصى نقطة شمال أوربا ، ولكنه يذكر إيرلندة التي كان الاسكندناويون قد أقاموا فيها ثلاث مستعمرات والتي كانت تمثل في قصصهم الخرافية ما تمثله أمريكا أو « العالم الجديد » ، وقد أشار ياقوت إلى شلزويك وبيرجن بالنرويج كما عرف الإدريسي الدانمرك والنرويج والسويد وفنلنده . ومما يذكر بهذا الشأن أن الإدريسي استمد معرفته بهذه البلدان النائية من بلاط الملك روجر الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤ م) وهو أول ملوك صقلية الذين نسلوا من من أصل عربي . ويحوي الكتاب الجغرافي العظيم الذي وضعه البكري جانبا من تقرير ابراهيم بن يعقوب الذي زار بلاط الأمبراطور أتوا العظيم (٩٦٢ — ٩٧٣) بأمر من خليفة قرطبة وضمن تقريره وصفا لألمانيا والمناطق السلافية . ويرى بعض الباحثين أن العرب قد عبروا بحر البلطيق .

وقد قطع ابن بطوطة (المتوفي عام ١٣٧٧ م) أطول مسافة مز مسقط رأسه (طنجة) حتى بلغ الصين . كما وضح بدقة بالغة أسباب طول النهار في أشهر الصيف في الشمال وعرف البحارة العرب اليابان وجزيرة مدغشقر التي كانوا يعتبرونها المكان الذي يفرخ فيه طير « الرخ » الخرافي . كما كتب علماء

الجغرافيا العرب عن ولاية الزنوج الواقعة بين نهري سنغال ونيجر ، وفضلا عن ذلك فقد عرفوا جزائر « كناريا » في المحيط الأطلنطي وجزيرة « تناريف»

وكان العرب على اقتناع تام بأن الأرض كرة تطفو في مركز الوجود ، ويقول لنا أبو الفداء (المتوفى عام ١٣٣١ م) إنه إذا ابتدأ رجلان ؛ بالسير واتجه أحدهما شرقا والآخر غربا فانهما يتقابلان .

وقد استطاع الأوربيون أن يتعلموا الكثير من مؤلفات الرحالة المسلمين ، فقد كان المسعودي أول من وصف الطواحين الهوائية في سجستان « التي لا ماء فيها » ، كما وصف الإدريسي أنابيب المياه التي يستعملها المغاربة والمضخات التي تزودها بالماء في توليدو ، وفضلا عن ذلك فقد قدم لنا بيانا مفصلا عن عملية فصل المعادن عن الذهب ، كما ذكر استخدام أسمدة الطيور في زراعة العنب والتمر .

وتعتبر جميع هذه المعلومات العلمية خير عوض عن بعض البيانات الخيالية أو الخرافية التي اندست بين التقارير التي وضعت في العصور الوسطى والتي استمرت تجول في أذهان بعض الغربيين بعد ذلك بوقت طويل وقد لعبت الدوافع الدينية في بعض الأحيان دورا هاما في ظهور بعض الخرافات البريئة . ويقول لنا القزويني : إن رحمة الله تتبدى في أنه جل جلاله لا يسمح للمطر بالسقوط في المناطق غير المأهولة بالسكان وأنه يرسل هذا المطر إلى الحقول الخصيبة وحدها .

أما الغرب فإنه لم يدرك قيمة ما أسهم به علماء الجغرافيا من المسلمين إلا بعد قرون عديدة ، وكان أول من أدرك ذلك العالم « ولهم بوستل » الذي استمد بعض معلومات كتابه « كوزموجرافيا » الذي ظهر في « بال » عام ١٥٦١ من أبي الفداء وقد ذكر ياقوت للمرة الأولى كمرجع في المحاضرة التي ألقاها « يعقوب جرنوفيوس » في ليدن عام ١٧٠٢ .

لقد سطر العلماء المسلمون صفحات خوالد في جميع ضروب المعرفة والثقافة الإنسانية .

التيارات الكبرى في الثقافة الإسلامية والعربية

— ١ —

١ — جاء الإسلام فغير من مجرى الزمن
ونزل القرآن فحول من اتجاه الفكر

وكان منهج القرآن الكريم في الحجاج والحوار ، وفي الاثارة والاقناع ، وفي التمثيل والتعليل وفي الحجة والبرهان ، وفي الظن والحدس ، وفي الشك والتجربة والامتحان ، وفي الصدق والحق واليقين ، وفي ضرب المثل للغائب بالشاهد ، وللبعيد بالقريب ، وللغامض بالواضح ، وفي غير ذلك كله ، كان هذا المنهج القرآني « الفريد الجديد المنقطع النظير ، هو منهج الحياة كلها ، ومنهج البشر أجمعين » .

وكان هو المعلم الأكبر الذي تخرج على يديه أعلام الثقافة الإسلامية في شتى فروع الدين والعلم ، من الصحابة والتابعين ، وهو النور الذي حملته العقول المسلمة ، الواعية الأمينة الى كل مكان في العالم ، فأضاء دياجير الحياة ، وأنار ظلمات الوجود ، وملأ الأرض كلها أمنا وعدلا وخيرا وسلاما .

٢ — وسار الزمن سيرته ، ودارت الأيام دورتها ومنهج القرآن في المنطق والفكر والثقافة هو منهج المسلمين أجمعين ، ومنهج الدعاة من الصحابة

والتابعين وتابعي التابعين .. وهو المنهج القريب الى العقل الى الحياة ، الى طبيعة النفس الإنسانية ، الى لغة الاقناع والاثارة والتأثير .

حجج القرآن في التوحيد ، وفي الدعوة الى آله واحد ، والى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، هي حجج كل مسلم ، يتأملها ، ويرددها ، ويدعو بها ، واليها ، في كل لحظة وكل حين . وأدلة القرآن وبراهينه ، في الأرض والسماء ، في الهواء والماء ، في الشمس والقمر والنجوم ، في الليل والصبح والضحى والأصيل والعشي ، في كل ما خلق الله من نار ونور ، وضياء وديجور ومن صفو وغيم ، ومن سبات ويقظة ، ومن سكون وحركة .. هي أدلة الاقناع عند كل مسلم يدعو الى الله والى الحق والى طريق مستقيم ، وبهذا أصبح المنهج الإسلامي يستند الى القرآن كما يستند الى السنة ، ويعبر عن روح الإسلام الحقيقي .

— ٢ —

٣ — وانتشر الإسلام ، ودخلت فيه الأمم من الشرق والغرب ، وحملت كل أمة معها زادا من ثقافاتها وعلومها ، ونقلت اليه أشياء من فكرها وثقافاتها ومعارفها وفنونها .

وحمل المثقفون بفلسفة اليونان ، ومنطق أرسطو ، أشياء منهم من هذا المنطق ، ومن تلك الفلسفة .

وكان أرسطو الفيلسوف اليوناني القديم ، الذي ظهر قبل الإسلام بقرون كثيرة قد وضع المنطق الأرسطي في قوانين عامة يحددها العقل ، ويرسمها منهجا للفكر الإنساني ، لتعصمه من الزلل في التفكير ، واعتبر فلاسفة اليونان من بعده وحكماؤها هذه القوانين قوانين عامة صالحة للناس في كل زمان ومكان . لا يختص بها فريق منهم دون فريق ، ولا جماعة دون جماعة ، ولا أمة دون أمة ، وقوانين الفكر هي للفكر أينما كان ، وحيثما وجد ، وفي أية بيئة عاش .

حمل المثقفون بالثقافة اليونانية ممن دخلوا في الإسلام معهم اذا فلسفة اليونان وحكمتها ومنطق أرسطو أكبر فلاسفتها ، وترجمت هذه الفلسفة وذلك المنطق الى اللغة العربية ترجمات عديدة ، منذ أوائل عصر الدولة العباسية ، وأقبلت مدارس المسلمين العقلية ، تدرس هذه الفلسفة وتدرس ذلك المنطق في اهتمام بالغ ، وعناية شديدة ، وأقبل العلماء والمفكرون على تفسيرها وشرحها ، وأقبلت جماعات أخرى على التوفيق بينها وبين مبادىء الإسلام العظيم وأصوله ، وبدأ يظهر في الثقافة الإسلامية تيار جديد بجوار التيار الإسلامي الخالص ، الذي وضع القرآن الكريم منهجه ، وأقام دعائمه وشيد أصوله ، هذا التيار هو التيار الإسلامي الجديد الذي يلبس ثيابا زاهية من منطق أرسطو ، ومن فلسفة اليونان .

لقد أراد بعض العلماء المسلمون أن يكتبوا عقيدة التوحيد الإسلامية في صياغة جديدة على ضوء ما عرفوا من صياغات المنطق اليوناني ، لتصبح هذه العقيدة بصياغتها الجديدة أقوى وأقدر على اقناع العلماء والحكماء بها ، وعلى الزام الفلاسفة والمفكرين من غير المسلمين بمنطقها .

٤ ـ وانتقلت هذه الصياغة الجديدة الى العقل الإسلامي عن طريق المدارس والمراكز المبثوثة في الشرق والتي كانت لا تزال محافظة على صلاتها العقلية بالثقافة اليونانية ، كمدرسة حران وجنديسابور والاسكندرية ، ثم عن طريق المترجمين السريان والفرس ، وعن طريق الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة والفلسفة الاغريقية ، وشجع الرشيد ، وشجع المأمون ، حركة الترجمة من اليونانية الى العربية ، وآزروها بكل طاقاتهم ، وطلبوا كتب الفلسفة اليونانية من كل مكان ، ودعوا المترجمين لترجمتها وأنشأوا دار الحكمة للعمل من أجل ذلك .

وكانت جماعات المعتزلة قد قامت في البصرة وبغداد ودرسوا المنطق اليوناني ، وعنوا به عناية كبيرة ،واستمدوا منه ومن الفلسفة القوة على الحجاج

والجدل والدفاع عن الإسلام وعلومه وثقافاته . ومن بينهم بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) والنظام (١٨٠ — ٢٢١ هـ) ، وأبو الهذيل العلاف (١٣٤ — ٢٢٦ هـ) ، والجاحظ (١٥٠ — ٢٥٥ هـ) وسواهم ، كما استخدموا المنطق الأرسطي في الدفاع عن مذهبهم في الاعتزال واتصل العلاف بالفلسفة اليونانية وقرأها مترجمة حتى ليقول النظام : خيل اليّ أنه لم يكن متشاغلا قط الا بها [1] . وكان من أوائل المدرسة البصرية في الاعتزال ، وكان قد تبحر في الفلسفة ، واطلع على ما ترجم منها ، واستخدم المنطق اليوناني في بحثه عن الحقائق ، ويقول فيه الشهرستاني : انه طالع كثيرا من كتب الفاسفة وكان تأثر المعتزلة البغداديين بمنطق أرسطو أظهر منه من تأثر المعتزلة البصريين وأكثر ، وجاء الفلاسفة المسلمون من مثل الكندي والفارابي وغيرهما فاستخدموا المنطق والفلسفة في كل شيء ودافعوا عنهما دفاعا حارا .

٥ — وهكذا دخلت الفلسفة اليونانية ، ودخل المنطق اليوناني الى العقل العربي ، وبهما تأثر واصطبغت بهما طريقة الجدل والبحث والتعبير والاقناع والدفاع عن الدين ، والكلام في عقيدة الإسلام عند العلماء المتكلمين .

وأصبح ذلك التيار الجديد يفرض نفسه على الفكر الإسلامي فرضا ، بحكم التجديد ، وبسبب ما أولاه اياه خلفاء بني العباس من تأييد ، وبسبب ميل المعتزلة والفلاسفة المسلمين الى المنطق اليوناني هذا الميل الواضح المتميز والبعيد ، اذ أيدوه وكانوا شراحا له ، ومدافعين عنه ، واعتبروه قانون الفكر الخالد وحاولوا صياغة العلوم الإسلامية على ضوئه ، والتوفيق بينه وبين الأصول والقواعد الموروثة عن السلف .

٦ — ولكن معظم مفكري الإسلام رفضوا هذا المنطق ورفضوا هذه الفلسفة اليونانية ، ورفضوا أن يستعان بهما في صياغة البراهين الإسلامية والأدلة الإسلامية على توحيد الله ورسالاته وأصول الدين جملة .

---

(١) ٢٦ المنية والأمل للمرتضى .

وقد كان للاشعري والماتريدي وتلاميذهما أثر كبير في ترويج المنطق اليوناني والدعوة اليه وصياغة القضايا الإسلامية صياغة متفقة مع أسلوبه .

ومذهب الأشاعرة والماتريدية لا يمثل العقيدة الإسلامية الأولى تمثيلا صحيحا ، في نظر كثيرين من الفقهاء والعلماء المسلمين الأصلاء ومن بينهم ابن تيمية على الرغم مما أسبغ عليها قدم العهد من جلالة وهالة ، وعلى الرغم من تلقي الناس لها بالقول .

من أجل ذلك وضع الإمام الشافعي منطقا جديدا بكتابه لأول مرة في رسالته في علم الأصول ، حتى ليقول الامام أحمد بن حنبل : لم نكن نعرف العموم والخصوص حتى ورد الشافعي . ويقول الجويني امام الحرمين : «لم يسبق الشافعي أحد في تصنيف الأصول ومعرفتها» ، وفيه يرسم المناهج وينظمها لاستخراج الأحكام من أدلتها ، ويحرر طرق الاجتهاد والاستنباط .

والشافعي يعد بذلك في العالم الإسلامي وفي الدراسات والعلوم الإسلامية ، وفي الفكر الإسلامي ، ندا لأرسطو الفيلسوف المتعمق في الدراسات اليونانية . ويقول فيه أحمد بن حنبل أيضا : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه .

واذا كان منطق القرآن والسنة يعبر عن روح الإسلام وجوهره في أصالة وعظمة وجلال فان المنطق اليوناني ـ الذي حاول فريق من علماء الإسلام الاستعانة به في الدفاع عن دين الله وفي الدراسات العربية الإسلامية ـ هذا المنطق إنما يقوم ويعبر عن خصائص اللغة اليونانية التي تخالف لغة القرآن ولغة المسلمين ، ولما طبق المنطق اليوناني على الدراسات الإسلامية أدى هذا المنطق الى تناقضات عدة [1] .

---

(١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام علي سامي النشار ـ ص ٣٧٨ ه الطبعة الثانية ـ ١٩٦٧ ـ دار المعارف بمصر .

إذن كان منطق أرسطو متصلا باللغة اليونانية وقائما على خصائصها مع مخالفة هذا للمنطق الإسلامي ، وقد ردد ذلك أبو سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) في حواره مع متى بن يونس هذا الحوار الذي رواه ابو حيان في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » . وأصبح القياس الأصلي هو الحجة عند الشافعي وعلماء الأصول المسلمين ، الذين رفضوا الميتافيزيقيا اليونانية لأنها مخالفة لآلهيات المسلمين .

٧ ـ واذا كان هذا الخلاف بين المنطق الإسلامي ومنطق اليونان قد ظهر واضحا في الثقافة الإسلامية وعلومها ، فقد ظهر كذلك بشكل أوضح في الأدب وعلوم العربية .

فقد كان في المعتزلة وفي الفلاسفة المسلمين كتّاب وأدباء وشعراء أخذ منهم المنطق اليوناني مواطن الاعجاب في نفوسهم ، واحتل شغاف القبول من أفئدتهم وقلوبهم ، ووجدت طوائف أخرى من الكتاب والأدباء والشعراء صاروا حريصين على مطالعة الفلسفة والمنطق والافادة منهما ، كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي وغيرهما ، وأصبحت القصيدة العربية إما داخلة في عمود الشعر كقصيدة البحتري ومسلم وابن المعتز ، واما خارجة عن عمو الشعر العربي عند النقاد كقصيدة أبي تمام والمتنبي .

وحمل ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على فلسفة اليونان ومنطقها كما حمل عليها البحتري في شعره فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يُلْفَى عن صدقه كذبهْ
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببهْ

ويقول ابن قتيبة :

« لقد شغفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة طائفة من الكتاب ، وعرفت الكون والفساد والجوهر والعرض ، وأهملوا النظر في اللغة وما اليها ، فوضع لهم كتابه ذلك» .

والقياس الذي يشغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو أصبح ذا دخل كبير في كثير من العلوم .

فالقياس كما كان في الفلسفة صار في الفقه وفي اللغة وفي النحو ، ويقول بعض الباحثين : ان قول أرسطو « الزمان والمكان كالوعاء للأشياء أصل لتسمية النحويين المفعول فيه ظرفا أي وعاء » [1] . وأقسام البيان يذكرها الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كما ذكرها أرسطو من قبل [2] .

وقد ثار الجدل حول ما اذا كانت اصطلاحات البلاغة العربية التي ذكرها الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » قد اقتبسها من كتاب « الخطابة » لأرسطو الذي ترجم الى اللغة العربية في عصر الجاحظ ترجمات عدة أم لم يقتبسها منه .

وفي رأيي أن الجاحظ كان مبتكرا في كل ما وصل اليه من قواعد وأصول وضعها للبلاغة العربية في كتابه « البيان والتبيين » .

— ٣ —

٨ — ولقد جاء فريق من العلماء المسلمين واعتمدوا على المنهج التجريبي وحده في الحكم على الأشياء وتمييزها ، ومن بينهم جابر بن حيان (١٩٠ هـ) وابن الهيثم (٤٠٠هـ: ١٠٢٠م) الذي اعتمد على هذا المنطق الاستقرائي المنهج الذي سارت عليه الحضارة الأوربية الحديثة اليوم اعتمادا كبيرا في بحوثها وفي كشوفها واختراعاتها .

واعتمد ابن خلدون على المنهج التاريخي ، فكشف عن علم الاجتماع ، ووضع أصوله في كتابه « المقدمة » .

واعتمد علماء الحديث المنهج الاستردادي (التكويني) وأقاموه على أسس

(١) ٨٥ محاضرات جويدي .
(٢) ١ : ٧١ البيان ، ١ : ٣٣ ، ٤٤ الحيوان .

علمية دقيقة ، تعرف بعلم مصطلح الحديث : وطرق تحقيق الحديث رواية ودراية هي منهج البحث التاريخي الحديث اليوم ، الذي يتوصل به الى نقد النصوص نقدا داخليا ونقدا خارجيا .

وكل هذه المناهج عملت عملها في مقاومة المنطق القياسي أو الاستنباطي منطق أرسطو ومنهجه في التفكير .

٩ ــ وجاء فريق من الصوفية وأنكروا على المنطق الارسطاليسي منحاه واتجاهه في التفكير ، وهم الصوفيون الاشراقيون، وفي مقدمتهم السهروردي الذي قام بمحاولة منطقية جديدة لاختصار منطق اليونان .

وان كنا لا نستطيع أن ندخل نقدهم في المناهج التي تمثل نقد علماء المسلمين لمنطق أرسطو ، لأن الصوفية أنكرت العقل كأداة ، ولا يقبل العلماء والمسلمون وفلاسفتهم طرائق المعرفة لدى الصوفية ، ويرون أنها تجارب ذاتية لا تصلح قاعدة أو منهجا للحياة [١] .

وهكذا رفض العلماء والفلاسفة المسلمون في كبرياء منطق أرسطو لأنه يقوم على المنهج القياسي لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفكري والفلسفي ، ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانا في هذا المنهج ، وهي احدى ركائز الإسلام الكبرى ، فالمنهج التجريبي أو الاستقرائي هو المعبر عن روح الإسلام ، والإسلام هو تناسق بين النظر والعمل ، ويقيم نظرية فلسفية في الوجود ، ويرسم أيضا طريقا ناجحا للحياة العملية وهذا المنهج التجريبي الاستقرائي وضعه المسلمون بجميع عناصره ، وعبر من بلاد الشرق الى الأندلس ، فأوربا التي بنت حضارتها اليوم عليه .

يقول إقبال فيلسوف الإسلام وشاعره في العصر الحديث : إن آراء بيكون

---

(١) ٣٧٩ مناهج البحث عند مفكري الإسلام .
(٢) ٣٨٠ المرجع نفسه .

عن العالم أحدق وأوضح من آراء سابقيه .. ومن أين استمد بيكون في دراسته العلمية ؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس والمسلمون هم مصدرها هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي .

— ٤ —

١٠ — على أن الإمام الغزالي يعتبر المفكر الإسلامي الكبير الذي مزج المنطق اليوناني بعلوم المسلمين ، وكأن الغزالي يقول : ان من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلا .

وكان الغزالي موضع تقدير الامام ابن تيمية لأنه عرض مباديء الأخلاق الإسلامية وشرحها في جلال وكمال ، وان كان موضع نقده الشديد في بقية ما عرض له من علوم ، وابن تيمية غير راض عن طريقة الغزالي في الأصول ، لأنه خلطه بالمنطق والجدل ، واذا كان المنطق عند الغزالي تعصم مراعاته الذهن من الخطأ ، فهل معنى ذلك أن القدماء ممن كانوا قبل الغزالي لم يكونوا بمنجاة من الخطأ . ان جميع عقلاء بني آدم حرروا علومهم بدون المنطق اليوناني .

ممن هاجم الغزالي في نهجه كل من الإمام الطرطوشي (٥٢٠ هـ) والمازري، وابن الصلاح (٦٤٣ هـ)وابن تيمية (٧٢٨ هـ) والنواوي (٩٣١ هـ) .

١١ — وهنا نعرض للامام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية وموقفه العظيم من الدفاع عن الإسلام وعن المنهج الإسلامي القرآني العظيم في البرهان والاقناع .

لقد نقد الإمام ابن تيمية (الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ ٢٢ من يناير ١٢٦٣ م ، ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ : ٢٩ من أوغسطس ١٣٢٧ م) المنطق الأرسطي وهدمه هدما قوياً،فذهب الى أن من الخير للإسلام أن لا تستعمل في علومه هذه المصطلحات في الفلسفة والمنطق التي لم يعرفها السلف الصالح . وينكر الإمام ابن تيمية استطاعة الحد في المنطق الأرسطي الوصول الى كنه الشيء أو ماهيته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ،

أما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به ، فالحد عنده مجرد شرح للفظ ، وعلى ذلك سار جمع من مناطقة انجلترا . وكذلك نقد ابن تيمية القضايـا الأرسططاليسية ، وذهب الى التجربة والاستقرار وقياس التمثيل . ورأى أن القرآن — وهو كتاب الوجود عند المسلمين هو الذي يمدنا بصور الاستدلال ، أو هو الذي يقدم لنا الميزان ، ويقدم لنا الأقيسة البرهانية ، كقياس الأولى ، وقياس الآية أو العلامة .

وللإمام بن تيمية في نقد المنطق الكتب الآتية :

١ — الرد على المنطقيين طبع في بومباي عام ١٣٦٨ : ١٩٤٧ ، وهو كتاب قيم من عيون التراث الفكري الإسلامي .

٢ — كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، وقد طبع في القاهرة عام ١٣٢١ هـ .

٣ — منهاج السنة — طبع في القاهرة أيضا عام ١٣٢١ هـ.

٤ — نقض المنطق وقد نشره حامد الفقي في القاهرة .

٥ — مجموعة الرسائل الكبرى وقد طبعت في القاهرة — وفيها العديد من آرائه في المنطق .

هذا الى فتاوى ابن تيمية وهي مشهورة . ويتابع ابن تيمية في نقد المنطق الأرسطي تلميذه ابن القيم (٧٥١ هـ) والصنعـاني (٨٤٠ هـ) والسيوطي (٩١١ هـ) .

— ٥ —

١٢ — ومن هنا ندرك خطر المحاولة التي كانت تريد أن تفرض بالقوة أو بالاقناع منطق اليونان الأرسطي على الثقافة الإسلامية والعربية ، وندرك جهود علمائنا الأصلاء الأئمة في مقاومة هذا الخطر منذ العصور الأولى للاسلام حتى

العصر الحديث . ومن هنا كذلك ندرك مدى ما صنعه السكاكي حين أخذ جميع قضايا البلاغة العربية التي كشف عنها الامام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه : « أسرار البلاغة » في دلائل الاعجاز ، بذوقه العربي الاصيل ، فصاغها السكاكي في كتابيه المفتاح صياغة منطقية بعيدة عن الأصالة والذوق العربي السليم ، وندرك أخيرا خطر ما صنعه قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » من الرجوع الى أرسطو في كتابه « فن الشعر » والى ما قرره فيه من احكام نقدية .

— ٦ —

١٣ — ويجيء العصر الحديث ويأخذ الأدب الغربي يفرض نفسه على الأدب العربي في أخيلته ومعانيه وأغراضه وأجناسه ومذاهبه الأدبية .

ثم يشرع النقد الغربي للأدب الحديث ، ويأخذ النقاد العرب المعاصرون عن النقد الغربي الكثير من بحوثه وموضوعاته دون أصالة ودون تمييز وذكاء وفطنة كما فعل في آخر الشوط سهير القلماوي ومحمد غنيمي هلال .

ويفرض المستشرقون على الأدب العربي الحديث دراسة تاريخ آداب اللغة العربية دراسة تقوم على المنهج الذي وضعه لهذه الدراسة كارل بروكلمان في كتابه المشهور « تاريخ الأدب العربي [١] » وتقطع كليات اللغة والآداب في العالم العربي والجامعات العربية صلاتها بالمنهج العربي القديم في دراسة الأدب ، وهو منهج الجاحظ والمبرد وابن عبد ربه ، كما قطعت صلاتها بالمنهج العربي القديم في دراسات النقد ، وهو منهج أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين وابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة ، ومنهج الآمدي في كتابه

(١) وعلى هذا المنهج كتب أحمد أمين كتابيه : فجر الإسلام وضحى الإسلام .

« الموازنة » ، ومنهج القاضي الجرجاني في كتابه « الوساطة » ، ومنهج أبن رشيق في كتابه « العمدة » ، وابن الأثير في كتابه « المثل السائر » .

ويحاول المستشرقون أن يقولوا في كتبهم وعلى ألسنة دعاتهم في البلاد العربية للشباب العربي : ان علم التصوف الإسلامي أخذ من الافلاطونية الحديثة أو من المذاهب المسيحية ، وان علم البلاغة العربية أخذ من كتاب الخطابة لأرسطو ، وان علم الفقه الإسلامي أخذ من القانون الروماني الذي وضعه الامبراطور الروماني جوستنيان .

وهكذا يريدون أن يحطموا الكبرياء العربي ، وشخصية الثقافة الإسلامية الرفيعة ، ومعنويات الشباب العربي المسلم ، وأن يبعثوا في البلاد العربية شعورا عميقا بأن العالم الإسلامي مدين في القديم للثقافة اليونانية ، ومدين في الحديث للثقافات الغربية ، كما هو مدين للغرب اليوم في مجال العلوم والصناعات والكشوف الحديثة .

١٤ — ونحن ننادي في الشباب العربي المسلم بأن يرفضوا هذه الدعايات الغربية الممقوتة وبأن يرفضوا مناهج الغرب في دراسة العلوم العربية والإسلامية ، وأن يعود الى مناهج أسلافنا القدماء ، ففيها الأصالة والعمق والسمو والاحاطة والكبرياء والبقاء .

الفَصْلُ الخَامِسُ

الإسلام في قيادة الحضارة الإنسانية .

الإسلام في قيادة الحضارة الإنسانية

— ١ —

البشرية اليوم في حاجة « ملحة » الى قيادة جديدة ، الى قائد يعيد لها الامن والسلام الى الروح الملهمة التي تصنع لها النور والأمل والطمأنينة ، الى دين يهديها للحق والعدل ، ولعزة الإنسان وكرامته ، ولخير العالم وسعادته .

لقد أفلست الحضارات القائمة ، لأنها انتهت الى ابتكار وسائل تدمير نفسها بنفسها ، وهي تفكر اليوم في الوقت الذي تستخدم فيه هذه الوسائل المدمرة ، وتقف كتلتين متعارضتين مختلفتين فكرا وعقيدة ونظما واقتصادا ، تدبر كل منهما للأخرى أسباب الافناء وتحاول أن تضمن لنفسها وحدها أسلحة الغلبة والفوز في المعركة القادمة . وأفلست هذه الحضارات كذلك في حل أية مشكلة من مشكلات العلم والفكر والروح : فمن جانب العلم : نجد أن أبسط مسألة من مسائله : وهي التربية مثلا ، لم تجتمع فيها المذاهب على رأي ، فانقسمت الأمم على نفسها افكارا متعادية متعارضة ، في طرق التربية ونظمها ومناهجها ، وفقدنا في جميع مدارس التربية الحديثة حرية الطالب وارادته ، المنافسة العلمية البناءة والبواعث الروحية الحافزة على النبوغ والتجديد والابداع ، وانحط مستوى التكوين العقلي للطالب في جميع المستويات والمناهج ، يقول محمد إقبال : « ان نظام التعليم الحديث قد فشل في أداء رسالته ، وأخفق في تكوين جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادته العلمية ، وثروته الثقافية ، ويضع كل شيء في محله ، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة ، وبالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية ،

يعرف كل شيء الا نفسه ، ويسخر البخار والكهرباء والطاقة الذرية ولا يملك نفسه ، ويطير في الهواء ويسبح في البحار ولا يحسن أن يمشي على الأرض وما ذاك الا لأن التعليم قد اختل ميزانه وفسد مزاجه » .

ومن جانب الفكر : نجد أن أبسط مسألة من مسائله ، وهي الحرية ، قد اختلفت فيها الامم اختلافا شديدا ، فهناك مذهب حرية الفرد الكاملة التي انتهت الى الوجودية ، ومذهب حرية الدولة الكاملة التي انتهت الى النازية والفاشية والشيوعية ، ومذهب الحرية الوسط التي انتهت الى الرأسمالية والديمقراطية ، وهذه المذاهب لا يستقيم منها مذهب ، ولا تهتدي من خصوماتها المستمرة الى منهج سليم .

ومن الجانب الروحي : نجد أن الحضارة الماثلة قد أسرفت في تقديس المادة ، حتى انتهت الى مذاهب مادية قائمة ، تنادي بأن المادة هي كل شيء وهي الموجهة والمبدعة للانسان والحياة ووقفنا أمام الماركسية واللينينية والستالينية الالحادية ، التي تعد ارتكاسا لفطرة الإنسان وخلقته ، وانهيارا كاملا لجميع مقومات الحضارة وللمثل والقيم والمبادىء الشريفة .

فمن ذا الذي يقود العالم اليوم ؟

أهي المادية بافلاسها والحادها وتخريفها وطغيانها وضلالها ، وأمانيها الكاذبة للكادحين والفقراء ؟ كلا .

أهي الرأسمالية بإباحيتها ومجونها وعبثها وإيمانها بحرية الإنسان في أن يتدين أو لا يتدين ؟ كلا .

أهي اليهودية التي استحالت الى نهب وخداع ، وإيمان كاذب بأن اليهود شعب الله المختار ، وأن أموال العالم وحرمات الناس حل لهم من أي وجه ، ولو كان ذلك عن طريق المؤامرات والغدر والتزييف ، أو عن طريق الدسائس والمصارف المالية والقروض الدولية ، والتي جمعت كل اردية الغرور والكذب

والتعالي فلبستها ، وجحدت في نفسها كل اكاذيب الادعاء والانتحال ، فنسبت الى اينشتين اليهودي نظرية النسبية ، وليس له منها الا ما سرقه من بحوث العلماء ، كبلانك ، وهان الالماني وبرجليس الفرنسي ، ثم ادعى كل ذلك لنفسه ونسبت الى ماركس كل عبقرية ، والعبقرية منه براء، فقد سارت أفكاره الهدامة بالعالم الى المادية الجدلية والى ما هو اخطر منها .. أيمكن بعد ذلك أن تقود اليهودية العالم ؟ كلا .

لقد خلعت أوربا روح الحضارة ، وخلفتها وراءها ظهريا ، وسارت على نهجها كذلك دول العالم الجديد ، ولم تمنع القيم الدينية أوربا من ذبح سبعين ألفا من المسلمين في بيت المقدس في شعبان من عام ٤٩٢ هـ (يوليو ١٠٩٩) ، وكتبوا الى البابا يهنئونه بقولهم : ثق أنه في ايوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض في بحر من دماء الشرقيين [١] ولم تحل روح الحضارة كذلك بين اسبانيا وبين قتل وتشريد أكثر من ثلاثة ملايين من المسلمين بعد نكبة الأندلس وهذا تقدير الأوربيين أنفسهم ، ويمكن أن نقول إن عدد القتلى والمشردين أضعاف ذلك ، وبأمر رئيس الأساقفة الأسباني آنذاك وهو « اكزيمنيس » أحرق ثمانون ألف مخطوط عربي [٢] .

من الذي يحكم العالم اليوم ؟ أهي فلسفة القوة والاستعمار ، أم فلسفة المادية والالحاد ؟ أم فلسفة الوجودية والانحلال أم فلسفة أخرى لا نعرفها ؟ ولقد أعلنت الفلسفات المعاصرة في أوربا فشلها في علاج مشكلات الحياة ، فهي كصدفة لامعة خالية من اللؤلؤ ، لأنها بمعزل عن الحياة والكفاح ، وهي لا تزيد صاحبها الا بعدا عن صميم الحياة ، لأنها ليست الا حجابا للحقيقة .

قد تبهرنا الصواريخ ، وقد يؤثر على أعصابنا ما يقال عن الطاقات الذرية ،

---

(١) ٩٣ مواكب الحرية في مصر الإسلامية ، ويقدر غوستاف لوبون عدد القتلى بستين الفا (٣٢٦ ، ٣٢٧ حضارة العرب – ط القاهرة ١٩٥٦) .

(٢) ٢٧٤ حضارة العرب .

وما يشتق منها من قنابل ومدمرات ، ولكن أهذه هي الحضارة التي نريد أن تحكم العالم ؟ كلا .. انما هي أسباب لدماره وافنائه .

ان الاحتكام الى الأزرار الكهربائية التي تقذف بالحمم والصواريخ والذريات رجوع بالعالم الى شرائع الغاب ، والى ناموس الغلبة ، وسياسة المصارعة التي بقيت آثارها في مصارعة الثيران الوحشية في بعض الدول المتحضرة .

لا بد من قائد جديد يقود البشرية وسط الأعاصير الهوج ، والعواصف المردية ، الى شاطىء الأمن والسلام ، والى القيم والمثاليات الرفيعة ، التي فقد عالمنا اليوم الإيمان بها .

ولن يكون هذا القائد الا الإسلام ، ولن تنجح قيادة أخرى الا اذا كانت نابعة من فلسفته ومبادئه وقيمه العالية الحكيمة .

ونقول ذلك لا عن تعصب ولا غرورا ووهما ولا سوفسطائية وحلما وأمالا كاذبة .

انما هو الحق والصدق،هو الحقيقة وحدها ، وما عدا ذلك فهو كذب وزور ، وأضاليل وأوهام .. ان الواقع والتاريخ يؤيدان ذلك تأييداً مطلقا ، ويدلان دلالة صادقة على أن الإسلام وحده هو الدين القادر على قيادة الإنسانية وإسعادها ورفاهيتها ، وعلى السير بها إلى آفاق جديدة لم تبلغها من قبل ولا اليوم ، يقول إقبال : ان الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونشرت كنانتها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها وأن العالم الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة للفساد سوف ينهار قريبا ، ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ، ولكن واأسفاه ، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه الا من بنى للبشرية البيت الحرام . وورث ابراهيم ومحمدا — صلى الله عليه وسلم — قيادة العالم .

فللاسلام من تاريخه العظيم، وله من ماضيه الخالد في قيادة العالم وتوجيهه ، وله من مبادئه وقيمه ومثله وفلسفته ، له من كل ذلك براهين قوية لا تقبل الشك فيها ، على أنه هو القائد والرائد المنتظر للعالم ، وعلى أنه لن يصلح غيره تهذيب الحياة وتوجيهها ، وفي بناء الحضارة ودعم صروحها .

ولأبدأ بتاريخ الإسلام الحضاري ، ثم أعرض لماضيه في قيادة العالم ، ثم أرجع لمثالية الإسلام وفلسفته .

— ٢ —

ان تاريخ الإسلام الحضاري لا يمكن أن يكون محل شك من أحد ، انه واضح وضوح الشمس في ريعان النهار ، انه حق كما أن الإسلام الذي قام عليه حق .

ولقد بهر تاريخ الإسلام الحضاري العلماء والباحثين والمفكرين في أوربا ، وأخذوا — على الرغم من تعصبهم الديني ، ومحاولتهم تزييف الحقائق والتاريخ — يمجدون حضارة المسلمين وينوهون بها ، ويثنون عليها ، ويعلون من منزلتها بين الحضارات ، الى حد يثير الإعجاب ، ويدعو الى الفخر ، ويبعث على الكبرياء .

لقد صاح « بترارك » الشاعر الإيطالي من القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٣٤ — ١٣٧٤ م) ، حين رأى تفوق العرب في الميدان الحضاري والثقافي ، وعجز أوربا عن اللحاق بهم في هذا المضمار قائلا : « يا عجبا !! لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستين ، واستطاع فيرجيل (١٩ ق.م) أن يكون شاعرا بعد هوميروس ، فهل قدر علينا الا نؤلف بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب غالبا ، وسبقناها أحيانا ، الا العرب فما لعبقرية ايطالية النائمة الخامدة ؟ » .

ووقف فيكتور هوغو الشاعر الفرنسي الكبير في القرن التاسع عشر الميلادي

أمام حضارة العرب في الأندلس ، ممثلة في قصر الحمراء ، مبهورا مأخوذا ، ويدخل القصر ، فتمتلىء نفسه بروعته ، وجلاله وينشد قائلا : « أيتها الحمراء أيتها الحمراء أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام ، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان ، والمائلة الى الانهزام ، حيثما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية ، يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب » وهذا القصر الذي ملأت روعته نفس الشاعر الفرنسي الكبير ، لم يشاهده « هوغو » على الطبيعة ، انما شاهده ، وجدره المزخرفة ، ونقوشه النادرة ، قد غطيت بطبقة سميكة من الكلس ، بعد خروج العرب من الأندلس ، وذلك بأيدي الاسبان الملوثة بدماء العرب وحضارة الإسلام في بلادهم ، يقول غوستاف لوبون : « كل ما في قصر الحمراء عجيب وان المرء ليملكه العجب من جدرانه المزينة بالنقوش العربية الأنيقة ، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلية ، المطلية فيما مضى باللازورد والأرجوان والابريز ، ولقد قص جميع رجال الفن ، الذين زاروا قصر الحمراء العجيب ، والألم ملء قلوبهم ، ما لا يكاد العقل يصدقه ، من أنباء التخريب الفظيع ، الذي أحدثه الأسبان فيه ، حتى لقد عدته جميع الحكومات الأسبانية مجموعة من الخرائب القديمة ، التي لا تنفع لغير الاستفادة من موادها ، فبيعت الواح الميناء التي كانت تزين ردهات الحمراء لصنع الملاط ، وبيع باب مسجدها البرونزي كنحاس عتيق ، وحرقت منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة كما يحرق الحطب ، ثم اتخذ من ردهاتها الجميلة سجونا للمجرمين ، ومخازن للميرة ، بعد أن بيع ما أمكن نزعه منها ، وأراد الأسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة ، فكسوها بطبقات من الكلس ، وقيل للاسبان غيرمة : انهم يملكون بهذا القصر احدى عجائب الدنيا التي تجلب اليهم المسلمين من كل جانب ، فأزيل شيء من الكلس الذي سترت به تلك النقوش العربية .. هذا هو ما يقوله أوربي فرنسي عن أثر واحد من آثار حضارة

الإسلام في الأندلس ، ويستمر في كلامه ، فيقول : وأين غرناطة اليوم الكئيبة القذرة من غرناطة الامس الجميلة المتحضرة ؟

وعندما وقف محمد إقبال في مسجد قرطبة العظيم عام ١٩٣١ ، صلى فيه لأول مرة في التاريخ . بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعا غزارا ، وتذكر العرب المسلمين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو اليه حرمانه من سجود المؤمنين وكأن جو قرطبة يشكو اليه اقفاره من الأذان الإسلامي ، وظمأه اليه ، فنظم في ذلك قصيدة من أبدع قصائده .

ويقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » مبهورا بعظمة الحضارة الإسلامية ، وبماضي العرب الحضاري : الحق أن اتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء ارهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم ، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية الساحقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

ويقول مسيو ليبري : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون .

لقد كان العرب اذا ما استولوا على مدينة ، صرفوا جهدهم الى انشاء مسجد ، وإقامة مدرسة فيها ، واذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنهـا المدارس العشرون التي روى بنيامين الطليطلي (١١٧٣م) أنه شاهدها في الاسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وعلى كل ما يساعد على البحث العلمي .

ويصف المؤرخ العربي الكبير أبو الفداء في تاريخه عظمة الخلافة العباسية وحضارتها

التي بهر منها سفراء قيصر الروم عام ٣٠٥ هـ ، حين أقام الخليفة المقتدر بالله لهم حفلة استقبال في قصره ببغداد ، يقول أبو الفداء : قدم رسل ملك الروم إلى بغداد ، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر و صفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكان العسكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا ، ما بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان ذوو الزينة الباهرة والمناطق المحلاة ، ووقف الخدام كذلك ، وكانوا سبعة آلاف ، أربعة آلاف خادم أبيض ، وثلاثة آلاف خادم أسود ، ووقف الحجاب كذلك وهم حينئذ سبعمائة حاجب ، والقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر ، منها اثنا عشر الفا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب ، وكانت البسط اثنين وعشرين ألفا ، وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع ، وكان من جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة ، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه ، وأحضروا بين يدي المقتدر وصار الوزير يبلغ كلامهم الى الخليفة ، ويرد الجواب عن الخليفة .

ولقد سيطرت الحضارة العربية منذ اثني عشر قرنا على الأقطار الممتدة من شواطيء المحيط الاطلنطي الى المحيط الهندي ، ومن شواطىء البحر المتوسط إلى رمال أفريقيا الداخلية ، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة ، ويدينون بديانة واحدة ، ولهم لغة واحدة ونظم واحدة وفنون واحدة ، وكان تأثير لغة واحدة عظيما في الغرب ، وهو في الشرق أشد وأقوى ، فلم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ ، وانه لفرق كبير بين بناء الدولة وبين تأسيس حضارة ، ولقد انشأ العرب بسرعة حضارة جديدة لهم فأبدعوا من فورهم حضارة أفضل من جميع الحضارات التي كانت قبلها .

واذا قرأنا ما كتبه الغربيون عن « تاج محل » الأثر الإسلامي العظيم في الهند (١٠٤١ هـ –١٦٣١ م) راعنا وصفهم له ، يقول باحث أوربي ان كل

ما يمكن أن يجود به الفن من الكمال صبه في تاج محل الساحر الذي بناه شاهجهان ليكون ضريحا لزوجه ، ويعد من عجائب الدنيا ، وهو من المباني الإسلامية النادرة التي أفلتت من أيدي التخريب الانجليزية المنظمة ، وكان الحاكم الانجليزي لورد بنتنك قد اقترح هدمه وأن تنزع منه فضته ، وتباع قطعه في الأسواق ، ولقد هدم الانجليز أثرا رائعا من آثار الحضارة الإسلامية في الهند ، هو قصر المغول في دهلي ويسمى قلعة شاهجهان ، الذي شيده شاهجهان المسلم عام ١٠٥٨ هـ — ١٦٤٨ م ، وكان من أجمل القصور الإسلامية في بلاد الهند وفارس ، فهدموا جميع أجزائه ، واقاموا في مكانها ثكنات ، ولم يبقوا منه الا على بعض الردهات التي ضنوا على زخارفها وحلاها بالتجديد عند تحويلها الى اصطبلات ومراقد للجنود ، فطلوها بالجبس ، مما أثار سخط العالم بسبب مثل هذا العمل الهمجي ، الذي تحمر منه وجوه وحوش البرابرة خجلا ، وعظمة الآثار الإسلامية في دهلي معروفة ، حتى لكأن سحرة ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تبدع ما هو أروع منها .. وحين استولى المغول على بغداد عام ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م خربوها تماما ، وقضوا على آثار الحضارة العربية فيها ، ونهبوا كل ما فيها من الأموال بأمر هولاكو التتري ودمروا كل ما وصل إلى أيديهم ، وألقوا في نهر دجلة بجميع ما وصلت اليه أيديهم من مخطوطات نفيسة كانت ثروة علمية وحضارية فريدة ، في مكتبات بغداد العامة ، وتألف من هذه الكتب الملقاة في دجلة جسر كان كان يمكن للناس أن يعبروا عليه رجالا وركبانا ، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها ، ولكن أولئك الوحوش الضارية عادوا فخضعوا لسلطان حضارة المغلوبين ، ففي المدرسة العربية تمدن المغول ، واعتنقوا الإسلام وحضارته ، وأقاموا بعد ذلك في الهند دولة عربية قوية .

وقد أذاع بعض الأوربيين أن العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية القديمة بأمر عمر بن الخطاب ، ولكن المحققين من الباحثين من عرب ومستشرقين وفي مقدمتهم بتلر نفوا ذلك نفيا قاطعا ، وكذلك نفى هذه الخرافة جيبون

وغوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » ، وتاريخ العرب الفكري والثقافي والحضاري ينفي عنهم ذلك ، فقد كانوا منذ نشأ الإسلام حمالا للثقافة ورسل العلم ورواد المعرفة ، والمشجعين على البحث العلمي في كل مكان حلوا فيه ، والصحيح أن جزءا من المكتبة أحرقه يوليوس قيصر ، على أنه ليس مستبعدا أن تكون روما هي التي اغتصبت من هذه المكتبة أثمن كتبها ، كما أنه من الصعب أن نقول ان المكتبة لم تصب بأذى في عهد ضربة قاضية على مكتبة الاسكندرية ، ففي عام ٣٩١ م أصدر الأمبراطور الروماني أمرا بالقضاء على عبادة الأوثان في الاسكندرية ، ومن العسير أن نصدق أنه كان بالاسكندرية مكتبة كبيرة بعد أواخر القرن الرابع الميلادي .

لقد بلغ المسلمون قمة مجدهم الحضاري في ظلال الرشيد وابنه المأمون في بغداد والناصر وابنه الحكم في قرطبة ، والمعز وابنه العزيز الفاطمي في القاهرة ، وآثار المسلمين الحضارية في الهند وفارس والعراق ودمشق ، وفي كل مكان نزلوه ، لا تزال على الرغم من قدم العهد بها ، وعدم العناية بتجديدها ملء السمع والبصر .. ولفلاسفة الإسلام من مثل الكندي (٢٥٣هـ) والفارابي (٣٣٩ هـ) ، وابن سينا (٤٢٨ هـ) ، وابن رشد (٥٩٥ هـ) وابن طفيل (٥٨١ هـ) وغيرهم ، لهم مكانتهم الرفيعة في الفكر الإنساني ، واشتهر من العلماء المسلمين ابن الهيثم (٣٥٥ – ٤٣٠ هـ) الذي يصفه البيهقي بالحكيم ويعده بطليموس الثاني ، ويصفه مستشرق بأنه أعظم الرياضيين والطبيعيين في العصور الوسطى ، ويقول عنه مصطفى نظيف العالم المصري ، انه أنشأ علم الضوء الحديث كما هو الآن ويعده رضا مدور في مرتبة آينشتين .. ومن العلماء كذلك جابر بن حيان والرازي وغيرهم ، وقد نقل كتاب جابر بن حيان « الاستتمام » الذي هو من أهم كتبه الى اللغة الفرنسية عام ١٦٧٢ ، فدل هذا على نفوذه العلمي في أوربا مدة طويلة .

ولقد سبق العرب بيكون إلى التجربة ، وكانوا حائزين لهذا المنهج التجريبي

المجدي ، الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الكشوف ، وهو المنهج العلمي الحديث السائد الآن في جامعات أوربا ، وكان الغزالي وابن رشد وابن حزم أساتذة لبيكون في هذا المضمار .. ويقول « بريفليف » العلامة في كتابه « البحث العلمي » ان محاولة اسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست الا تصحيفا في فهم المصدر الحقيقي للحضارة الأوربية ، ولا يوجد جانب واحد في الحضارة الأوربية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة فيه ، وقد وصل العرب عن طريق منهجهم العلمي التجريبي الى كشوف مهمة ، وانجزوا في ثلاثة قرون من الاكتشافات ما يزيد كثيرا على ما حققه الاغريق وغيرهم في اطول بكثير من ذلك الزمن . ومنح إعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وابداعا ، ووصلوا الى اختراع البارود ، والمدفع والى أشياء كثيرة في كل علم وفن .

وكان تأثير العرب وحضارتهم في الغرب جليلا حتى ليقول غوستاف لوبون : ان اوربا مدينة للعرب بحضارتها ، وقد ظلت كتب العرب المترجمة الى اللغات الأوربية ، ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس في جامعات أوربا خمسة أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول : ان تأثير العرب في بعض العلوم — كعلم الطب مثلا — دام إلى أيامنا ، فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيليه في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في الجامعات الأوربية من أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في فرنسا عام ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي المسلم ، ولم يكن نفوذ العرب في جامعات ايطاليا بأقل منه في فرنسا ، فقد كان للعرب فيها شأن كالذي كان للاغريق واللاتين بعد عصر النهضة ، واقتبس الغرب أصول فن عمارته من العرب ، واستخدم الفرنسيون معماريين من العرب في انشاء كنيسة نوتردام الباريسية ، وهكذا كان المسلمون اساتذة للغرب في الفنون والآداب وفي الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والفيزياء والميكانيكا وفي العلوم الطبيعية والصناعية ،

وفي الأخلاق ، بل لم يتخلص النصارى من همجيتهم الا بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادىء فروسيتهم وما تؤدي اليه هذه المبادىء من التزامات كما يقولون ، فالعرب هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والفلسفية والأدبية ، فكانوا ممدنين للغرب وأئمة له في ستة قرون .. وعن طريق العرب في اسبانيا وصقلية وجنوبي إيطاليا اهتدى الغرب الى تراث الاغريق ، واكتشف ماضيه فأخذ ينقب عنه .

وقد كان ملوك النورمان في صقلية بعد أن اسقطوا الحكم الإسلامي فيها يحترمون العرب في هذه الجزيرة ، ويبسطون عليهم حمايتهم ،ويمنعون عنهم الاضطهاد بسبب إمامة العرب في الفنون والعلوم والصناعات ، حتى كان الرهبان في الجزيرة يعجبون بحذق العرب ويعزون اكتشافاتهم الى السحر .

ولما زار الشاعر إقبال جزيرة صقلية سكب دموعه على اطلالها العربية ، وقال قصيدة افتتحها ببيت يقول فيه : « ابك أيها الرجل دما ، لا دمعا ، فهذا هو مدفن الحضارة العربية » . وزار الامام محمد عبده أيضا الجزيرة ، وشاهد حضارة العرب فيها ، ووصف مقبرة مسيني المشهورة فيها .

— ٣ —

وعندما نتحدث عن ماضي الإسلام في قيادة العالم ، لا نتحدث الا عن واقع معروف ، وعن تاريخ مسطور ، ولا يمكن أن يتهمنا في ذلك أحد بالغلو أو بالخيال .

في مكة المكرمة ، وبعد البعثة المحمدية ، ومن فوق جبل أبي قبيس منذ نحو أربعة عشر قرنا ، ردد الكون صيحة البعث ، ونداء الحياة ، وأذان الفجر ، ونشيد الحرية ووقف محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يخطب قريشا : ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت

الناس ما غررتكم ، والله الذي لا اله الا هو ، اني لرسول الله إليكم حقا ، وإلى الناس كافة .

ولما لجوا في العناد والكفر ، وقف فيهم خطيبا يقول : ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، فان تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوا عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم وهو خير الحاكمين.

وخرج الى سوق عكاظ فوقف في العامريين يقول لهم : اني رسول الله اليكم والى الناس كافة ، وذهب الى الطائف يبلغ ثقيفا دعوة الله والحق والهدى والنور ، ووقف على حجاج بيت الله في كل موسم يدعوهم الى الإسلام ، ومشى معه أبو بكر وعلي ، حتى انتهى الى مجلس عليه السكينة والوقار ، واذا مشايخ من شيبان لهم أقدار وهيئات فجلس وجلس علي ، وقام أبو بكر يظلل رسول الله بثوبه ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ادعوكم الى شهادة أن لا اله الاالله وحده لا شريك له واني رسول الله ، وأن تؤووني وتنصروني ، حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستعانت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد .

ولم يترك الرسول مكانا ولا قوما ولا جمعا الا قصدهم يبلغهم رسالة ربه ، وكذبوه وآذوه هو ومن اتبعه ، وانتهى الأمر بعد نضال مرير دام ثلاثة عشر عاما بالهجرة من مكة الى المدينة ، وخرج رسول الله ومعه أبو بكر من مكة في اليوم الرابع من شهر ربيع الأول (٢٠ من يونيو ٦٢٢ م) قاصدين المدينة ، وتبعتهما قريش ، وخرجت في أثرهما باحثة عنهما جماعات ، ثم عادوا الا سراقة بن مالك الكناني . ولما رأى سراقة ما رأى من تأييد الله لرسوله هتف قائلا : أنظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم بشيء ولا يأتيكم مني شيء

تكرهونه ، أنا سراقة ، ووقف رسول الله وصاحبه وأخذ يتحدث اليهما ، وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا ، وقالا له : أكتم عن الناس خبرنا ، ويلتفت الرسول الأعظم الى سراقة قائلا : كيف بك يا سراقة اذا لبست سواري كسرى وتاجه ومنطقته ؟ ثم يسكت ويسكت سراقة متعجبا مشدوها متحيرا مما يسمع ويرى . ووصل ركب رسول الله الى المدينة . في الثاني عشر من ربيع الأول(٢٨ يونيو ٦٢٢ م) ، فاستقبل فيها استقبال الأبطال الفاتحين ، وفي أول جمعة للنبي صلوات الله عليه بالمدينة ، خطب بالمسلمين : أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، وقد علمكم الله كتابه ، وانهج لكم سبيله ، فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة » ، وآخى رسول الله بين الأنصار والمهاجرين ، وأسس المسجد النبوي في المدينة مكانا للعبادة وجامعة إسلامية كبرى تنشر العلم والمعرفة والدين في العالم كافة .. وتمضي الأيام ، وينتصر الإسلام ، وتفتح مكة ، ويقف رسول الله خطيبا في الناس يردد : لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

. وبعد قليل استقبل الرسول الأعظم في المدينة وفود العرب ، وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ولم يقف رسول الله ساكنا ولا طالبا للراحة ، بل كتب كتبه ، وبعث برسائله الى أمراء العرب كافة ، والى اقوى ملوك الأرض عامة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، لأن رسالته صلى الله عليه وسلم عامة ، وهي خاتمة الرسالات ، ولا يكتب لأحد النجاة الا إذا آمن بها : كتب إلى هرقل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وكتب إلى كسرى امبراطور فارس : « أدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسول الله إلى

الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، ووصلت هذه الرسالة الجليلة الى كسرى حين كان السفراء يوقعون معاهدة السلام بين كسرى وهرقل ، وعندما القي كتاب محمد بين يدي كسرى ، ورأى فيه اسم محمد قبل اسمه ، وهو ملك الملوك ، غضب ، ومزق الكتاب ، وقال : يكاتبني بهذا وهو عبدي ، ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : مزق الله ملكه كما مزق كتابي ، وكتب كسرى لعامله باليمن : أن ابعث الى هذا الرجل الذي يزعم في الحجاز بأنه نبي ، ولكن ابن كسرى ثار على أبيه وقتله ، قبل أن ينفذ عامله على اليمن ما كلفه به عاهل فارس ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك إلى النجاشي : اني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، اني ادعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وكتب الى المقوقس ملك مصر يدعوه الى الله وتوحيده والى رسالة الإسلام الحقة ، ويقول له . سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤ تك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم كل القبط .

وهكذا ، وفي أحرج الأزمات بلغ محمد صلى الله عليه وسلم رسالة الله الى الناس كافة ، ودعا المشركين وأهل الكتاب الى الإيمان بالإسلام والقرآن . وقبل وفاته خطب المسلمين في أيام التشريق خطبة الوداع المشهورة ، وفيها يقول : ان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ، ولكن في التحريش بينكم .

ومات رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتولى بعده أمور المسلمين أبو بكر ثم عمر ، وهزم الروم في اليرموك هزيمة ساحقة (١٣ هـ ـ ٦٣٤ م) ، وتوالت هزائمهم ، فصاروا يرتعدون خوفا حينما يذكر الإسلام وخليفة المسلمين عمر ، وفتحت القدس ، وأمن الخليفة عمر الناس على أموالهم ودينهم ، وكذلك فتحت مدن الشام ، وطرد منها الروم . وفي عنف المعركة أسر الروم قائدا عربيا ، فبعث عمر بن الخطاب الى هرقل في سوريا يطالبه باطلاق القائد العربي ، ويقول له :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله ، من عبد الله عمر بن الخطاب الى هرقل ملك الروم ، اطلقوا الأسير المسلم ، عبد الله بن حذافة ، حين وصول كتابي هذا اليكم ، فان فعلتم رجوت الله أن يهديكم الصراط المستقيم ، وان لم تفعلوا ، فانني أبعث اليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد في سبيل الله » ، وارتعد هرقل خوفا حين قرأ الكتاب ، وأطلق سراح الأسير ، وبعث معه هدية ثمينة الى عمر .. وفقد الروم السيادة على الشام ، وأكره القيصر على مغادرة سوريا إلى الأبد بعد أن حكمها أسلافه سبعة قرون ، غادرها والدموع في عينيه ، وهو يقول : سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده .

وجاءت معركة القادسية (١٣ هـ – ٦٣٥ م) . وهزم فيها الفرس . وقتل قائد الجيش الفارسي رستم فيها ، واستولى المسلمون على العلم الفارسي الأكبر ثم سقطت المدائن عاصمة الفرس ، وتوالت هزائم كسرى في كل مكان ، وأسر الهرمزان ، وأرسل الى المدينة ، ولبس كسوة من الديباج المذهب ، ولبس تاجه المكلل بالياقوت ، ليراه عمر والمسلمون ، وبحثوا عن الخليفة عمر فوجدوه نائما في المسجد ودرته في يده ، وليس بجواره حرس ولا حجاب ولا كتاب ، فصاح الهرمزان : ينبغي أن يكون هذا نبيا ، فرد عليه المسلمون : انه ليس بنبي بل يعمل بعمل الأنبياء ، واستيقظ عمر فاستوى جالسا ، ثم نظر الى الهرمزان ، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام أعداءه ، وأمر بنزع ما عليه ، فنزع ولبس ثوبا ، فقال له عمر : يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ، قال : انما غلبتمونا بالإسلام ، وكان المغيرة بن شعبة هو الذي يترجم بينه وبين عمر ، وكان يعرف الفارسية ، وأسلم الهرمزان ، ولكنه لم ينس وطنه فدبر مؤامرة اغتيال عمر بيدي أبي لؤلؤة الفارسي فيما بعد .

واستمرت الفتوحات ، ودارت معركة « نهاوند » عام (٢١ هـ – ٦٤٣م)

وهزم فيها كسرى ، وسحق الجيش الفارسي وجمع يزدجرد أمواله وخزائنه فرارا لأن يذهب بها الى ملك الصين أو خاقان ملك الترك ، فقال له وجوه قومه : ان هذا رأي سوء ، ارجع بنا الى المسلمين فنصالحهم ، فانهم أوفياء وأهل دين ، فأبى عليهم ذلك ، فقالوا له : دع خزائننا نردها الى بلادنا ، فأبى فأخذوها منه عنوة ، وانهزم يزدجرد ، وظل يكتب الى شعبه يحرضهم على الثورة ، حتى قتله عام(٣١ هـ- ٦٥٢م) جماعة من الترك طمعا في الاستيلاء على ملابسه الفاخرة . وفي أثناء فتح فارس شاهد المسلمون فرسا محملا بذخائر كسرى : حليته ووشاحه ودرعه المحلاة بالجواهر ، فأخذوها ثم شاهدوا فرسين آخرين يحملان حقائب كسرى وفيها تاجه وثيابه المصنوعة من الديباج المنسوجة بالذهب المنظوم بالجوهر فأخذوها ، كما استولوا على درع كسرى ومعها درع هرقل ودرع ملك الهند ودرع خاقان ملك الترك وقسمت الغنائم بين المسلمين ، وحمل تاج كسرى وجواهره الى عمر في المدينة ولما شاهدها قال : ان قوما أدوا هذا لذوو أمانة ، فقال له علي : عففت فعفت الرعية ، ودعا عمر سراقة الكناني ، فدخل عليه ، واستدناه منه ، وألبسه سواري كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلب السوارين كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس ، والبسهما سراقة رجلا اعرابيا من مدلج ، ورفع عمر صوته ينادي الناس ، ثم أركب سراقة وطيف به في المدينة والناس من حوله يحتفون بسراقة ، ويحتفلون بهزيمة كسرى ، ويتعجبون لمعجزة نبوية رفيعة ، ويصدقون كلام رسول الله حين قال وهو مهاجر لسراقة : كيف بك يا سراقة اذا لبست سواري كسرى ومنطقته وتاجه ؟ ويمضي الموكب في المدينة جليلا رائعا خالدا تشهده الإنسانية ، وهي تبتسم ابتسام الجد والفرح بسقوط معقل حصين من معاقل الوثنية والطغيان وبسطوع شمس الرسالة المحمدية في

كل الآفاق .. حدث ذلك كله مع أن العرب كانوا يجهلون فن الحرب وتنظيم الجيوش جهلا تاماً ، وعلى العكس الفرس والروم اللذان كانت معرفتهما بفن الحرب عظيمة جداً ودخلت فارس في الاسلام وظلت حتى اليوم مرتبطة بالاسلام . تأثرت بدين العرب ونظمهم ، وشاعت العربية بينهم ، وأسس العرب البصرة والكوفة ، ثم بغداد (١٤٥ هـ – ٧٦٣ م) التي صارت أعظم معقل اسلامي من معاقل الحضارة والمدنية .

وفتح العرب مصر والشمال الإفريقي والأندلس وأسست مدينة الفسطاط عام ٢١ هـ – ٦٤١ م فصارت عاصمة مصر الإسلامية بعد الاسكندرية ، وبنى عمرو في الفسطاط جامعه الكبير الذي صار جامعة كبرى بعد قليل ، وصارت الفسطاط عاصمة مصر الأدبية والثقافية والفكرية وفيها من المدارس وحلقات العلم ما لا يحصى كثرة ، وكان جامع عمرو مثابة للعلماء ومباءة للتدريس وعلوم الإسلام من عهد الصحابة والتابعين ويتصدر حلقاته امثال : الليث بن سعد ، والشافعي ، والبويطي وسواهم ، وكانت مكتبة هذه المدينة حافلة بمئات الألوف من الكتب الإسلامية المخطوطة . وفي جامع عمرو درس أبو تمام الشاعر العربي الكبير ، وكان للمتنبي حلقة أدبية فيه .. وبتأثير الحضارة الإسلامية في مصر نمت الفنون وازدهرت الآداب ، ولم يكن العرب حين فتحوها كما يقول غوستاف لوبون من رجال الفن المتضلعين ولكن ما فطروا عليه من الذوق الفني العالي حفزهم الى ابتداع طراز عمارة جديدة من عناصر الفن البيزنطي ، بعكس الترك الذين لم يكونوا أهلا للانتفاع بمواهب اساتذة الفن ، والذين لم يروا – حين أرادوا بعد فتح القاهرة انشاء جامع فيها – غير نسخ عمارة ايا صوفيا الثقيلة وكانت كنيسة بيزنطية ، والتي هي عنوان مرحلة فنية جاوزها العرب منذ زمن طويل فعند تلك المرحلة ، وقف الترك ولم يستطيعوا قطعها .

وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ومسجدها الكبير عام ٥٠ هـ – ٦٧٥م ،

وسار حتى وصل المحيط الاطلنطي وخاض بفرسه فيه وهو يقول : والله لو أعلم أن وراء هذا البحر بلادا أخرى لخضته اليها في سبيل الله ، وأنشأ المسلمون كذلك مدينتي تونس وفاس ، وأصبحت فاس بعد قليل عاصمة كبيرة من عواصم الإسلام ، وصارت تنافس بغداد ازدهارا ومدنية ، وغزا العرب جزر البحر الأبيض ، ونشروا فيها الإسلام واللغة العربية ، وبعد أن فتح موسى بن نصير اسبانية فكر في العودة إلى دمشق من بلاد فرنسا والمانيا ، وفي الاستيلاء على بيزنطة (القسطنطينية) ، وفي اخضاع العالم القديم للإسلام والقرآن ، ولكن لم يعقه عن هذا العمل العظيم سوى أمر الخليفة له بأن يعود الى دمشق ، ولو وفق موسى بن نصير الى ذلك لجعل أوربا مسلمة ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولانقذ أوربا من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه اسبانيا بفضل العرب .

وصارت قرطبة عاصمة الأندلس في ظلال الحكم الإسلامي تعادل أكبر عواصم دول أوربا العظمى الحديثة ويسكنها مليون من الأنفس ، فأين منها اليوم قرطبة التي أصبحت مدينة التأخر ، وليس بها نحو خمسين ألف نسمة ، وجعل المسلمون اسبانيا ماديا وثقافيا وحضاريا على رأس الممالك الأوروبية ، وقد وضع أول ملك من ملوك بني عباد في اشبيلية في القرن الخامس الهجري لشعبه حكومة نيابية على أحدث النظم العالمية الحديثة ، وعلم المسلمون في الأندلس الشعوب النصرانية التسامح الذي هو أثمن صفات الانسان ، وسمحوا للأساقفة بعقد مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر اشبيلية المسيحي (١٦٥ هـ – ٧٨٢م) ، ومؤتمر قرطبة المسيحي (٣٣٧ هـ – ٨٥٢ م) وسمحوا كذلك للنصارى ببناء الكنائس في المدن الاسبانية .. وأين هذا مما حدث للعرب بعد نكبة الاندلس (٨٩٧ هـ – ١٤٩٢ م) حيث قتل وشرد الاسبان المسيحيون المتعصبون اكثر من ثلاثة ملايين عربي على الأقل ، فخبت الى الأبد شعلة الحضارة التي كانت تنير من عواصم الأندلس الإسلامية أوربا كلها طيلة ثمانية قرون ، وعمد

الاسبان الى الآثار الإسلامية الرائعة فهدموها أو خربوها أو كلسوها ، كلسوا زخارف جامع قرطبة ونقوشه ولم يفلت من تخريبهم فيه الا محرابه . ولم يبق من مدن ولاية شلمنقة : المائة والخمس والعشرين مدينة التي كانت موجودة أيام الحكم العربي للأندلس سوى ثلاث عشرة مدينة صغيرة اليوم . ويقول نيتشه : « حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الأندلس العربية ، ولماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، ان تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة ، بل اجابتها بالايجاب ، وفتحت لها صدرها ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ، وما مدنيتنا في هذا القرن التاسع عشر الا قصيرة وانية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت » .

واستولى المسلمون بالتدريج على نصف فرنسا الحاضرة ، وكانت معركة بواتييه بين المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وبين المسيحية بقيادة شارل مارتل من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ أوربا ، ومع هزيمة المسلمين وقتل الغافقي فيها عام (١١٤ هـ — ٧٣٢ م) فان مارتل لم يستطع أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها ، وأقام العرب بفرنسا قرنين كاملين وأوغلوا في سويسرا عام ٩٣٥ م ويقول غوستاف لوبون : انه لو انتصر العرب على « شارل مارتل » لأصاب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب اسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي محمد ، ويقول كلود فارير الفرنسي الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس : حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نزلت بالانسانية في القرون الوسطى وكان من نتائجها ان غمر العالم مدة ثمانية قرون طبقة عميقة من التوحش ، لم تبدأ بالتبدد الا على عهد النهضة ، هذه الفاجعة هي الانتصار البغيض الذي ناله أولئك البرابرة من الافرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين تحت لواء الغافقي ، ففي ذلك اليوم المشؤوم ، تقهقرت المدنية الى الوراء ثمانية قرون ، ويكفي المرء أن يطوف بين آثار مدن الأندلس في اشبيلية وغرناطة وطليطلة وقرطبة ليشاهد والألم

آخذ منه ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو انقذه..ا الإسلام العمراني الفلسفي ، المتسامح . وفي عام ٢١٧ ه فتح العرب صقلية ، وتقدموا فاستولوا على جنوبي ايطاليا ، وبلغوا في تقدمهم ضواحي رومة ، ولم يرجعوا عنها الا بعد أن وعدهم ، « البابا يوحنا الثامن » بدفع جزية اليهم وصاروا سادة البحر الأبيض ولما طرد المسلمون من صقلية المسيحية عام ٤٦٤ ه – ١٠٧٢ م بأيدي فرسان النورمان النصارى أمعن هؤلاء الفرسان في العدوان على أهلها ، ولم يلبث أهالي الجزيرة أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان لهم أشد عبئاً عليهم من عداوة العرب حتى اضطر البابا ليون التاسع الى حرب النورمان فأسروه وصاروا يدخلون الأديرة ويذبحون رهبانها ويسلبون ما فيها من الأموال ، وحين فتح النورمان صقلية كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة فيها ، وقلد ملوكهم المسلمين في نظمهم وشملوهم برعايتهم ، وتمتعت صقلية برخاء عظيم حتى أجلى بعض ملوكها العرب عنها فعادت الى الخراب والدمار ، ومن أعلام المسلمين الذين نشأوا في هذه الجزيرة ابن حمديس الشاعر الكبير (٤٤٧ – ٥٢٧ ه) وجوهر الصقلي ، وابن القطاع اللغوي والشريف الادريسي الجغرافي ، وغيرهم .

كان سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩ م) وابنه المأمون أقصى ما انتهى اليه سلطان المسلمين في الشرق فقد كانت الصين حد دولة العرب في آسيا ، ودحروا قبائل افريقية المتوحشة الى حدود الحبشة ودحروا الروم إلى البوسفور ، ولم يقفوا في الغرب الا عند المحيط الاطلنطي ، وأقاموا دولة كانت أكثر دول الأرض هيمنة وتمدنا ، وكان للمسلمين جالية « إسلامية » في الصين ، وجالية من التجار في كوريا . وفي عام (٣٠٩ ه – ٩٢١ م) حدث اتصال سياسي بين الخليفة العباسي المقتدر بالله وبين ملك أهل الفولغا ، وفي العام التالي أسلم هذا الملك ، وأسلم أهل بلاده . وفي عام ١٠٠٠ أكمل الغزنويون فتح بلاد الهند ، وأعلنوا أنهم دعاة لدين الإسلام وحضارته ، وخضعت الهند للمرة الأولى في تاريخها منذ زمن الاسكندر للفاتحين المسلمين ،

ودام سلطان الغزنويين فيها الى عام ١١٨٦ م ، أي قريبا من مائتي عام ، وخلفتهم فيها دولة الغوريين ، ثم توالت عليها دول إسلامية كبيرة ، آخرها دولة المغول التي قضى المستعمرون الانجليز عليها عام ١٨٥٧ م وحدثت بذلك نكبة كبرى شبيهة بما حدث للأندلس من قبل .

وقد حافظ الفاطميون والأيوبيون والمماليك (٦٥٦ — ٩٢٣ هـ : ١٢٥٨ — ١٥١٧ م) في مصر على التراث الإسلامي وعلى حضارة الإسلام ، ولا ننسى جهود الأيوبيين وبطولاتهم في الحروب الصليبية ، وقد انتصر صلاح الدين على الصليبيين في حطين انتصارا خالدا (السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٣٨ هـ — ٥ يوليو ١١٨٧م) ، وفتح جيش صلاح الدين بيت المقدس وحررها من جور الصليبيين بعد ذلك بقليل (الجمعة ٢٧ رجب ٥٣٨ هـ — ٢ سبتمبر ١١٨٧ م)، بعد أن حكمها الصليبيون واحدا وتسعين عاما ، وصفى صلاح الدين القواعد الصليبية في فلسطين ولم يبق لهم الا شريط صغير على سواحل الشام ، ظلوا يحكمونه مائة عام أخرى ، حتى نهض سلطان مصر الأشرف خليل (عام ٦٩٠ هـ — ١٢٩١ م) ففتح عكا وباقي المدن الساحلية وطهر أرض فلسطين من الاستعمار الصليبي المدمر ، وكذلك قضى المماليك على الغزو المغولي للشرق العربي وهزموا المغول في عين جالوت (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ — ٤ سبتمبر ١٢٦٠ م) هزيمة ساحقة ، وحرروا الشام من اسار الاستعمار الصليبي .

كما لا ننسى ما قدمه الخلفاء العثمانيون من جليل الخدمات للإسلام ، فقد ورثوا العرب في حكم العالم الإسلامي بعد فتحهم لمصر عام (٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م) ، وحملوا لواء الزعامة السياسية والدينية للمسلمين أربعة قرون (١٥١٧ — ١٩١٧ م) ، وعلى أيديهم امتد الإسلام وانتشر نوره في كل مكان في أوربا ، وفتح محمد الفاتح مدينة القسطنطينية في ٣٠ مايو ١٤٥٣ م — ٨٥٦ هـ ، ودخلها من باب القديس رومانوس ممتطيا صهوة جواده في موكب ضخم ، وسار الى كنيسة سانت صوفيا ، فأذن من فوق قبابها للصلاة ، وصارت مسجدا جامعا من أعظم مساجد الإسلام ، وساد الذعر أوربا ،

وقتل الأمبراطور قسطنطين ، وحاول « البابا بيوس الثاني » أن يجمع شمل أوربا لقتال المسلمين وطردهم من المدينة ولكنه فشل في ذلك فشلا ذريعا .. واستمر الأتراك في حمل رسالة الإسلام ونشره ، وكانت معركتهم الفاصلة مع الغرب حين ارتدوا عام١٨٦٣م منهزمين بعد وقفتهم الطويلة أمام أسوار فيينا .

ولا ننس فضل التجار العرب الذين كانوا يسافرون من حضرموت الى شرق أفريقيا ووسطها وجنوبها فينشرون الإسلام واللغة العربية أينما يحلون ، وقد كونوا ممالك اسلامية في مدغشقر وجزائر القمر وزنجبار ودخلوا افريقيا ، وكونوا سلطنة كبيرة فيها عرفت بسلطنة رابح وتتحدث عنها دائرة المعارف الفرنسية كثيرا ، كما هاجر الحضارمة الى كالديف وسرنديب وجاوة وسومطرة والفيلبين وانتشروا في جزر المحيط الهادي حتى استراليا ، ونشروا الإسلام في كل موضع نزلوا فيه .

ومع ما أصاب الإسلام في العصور الوسطى من نكبات كبرى ، ومن بينها : احراق الفاطميين مرتين لمدينة الفسطاط العامرة قضاء على ثوراتها ضدهم ، وكان الحريق الأكبر هو الحريق الثاني الذي حدث في المحرم (٥٦٤ هـ — ١٥ اكتوبر ١١٦٨ م) فدمر مساجدها وجامعاتها ومدارسها ومكتباتها وكل ما كان فيها من مخطوطات ، ثم سقوط بغداد في أيدي التتار عام (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) ، والحرب الصليبية التي كانت عبئاً ثقيلاً على الإسلام والمسلمين ، ثم الغزو المغولي للشرق العربي وسقــوط الأندلس (٨٩٧ هـ — ١٤٩٢ م) ، ثم اكتشاف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ م بارشاد ابن ماجد الربان العربي البحري وتحول التجارة العالمية مع الهند الى هذا الطريق بعد أن كانت تمر بمصر وتدفع لملوكها الضرائب المجزية أجرا لذلك ، ثم هزيمة الوحدات البحرية العربية أمام سفن البرتغال وتحطيم أساطيل العرب التجارية في المحيط الهندي ، ثم الغزو التركي لمصر والشام والعالم الإسلامي .. مع ذلك كله فإن الإسلام ظل شامخاً ، وراية القرآن

بقيت مرفرفة في شتى الآفاق ، وقد جددت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين والمماليك على المغول وفتح الأتراك للقسطنطينية ، جددت كل هذه البطولات الأمل والتفاؤل في نفوس المسلمين عامة في كل مكان .

لقد بقي الإسلام يقود العالم منذ البعثة النبوية حتى الغزو الاستعماري للشرق العربي في القرن التاسع عشر ، وكان الإسلام ينتشر في كل مكان من افريقيا وآسيا وأوربا حتى أن المغول المخربين الوثنيين بعد أن دمروا العالم الإسلامي عاد ملكهم غازان خان يعلن في الرابع من شعبان عام (٦٩٤ هـ – التاسع عشر من يونيو ١٢٩٥ م) اعتناقه هو وشعبه للاسلام ، ولم ينتشر القرآن على هذا النحو بقوة السيف ، انما انتشر بمبادئه وحدها ، وعلى أيدي الدعاة المجردين من كل نفوذ وسلطان ومال ، فبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التي قهرت العرب من قبل ومن بعد ، كالفرس والترك والمغول ، وبلغ الإسلام من الانتشار في الهند – التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل – ما زاد معه عدد المسلمين فيها على مائة مليون .. ومع أن مصر كانت من أصعب اقطار العالم اذعانا للمؤثرات الأجنبية ، فانها قد نسيت في أقل من قرن واحد مر على الفتح الإسلامي لها ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف عام ، واعتنقت دينا جديدا ، ولغة جديدة ، وحضارة جديدة ، اعتناقا متينا دام حتى اليوم ، وبعد أن توارت الأمة التي حملتها عليه . وما وفق المسلمون له من التأثير البالغ فيها ، اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم في افريقيا وآسيا كسوريا والفرس مثلا ، وبلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يزوروها الا عابري سبيل ، وبلاد الصين التي لم يزوروها الا تجارا .

هذا هو ماضي الإسلام في قيادة الإنسانية ، ماض كله فخار ومجد وعظمة ، وذكريات جليلة ورصيد ضخم من البطولات ، لا يوجد مثله لأية أمة من أمم العالم ، وتراث عظيم خلفه لنا أسلافنا الأولون ، وليتنا نتدبر ما فيه من عظات ، وما يحتويه من جلائل الأعمال وخالد الذكريات والصفحات .

ما سر ذلك كله ، وما سببه ؟
ما عوامله ، وما بواعثه ؟
السر هو مثالية الإسلام وفلسفته .

هو أنه الدين الحق المنزل من السماء ، هو أنه خاتم الرسالات ، وشريعة الله الى الناس كافة ، هو ما يحتوي عليه كتابه الحكيم من شتى مقومات الحضارة، وأصول المدنية والعمران .

هو عقائده السامية ، ومبادئه العالية .. التوحيد المطلق ، والإيمان الكامل ، والعدل والاحسان ، وما يأمر به ويلزم المسلم إياه ، من الآداب الرفيعة ، والأخلاق النبيلة ، والإنسانية المهذبة ، والمثالية الجليلة .

إن الإسلام أعظم حظوظ البشر في الأولى والعقبى ، أي والله انه — كما قال الرسول الأكرم — حظ الدنيا والآخرة .

انه شريعة الله والحق والهدى ، وسماه الله عز وجل دين القيمة ووصفه تعالى في الآية الكريمة بأنه ملة ابراهيم حنيفا ، فقال : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

دين وضع أصولا خالدة لاصلاح جميع مجالات الحياة ، ونواحي النشاط الانساني ، وساوى بين الاجناس والعناصر والألوان ، ودعا إلى أخوة بشرية عامة ، لا تفاضل فيها لأحد على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح ، والى العدالة والشورى والاخاء والرحمة والمحبة بين الناس .

نادى بالحرية لكل الأفراد ، وكل الجماعات والشعوب ، حل جميع العصبيات وأبطلها ، وكل المشكلات وأزالها ، هذب المشاعر والعواطف وسما بها ، جمل الحياة أمام الناس وجعلها تعاونا ومشاركة وتبادلا للمنافع والخبرات، ومد في الأمل فيها بما حث عليه من السعي في مناكبها ، ومن الصبر على بلوائها ، ومن الثقة برحمة الله وفضله .

عزز الشعور بالمسؤولية ، وغرس في كل نفس الايمان بالقيم وأعز الانسان وكرمه في الكون ، وجعله خليفة له في الأرض ، وأمر الملائكة بالسجود له ، ودعا إلى أعظم عقيدة روحية ظهرت على وجه الأرض ، وربط الانسان بالله لبعث العزة والطموح والأمل في نفسه ، وحمله المسؤولية ، المسؤولية تجاه الحياة والحضارة والتقدم والرفاهية لجميع الناس ، لجميع البشر .

ومن قباب مسجد قباء الذي أسس على التقوى ، انبعثت أعظم دعوة ، وأكرم فلسفة ، تدعو الى الله والحق والى سواء السبيل ، فلسفة لم تكن الانسانية تعرفها ، ولم يكن للحياة عهد بها من قبل ، فلسفة القوة والسلام والاخاء .

القوة التي تحارب الضعف في جميع مظاهره ، وتحالف الحرية ، وتحمل المسؤولية ، وترعى الأمانة ، وتوفي بالعهد ، وتؤدي الحقوق ، وتهدف الى أنبل ما في الحياة من مثل وشعائر وآداب ، وتمشي في النور مرهوبة محبوبة .

والسلام الذي لا يعرف الاعتداء ، ويعمل جاهدا على نفي الخوف من الأرض .

والاخاء المبني على المحبة والتعاون ، والذي وضع الرسول الكريم أصوله بعد الهجرة ، بمؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين ، وبدعوته الى التعاطف والتكافل بين الغني والفقير ، والكبير والصغير ، والحاكم والمحكوم ، الجميع عباد الله أصبحوا في الإسلام بنعمة الله اخوانا ، حتى أناب الرسول عنه على المدينة سلمان الفارسي ، وأسند الى مهران الفارسي ولاية اليمن ، وعاتب الله رسوله في عمار وسلمان الفارسي وصهيب الرومي ، واذن عمر لجماعة من الموالي قبل سادات قريش ، وشملت الناس وحدة كاملة بما يتفق وعالمية الرسالة المحمدية التي هي الأساس الأول لكل نهضة .. والإسلام من أعظم الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ، ودستور هذا الدين هو القرآن الكريم ، وهو كتاب سماوي يحدد معالم الحياة الإنسانية ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ويربطها بالكون ، وبنهاية الحياة ، وبحياة جديدة ، ويصلها

بالعقل والفكر والعلم والمعرفة ، والمدنية والحضارة . ويتضمن شريعة مثالية في كل أحوالها .

انها الرسالة العظيمة ، شريعة السماء ، شريعة البقاء ، شريعة الله الخالدة ورسالته إلى الناس كافة – أيها الدين الحق أيها الوحي الصادق : من أي جوانبك نتناولك ، ومن أي أهدافك وفلسفاتك نصفك ، أنت سر كل حضارة بناها الإسلام، وسر كل مجد وعظمة وسلطان ونفوذ وسيادة وفخار بلغه المسلمون ، ولذلك قال الهرمزان لعمر : انما غلبتمونا بالإسلام .

حينما اجتزت الصحراء الغربية وأنا قادم الى وطن إسلامي مجيد ، وهو ليبيا العربية ، وشاهدت الصحراء والجبال وصعوبة السير فيها لم أملك الا أن أسائل نفسي : هكذا نحن اليوم وفي ظلال مدنية القرن العشرين نشقى بالسفر في الجبال والصحراء على متون السيارات القوية السريعة ، فما بال أجدادنا المسلمين الأولين ، كيف احتملوا مشاق القفار والبيد والصحاري والجبال في سبيل تبليغ رسالة الله الى الناس كافة ، حيث لا طرق ولا مواصلات ولا سيارات ولا طائرات ، كيف ساحوا في الأرض ، وجابوا الوديان ، وقطعوا البيد ، واقتحموا الممالك والشعوب ، لا يرهبون شيئا ولا يخافون من أحد ؟ انه الإيمان ، ولا شيء الا الإيمان . وان الإسلام هو الذي طوى لهم الصحارى، وقرب لهم المسافات ، وسهل عليهم المشقات والصعاب .

— ٥ —

وقف الإسلام في العصر الحديث أمام غزو استعماري مدمر ، وامتحان قاس شديد ، وامتصاص كامل لمقدرات شعوبه وثروات أممه ، وكما ورث الترك العرب في سيطرتهم على العالم الإسلامي ، فقد ورث الاستعمار الغربي الترك والعرب في السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية في افريقيا وآسيا .

ووقف الرأي العام الإسلامي في أنحاء الدنيا ، يندد بالاستعمار ، ويعلن الثورة عليه في كل مكان ، وكانت الصدمات والمحن التي نزلت بالمسلمين ،

عاملا كبيرا في يقظتهم ، فدبت فيهم روح الحياة ، وأخذوا يفكرون ويبحثون عن السر في تخلف المسلمين ، وفي استعمار الغرب لبلادهم ، وكان لا بد من قيام حركات إسلامية جديدة تصمد للمستعمر ، وتجاهد من أجل طرده من الوطن الإسلامي ، وقامت الحركات الدينية الاصلاحية في الشرق ، لتجديد الفكر الإسلامي المعاصر ، كما قام السنوسي في ليبيا ، والمهدي في السودان ، وعبد القادر الجزائري في الجزائر ، وعبد الكريم الخطابي في المغرب والامام محمد بن عبد الوهاب في نجد ، ومحمد عبده في مصر ، والكواكبي فيسوريا ، والامام الشوكاني في اليمن ، ومدحت باشا في تركيا ، والشيخ شامل في القوقاز ، ويعقوب بك في الصين ، والسيد أحمد خان ومحمد علي واقبال في الهند ، قاموا بحركات سياسية وفكرية واسلامية في أنحاء العالم الإسلامي ، تهدف الى تحريره من نير الاستعمار ، وبعث الأمل في نفوس المسلمين ، وتبصيرهم بالدين الذي كان هم المستعمرين الأوربيين القضاء عليه في ربوع الأوطان الإسلامية . وأنشأ محمد عبده والأفغاني في باريس جمعية العروة الوثقى وصحيفتها ، ثم أنشأ محمد عبده وميرزا محمد باقر جمعية التأليف والتقريب في بيروت للدعوة الى الإسلام في جميع العالم وتعريف الغرب بحقائقه ، هذه الحركات القومية لها خطرها وأثرها لأنها كانت تستند الى أصول قوية من الدين والقرآن الكريم ، وقد كان الإسلام هو المحرك الأكبر لهمم المسلمين ليناضلوا المستعمرين وليجالدوا الصليبيين الأوربيين الذين ظهروا من جديد في بلاد الشرق العربي في ثياب المبشرين والمستعمرين والأساتذة والخبراء في مختلف جوانب النشاط القومي تمدهم الدول الأوربية بالنفوذ والمال والهيمنة على مصائر المسلمين ومقدراتهم ، وأخذوا يتهجمون على الإسلام والقرآن واللغة العربية ، ورد محمد عبده على هانوتو مشهور ، وردد «كرومر» لقوله الكاذب : ان المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية لا يصلح لحكم بلاده : وان الإسلام ناجح كعقيدة ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي ، ودعا ويلمور وماسينيون وعبد العزيز فهمي الى اصطناع الحروف اللاتينية حروفا

لكتابة اللغة العربية ، ودعا فريق آخر الى العامية ، وقصيدة حافظ في الرد عليهم مشهورة ، وأوجد الاستعمار طبقة من الشباب العربي ، الذين راعتهم حضارة الغرب المادية فتنكروا لماضيهم وعروبتهم ودينهم ، وسارت هذه الطبقة عاملة على تغيير التفكير الإسلامي وربطه بالتفكير الأوربي .

ثم أخذ المستشرقون الأوربيون باسم العلم والفكر يدسون أفكارهم الصليبية في بحوثهم وكتبهم ، ويشوهون الإسلام وتاريخه في نظر العالم المتحضر ، وكان من ذلك البلاء كل البلاء فان الاساتذة في الجامعات العربية أخذوا يدعون لهذه الآراء ويذيعونها بحجة أنها آراء علمية خالصة ، وفاتهم أن الغرب لا يفرق بين العلم وبين مصلحته في القضاءعلى الإسلام،وان أوربا تقدم الفكرة اليوم لتخدم بهاغداأو بعد غد غرضاسياسياأو استعماريا أو تخدم بهامصالحهاالاقتصادية.

إن الغرب يخشى الاسلام ويحذر قيام حركات اسلامية جديدة ، انه يخاف من الأسد وهو مكبل بالسلاسل فكيف به لو تحرك وفك قيوده وأغلاله. ثم جاءت الشيوعية فقضت على الاسلام في كل بلد من بلادها،ولقد اصطدم الغرب بالاسلام في معارك كثيرة ليؤخر سيره العظيم ، والحروب الصليبية في العصور الوسطى ، والحروب الاستعمارية في العصر الحديث ، من مظاهر هذا الاصطدام الرهيب . ولقد ملأ الأوربيون أنفسهم بالتعصب الديني ضد الاسلام وعبأوا شعوبهم معنوياً ومادياً لمحاربته ، والأدهى من ذلك انهم سرقوا الحضارة الاسلامية ونسبوها لأنفسهم زورا وبهتانا،وان كانوا قدزادوا عليها اشياءتعدامتدادا لبحوث العلماء المسلمين وأفكارهم ، نهب الغرب أفكار المسلمين ودراساتهم وتراثهم الحضاري وسرقوا آثار بلادهم والمخطوطات الثمينة في كل فن وموضوع ، وأخذوا منها نتائج تجارب العلماء المسلمين ، ثم امتدت أيدي الغرب لتصفية المعامل الاسلامية ، ولسرقة النفوذ الاسلامي على العالم ، وخضع الشرق العربي لنفوذ الاستعمار وحضارته ، وظنها كل شيء وأخذت أوربا تتجسس على الحركات والاتجاهات الاسلامية ، وتخنقها في مهدها ، وزادت على ذلك في بعث التاريخ الاسلامي والحضارة العربية ، وعمدت الى

تشويهها وساعدت على قيام مذاهب جديدة منحرفة في وسط العالم الاسلامي ، وعلى الدعاية للغرب وحضارته وللمذاهب الهدامة من ماسونية وصهيونية ووجودية والحادية وغيرها ، وعلى قيام مذاهب اسلامية متخاصمة متعادية واخذوا فوق ذلك يزيفون الحقائق والمفاهيم الاسلامية ويحرفون كثيرا من أصول ثقافتنا وحضارتنا ، ويجهلون الشباب الاسلامي بدينهم وبكتابهم العظيم وبلغة القرآن الكريم ، وأخذوا يفهموننا أنهم كشفوا افريقيا ، وأن بدء البعث العربي كان يحمله نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، أو بوصول الجمعيات التبشيرية الفرنسية والأمريكية الى الشرق العربي في نصف القرن التاسع عشر ، ويقول الدكتور حسين الهراوي : اني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية ، وان لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهي انهم يفرضون فرضا ، ثم يلتمسون الدليل عليه فاذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه ، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد ، ولا مانع عندهم من بترها اذا اقتضى الحال ، او تحريف معناها حسب الرغبة ، فيخرج القارىء من كلامهم وهويتهم الاسلام بالتلفيق .

ان الأفكار الأوربية الفاسدة البالية للأسف الشديد لا تزال تسيطر على عقلية كثير من شبابنا ، وهم بتلك الأفكار الهدامة على الاسلام جد متأثرين

يقص علينا محمد اقبال شاعر باكستان الروحي قصة صديق له هاشمي أثرت فيه الفلسفة الأوربية تأثيرا كبيراً وزلزلت عقيدته الاسلامية ، وان اقبـال كتب إليه قصيدة يقول له فيها :

« أنا رجل أتحدر كما تعرف من أسرة عريقة في البرهمية »

ولكنك يجري في عروقك دم الهاشميين ، وتنتمي الى سيد الأولين والآخرين وانا قد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت مني مجرى الروح ، وتغلغلت في أعماق هذه الفلسفة ، وبعد ذلك أقول بأنها ليست الا حجابا للحقيقة ، وانها لا تزيد صاحبها الا بعدا عن صميم الحياة ، هذا هيجل الذي تبالغ في تقديره أن صدفته خالية من اللؤلؤ ، وان نظامه ليس الا وهما من

الأوهام . لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك أيها السيد ، وفقدت شخصيتك، فأصبحت أسيرا لفلاسفة الغرب ، وان البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها ، وكيف تخلد شخصيتها ، وأبناء آدم يطلبون الثبات ، ويتطلعون الى دستور للحياة ، ولكن الفلسفة لا تساعدهم على ذلك ، وبالعكس من ذلك فان المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون ، ان الدين هو الذي ينظم الحياة ، وانه لا يكتسب الا من ابراهيم ومحمد ، فعليك أيها السيد بتعاليم جدك صلى الله عليه وسلم .. فإلى متى يا بن علي ، تقلد أبا علي ابن سينا ، اذا لم تكن بصيرا بالطريق فالقائد القرشي — رسول الله — خير لك من القائد البخاري : ابن سينا .

— ٦ —

وأخيراً ما هو واجبنا نحو الاسلام ؟

إن أمامنا نماذج اسلامية كاملة تتجلى لنا في حياة أبطال الاسلام وقادته ، وان أمامنا كذلك مثلا عالية نريد أن نصل اليها ، ونبلغ ببلوغها ما نتمناه للاسلام والمسلمين من مجد وازدهار وقوة .

ومن هذا وذاك نستطيع أن نتبين مسؤوليتنا الكبرى حيال ديننا الخالد العظيم والواجب الملقى على كواهلنا نحو الاسلام وشعوبه .

وأول واجب علينا هو الثورة على وصاية الغرب على الانسانية ، هو تحطيم الأغلال التي قيدنا بها الأوربيون والتي تزعم كاذبة أننا لا يمكن أن نعيش بدون الغرب وحضارته ، وتزعم كذلك أن الحياة بالاسلام ، وفي ظلال مبادئه رجعية وجمود وتأخر .

هو بعث الثقافة الاسلامية من جديد ، والرجوع الى مبادىء التربيةالاسلامية وتحديد الايديولوجية تحديدا لا لبس فيه ، حتى تتحدد للمسلم شخصيته وذاتيته .

هو التطبيق العملي للاسلام ومبادئه ، في أنفسنا وأهلينا ، وفي كل مجالات الحياة .

هو أن ننقل صراعنا الفكري والعلمي الى صراع حول المذاهب الفكرية فتصبح أنديتنا الفكرية أندية يناط بها العمل لايقاظ الروح الديني في نفوس الشباب الاسلامي في كل مكان ، ونتعهد بالرعاية والنماء طبقات جديدة من الشباب الاسلامي ، نخرجهم ليكونوا دعاة صالحين للاسلام ، ورسالته طالما كان الامام محمد عبده يتجه الى جمال الدين الأفغاني في المحن والخطوب ، يقول له : أيها السيد ، أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم متصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا يمضي بضع سنين الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن هؤلاء يرجى الفلاح .

وواجبنا كذلك نحو الاسلام أن نعمل على تعاون جميع القوى والشعوب الاسلامية ، للعمل من أجل الاسلام ونشر دعوته في كل مكان وأن تصبح الجامعات الاسلامية مصدر اشعاع روحي وفكري للمسلمين . فتغير من طرقها الواهية في البحث ، ومناهجها البالية في الدراسة ، لتستطيع أن تؤدي واجبها الأكمل في خدمة العقيدة الاسلامية ، والفكرة الاسلامية خدمة صادقة فحتى اليوم لا نرى ترجمات دقيقة صحيحة لمعاني القرآن الكريم بمختلف اللغات ، وحتى اليوم لا يزال تاريخنا مدفونا في الأسفار المخطوطة أو المطبوعة ، دون أن نعمد الى بطولات أبطاله وقادته والى ذكرياته الخالدة وأيامه المجيدة ، فنقدمها للناس قصصا وتمثيليات وحوارا وافلاما وصورا وغير ذلك من وسائل النشر والاعلام والبعث ، وحتى اليوم ليس للشعوب الاسلامية دائرة معارف جديدة تقوم بالتعريف بالاسلام وتاريخه وحضارته وأبطاله وتراثه ومختلف جوانب نشاطه الانساني العام ، تعريفا صادقا ، حتى اليوم لم نقم بنشر أعمال مفكري الاسلام وبطولات أبطاله ، ومواقف زعمائه وقادته ، بمختلف اللغات .

اننا نتمنى أن نرى جيلا جديدا يكرس كل حياته للعمل الجاد من أجل مجد الاسلام ، والتبشير برسالته ، لخير الحياة الانسانية ، جيلا يكون يقينه بين أوهام العصر كمصباح الضوء في ظلمات الصحراء ، ان الانسان الكامل ليس هو السوبرمان الذي نادت فلسفة التطور المادي في أوربا به بل هو المسلم الذي نجد فيه كل عزة ونبل ، وما عداه كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، المسلم المثالي الذي يعيش برسالته ولرسالته، والذي مهما تطورت الحياة ، فانه يظل الحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتحول ، واما ما عداه فهو الزبد يذهب جفاء ، ويظل الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وما عداه فشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

وما أروع ما يقول الشاعر اقبال : انك أيها المسلم حق في العالم وحدك ، وما عداك سراب خادع ، ووهم باطل ودرهم زائف ، ويقول في بيت آخر له : ان ايمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهم وطلسم ومجاز .

والمسلم كما يقول اقبال كذلك : مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، انه رسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، ليشرق العالم ، ويستيقظ الكون ، وقوة المؤمن الخارقة للعادة ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وايمانه ، وباندماجه في ارادة الله ، يتحول الى قوة خارقة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف في سبيلها البحار ، واذا كان جسم المسلم من تراب فان فطرته من نور ، وهو يتخلق بأخلاق مولاه ، بأخلاق القرآن ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن .

ونقف في النهاية نسائل أنفسنا : اننا لو نشأ لنا جيل جديد من هؤلاء المسلمين انما تكون مصائر الحياة والحضارة والبشرية بين أيديهم ؟ افما يصبحون قادرين على خلق معجزات جديدة كتلك التي صنعها بالأمس أبو بكر وعمر وخالد وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ، أفما يصبح في مقدورهم أن يبعثوا من أي مكان كان ولو في الصحراء برسائلهم الى جميع قادة العالم في أوربا وامريكا

وآسيا وافريقيا يقولون لهم : آمنوا برسالة الله والا طواكم الاسلام تحت سنابك خيله ، ووقعت عليكم الدائرة ، ونزل بكم وعيد الله .

— ٧ —

ولقد راعتني قصيدة الرصافي عن الاسلام ، وفيها يقول :

يقولون في الاسلام ظلما بأنه ... يصد ذويه عن طريق التقدم
فان كان ذا حقاً فكيف تقدمت ... أوائله في عهدهـا المتقـدم
وان كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الاسلام من جهل مسلم ؟
هل العلم في الاسـلام الا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلـم
لقد أيقظ الاسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوم
وحلت لـه الأيام عند قيامه ... حُباها ، وأبدت منظر المتبسم
فاشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم
ودك حصون الجـاهلية بالهدى ... وقوض أطناب الضلال المخيـم
وانشط بالعلم العزائم وابتـنى ... لأهليه مجدا ليس بالمتهـدم
وأطلق اذهان الورى من قيودها ... فطارت بأفكار على المجد حوم
وفك اسار القوم حتى تحفزوا ... نهوضا الى العلياء من كل مجثم
فخلوا طريقا للبداوة مجهـلا ... وساروا بنهج للحضارة معلـم
فدوت بمستن العلا نهضاتهـم ... كزعزع ريـح أو كتيار عيلم
وعما قليل طبق الأرض حكمهم ... بأسرع من رفع اليدين الى الفم
وقد حاكت الأفكار عند اصطدامها ... تلألؤ برق العارض المتهـزم
ولاحت تباشير الحقائق فانجلت ... بها عن بني الدنيا شكوك التوهم
ومـا ترك الاسلام للمرء ميزة ... على مثلـه ممن لآدم ينتمـي
فليس لمثر نقصه حق معدم ... ولا عربي بخسه فضل أعجـم
ولا فخر لـلانسان الا بسعيه ... ولا فضل الا بالتقى والتكرم
وليس التقى في الدين مقصورة على ... صلاة مصلٍّ أو على صوم صيم

ولكنها ترك القبيح وفعل مـــا يؤدي من الحسنى الى نيل مغنم
فتقوى الفتى مسعاه في طلب العلا وما خصت التقوى بترك المحرّم
فهل مثل هذا الأمر يا لأولى النهى يكون عثارا في طريق التقدم ؟
وان لم يكن هذا الى المجد سلما فأي ارتقاء بعد أم أي سلم
الا قل لمن جاروا علينا بحكمهم رويدا فقد قارفتم كل مأثم
فلا تنكروا شمس الحقيقة انها لأظهر من هذا الحديث المرجم
علونا وكنتم سافلين فلم نكن لنبدي اليكم جفوة المتهكـــم
ولم نترك الحسنى أوان جدالكم وتلك لعمري شيمة المتحلـــم
فلما استدار الدهر بالأمر نحوكم كشفتم لنا عن منظر متجهـــم
فلا تأمنوا الأيام ان صروفهـــا كما هي اذ أودت بعادٍ وجرهم



الفَصْلُ السَّادِسُ

غد الاسلام

غـــدُ الإســلام

ولماذا نتحدث عن الغد ؟

نتحدث عنه :

١ ــ لانه التاريخ المفتوح الممتد، فلم يعد الزمان مفصولا الى ماض وحاضر ومستقبل ، بل هو تطور متصل ، يكمل غده حاضره وماضيه على مرور الأيام ، والحياة وحدة متصلة ، فروعها وسيقانها من جذورها الضاربة في أعماق الماضي البعيد .

٢ــ ونتحدث عنه ، لانه الزمن الذي سيحيا ابناؤنا واحفادنا من بعدنا ، ممن نريد لهم حظا اسعد من حظنا .

٣ ــ ولان الانسان كلما ضاقت به الهموم ، واحاطت به المحن وادركه الملل من واقع سيء تمنى الخروج منه الى غد أفضل .

٤ ــ ولان تخطيط الانسان المفكر للغد ــ بقدر استطاعته ــ أمر ممكن والامم الكبيرة تخطط للمستقبل ، وترسم الصورة التقريبية له ، وفي الحديث الشريف: اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، ومن أجل ذلك قامت وزارات للتخطيط في معظم الدول اليوم ، وعندما أصدرت الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ وعد بلفور بانشاء وطن

قومي لليهود في فلسطين [1] كانت تعني ما تقول وتريده ، وتعرف الصورة التي سوف تؤول اليها حالة الشرق العربي بعد صدور هذا الوعد ، وبدء العمل من أجل تنفيذه في ظلال الانتداب الانجليزي المشؤوم على أرض فلسطين العربية المسلمة ، وهي الصورة التي نراها اليوم،صورة العدوان والقتل والتشريد والجوع وحياة اللاجئين والخيام السوداء، صورة اضطراب حياة المسلمين المعاصرين ، حتى لم يعودوا يعرفون شيئا غير حاضرهم الذي يعيشونه ، ولا يفكرون في امر سواه ، ولايتدبرون أمر غدهم المرتقب ، وقد سأل صحفي أجنبي شخصية عربية كبيرة عن صورة الحياة العربية التي سوف يحياها العرب في نهايات القرن العشرين كما يتخيلها ، فكان جوابه : لا أعرف فلقد عشنا نحو عشرين عاما في مشكلات وازمات ومجابهة قاسية للاحداث ، مما لم نعد ننظر معه إلى شيء آخر [2] وسئل كاتب عن توقعاته للعالم العربي خلال السبعينيات ، فأجاب : لا أدري لان الاحداث تعقدت وتشابكت بشكل يتجاوز قدرة العقل البشري المفرد .

٥ ـ ونتحدث عن الغد كذلك لاننا نحلم ، ولا نزال نحلم باليوم الذي نرى الاسلام فيه يتولى القيادة في عالمنا المضطرب المشؤوم ، ونرى المسلمين وقد عاد لهم ماضيهم المشرق العظيم ، ماضي أمة كانت تخفق اعلامها في الشرق والغرب وتسير جيوشها المظفرة من نصر الى نصر ،أمة كانت لها السيادة والكلمة النافذة في الأرض ، فالشمس لا تغيب عن أرضها والسماء مملوءة بالويتها ، ويجلس أحد خلفائها ، وهو هارون الرشيد في قصر في بغداد عاصمة الاسلام ، ودار السلام ، ثم يرنو الى الافق ، فيرى غمامة تسير في السماء ، فيناجيها في عزة المؤمن وجلال المسلم : أمطري أين شئت فسوف يأتيني خراجك لذلك كله نتحدث عن الغد ، غد الاسلام .

---

(١) ١٢/١ / ١٩ فلسطين في ضوء الحق والعدل ـ هنري كتن ـ تعريب : وديع فلسطين ..

(٢) جريدة السياسة الكويتية ـ عدد الخميس ٢٢ / ١٠ / ١٩٧٠ .

وتبدل الحاضر إلى غد أفضل ، ليس بالامر البعيد عن حدود الامكان ، وليس بالشيء الذي تعجز عنه قدرة الانسان .

انه ممكن ، ممكن باذن الله ، بالعقيدة المؤمنة الصامدة بالايمان الصادق الوثيق ، بالعمل القوي المحكم الدقيق ، بالاخلاص والتعاون والحب العميق ، بكل خصائص الإسلام واخلاق المسلم .

وأمامنا المثل من التاريخ ، تاريخنا المجيد العريق .

لقد كان جهاد الرسول الاعظم وأصحابه من أجل غد الاسلام ، عملاً رائعا عظيما ، لم يحدث مثله في التاريخ ، كان معجزة كبرى لم تشهد الانسانية لها نظيرا ، ومع ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان فردا وكان أصحابه قلة صغيرة مؤمنة وعزلا من السلاح ، فلقد قاوموا غرور القوة ، وغطرسة السيطرة ، وجبروت الوثنية ، وانتصروا واسسوا للاسلام دولة فتية قوية مكافحة مجاهدة في سبيل الله ، ومع أن هذه الدولة الصغيرة لم تكن تملك السلطان ولا المال ولا السلاح ، ولا سبباً من أسباب الحضارة ، فقد أخذت تنازل أعرق وأقوى امبراطوريتين في العالم آنذاك : الفارسية في الشرق ، والرومانية الممتدة في الشمال والغرب الى حيث شاء الله .

وانتصر المسلمون في معركتهم مع الامبراطورية الفارسية انتصارا مذهلا ساحقا ، حيث كانت بلادها امتدادا للجزيرة العربية ، ومن قارتها نفسها ، ولا حواجز كبرى تفصل بين العرب والفرس .

وانتصروا كذلك في معاركهم الكبيرة العديدة مع الامبراطورية الرومانية وهزموها في كل مكان من املاكها الواسعة في الشام ومصر وافريقيا ، وفي جزر البحر الابيض المتوسط او الرومي ، ثم نازلوها في سهول الاناضول ، ووقفوا في مواجهة عاصمتهم القسطنطينية على شواطىء البوسفور ، ولم يعقهم البحر فقاد قوادهم الاساطيل الى الدردنيل ، لتكمل حلقة الحصار على

العاصمة الخائفة المذعورة، ووقفت امامها قوة الرومان البحرية الضخمة العتيدة، فكانت عاملاً فعالاً في تأخير الفتح وتعويق الزحف وارجاء النصر، وظلت بيزنطة تعيش دولة بلا امبراطورية، وشعبا يتملكه القلق على مصيره قرونا طوالا، يعتمد على اسطوله البحري، وتجتمع حوله اوروبا المسيحية المذعورة من الاسلام ويكيد للمسلمين ما شاء له الكيد والتعصب الذميم، يخطط للمؤامرات الجسام في بلاد الاسلام ما استطاع الى ذلك سبيلا ونحن نعرف أنه كان أحد القوى الكبرى المحركة للاحداث في الحروب الصليبية وكان وراء التتار يهلل لهم ويؤازرهم، ويزين لهم صنع ما صنعوا من تدمير في العالم الاسلامي [١] وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه التاريخ من ان هيتون ملك أرمينية المسيحي كان العامل الرئيسي في اقناع مانجو خان — ٦٤٦ — ٦٥٥ هـ بارسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو — ٦٥٦هـ ١٢٥٨ م — وان هولاكو التتري زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحي [٢] ومع ذلك فقد أكمل المسلمون الحلقة، ودخلوا اوربا من الجنوب الغربي، وعاشوا في الاندلس ثمانية قرون وهي أطول مدة عاشها شعب فاتح في بلاد بعيدة، ثم مدوا هيمنتهم الى جنوبي ايطاليا، حتى بلغوا ضواحي روما ولم يرجعوا عنها الا بعد ان وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع الجزية لهم [٣]، ومدوا كذلك سلطانهم الى جنوب وغرب فرنسا، ووقفوا تجاه باريس، وعند قرية — بواتييه — هزم القائد العربي المسلم عبد الرحمن الغافقي وجيشه فقتل في أرض المعركة، وتقهقر الجيش الفاتح عائدا الى معاقله في ارض الاندلس،

---

(١) ص ٢٥٢ الدعوة الى الإسلام — ارنولد وتوماس — ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وراجع : المغول بين المسيحية والإسلام ومغول ايران لطه مصطفى بدر .

(٢) ٢٦٠ المرجع نفسه .

(٣) راجع حضارة العرب لغوستاف لوبون ، والمسلمون في صقلية وجنوبي ايطاليا لأحمد توفيق المدني ، والمسلمون في صقلية تأليف ماربو مورينو وطبع بيروت : والمسلمون في صقلية — رسالة مخطوطة لزكي غيث محفوظة في مكتبة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

وذلك في السابع من شعبان عام ١١٤ ه والثاني من اكتوبر ٧٣٢ م ، وتأخر بهذه الهزيمة الفتح الاسلامي لاوروبا من الغرب ، كما تأخر الفتح من الشرق لقلب أوروبا المسيحية التي كانت تعيش في الظلام ..

ويعلق مفكر فرنسي على نتائج معركة – بواتيبه – التي كانت تسمى بلاط الشهداء ، وهو مسيو كلود فارير ، فيقول : كانت فاجعة من أشأم الاحداث التي نكبت بها الانسانية في القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم الغربي موجة من التوحش ، لم تبدأ بالتبدد الا في عهد النهضة ، هذه الفاجعة التي اريد ان أمقت ذكراها ، هي هذا الانتصار البغيض الذي ظفر به اولئك البرابرة من الافرنج بقيادة شارل مارتل ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء ، ويكفي المرء ان يطوف بفكره في الاندلس وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو انقذها الاسلام .

ويقول الفياسوف نيتشه الالماني : حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام .

لقد ديست بالاقدام تلك المدنية العظيمة مدنية الاندلس العربية ، ولماذا ؟ لانها نشأت من اصول رفيعة ، إن تلك المدنية الاسلامية لم تنكر الحياة ، ولقد قاتلها الصليبيون وكان أولى بهم أن يسجدوا لها . وما مدنيتنا في هذا القرن الا دانية بجانب مدنية الاسلام .

ولم يستأنف الاسلام بعد ذلك مسيرته الكبرى في قلب اوروبا الا على يدي السلطان المسلم محمد الفاتح العثماني ، الذي احتل القسطنطينية ، ودك حصونها في اليوم الثلاثين من مايو عام ١٥٤٣ م – ٨٥٧ ه ودخلها من باب القديس رومانوس ، ممتطيا صهوة جواده في موكب جليل ، وسار الى كنيسة سانت صوفيا ، فاذن من فوق قبابها للصلاة ، وصارت مسجدا جامعا من أعظم مساجد الاسلام ، وقتل يومئذ الامبراطور قسطنطين ، وحاول البابا بيوس الثاني أن يجمع شمل اوروبا لقتال المسلمين وطردهم من المدينة ، ولكنه فشل

في ذلك وساد الذعر يومئذ شعوب المسيحية جميعها ، ووقفت أمام الاسلام وجها لوجه ، تعمل بكل طاقاتها لتحسر موجته العالية عنها دون جدوى .

لم يكن اذا من المحال تبدل الحال ، حال العرب ، بالاسلام وعلى يد صاحب الرسالة الاعظم وأيدي خلفائه المجاهدين الصادقين وكذلك لن يكون تبدل حال المسلمين المعاصرين بالاسلام أمراً عسير الامكان مرة أخرى .. وقد نسرف في اليأس ونخلد الى الكسل ، ونقول : ان ما حدث بالأمس لا يمكن أن يحدث مثله في يوم من الايام واقول : كلا ، ثم كلا ، فما حدث كان معجزة للاسلام ، والاسلام باق ابدا الى قيام الساعة ، وليس من العجيب وقد انبعث مرة أن ينتفض ويستيقظ مرة اخرى غدا او بعد غد باذن الله .

كان الامام محمد عبده في ظلمات اليأس القاتلة ، وهو يرى بلاده المسلمة تحتلها أعظم دولة ، وأكبر قوة في عصره يقول لجمال الدين الأفغاني : أيها السيد أرى أن نترك السياسة ، ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لايعرفنا فيه أحد ، ونختار من هذه الامة عشرة غلمان — أي طلاب — فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم مقصدنا . فاذا اتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين ، لا يمضي بضع سنين الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن هؤلاء يرجى الفلاح .

ومغزى كلام الامام ان للتربية الاسلامية طاقتها الكبرى على العمل من اجل استعادة هذا المجد العريق من أجل الغد المشرق ، والمستقبل المأمول ، وهو ما كرر الدعوة اليه كاتب اسلامي مشهور ، هو محمد فريد وجدي في كتابه : « الاسلام في عصر العلم »[1] وهو عملكم أنتم يا رجال الجامعات الاسلامية

---

(١) راجع :
الله والعلم الحديث — والقرآن والعلم الحديث — والإسلام والعلم الحديث — والمسلمون والعلم الحديث وهي كلها لعبد الرزاق نوفل .

وكتاب الإنسان ليس وحيدا تأليف — كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بأمريكا بترجمة محمود صالح الفلكي وهو مطبوع بعنوان — العلم يدعو الى الايمان، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم لجون كلوفر ، ترجمة الدمرداش سرحان .

في كل مكان من انحاء الوطن الاسلامي الكبير .

تبدل الحال إذاً ممكن بالاسلام، بالاسلام وحده ، وتقرير اليقين بامكان الوصول اليه في نفس كل مسلم واجب شرعا ، واليأس من بلوغه كفر بالله، وبالدين الحق ، الاسلام ، دين القيمة .

يقول اقبال شاعر الاسلام في العصر الحديث :

« انك أيها المسلم في العالم كله حق وحدك ، وما عداك سراب خادع ، ووهم باطل ، وان ايمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما سواه في هذا العالم المادي وهم وطلاسم ومجاز » .

ان شعوب الشرق الاوسط قد قادت العالم في حقبتين طويلتين : اولاهما قبل أيام اليونان طوال الفي سنة ، وثانيتهما في العصور الوسطى ، يريد عصر حضارة الاسلام، مدة أربعة قرون على الاقل،وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد .

— ٣ —

إذن كيف نصل الى الغد المنشود ، الغد الذي نريده ونحلم به ؟

نقول : كل ماضي الاسلام يقوم على العقيدة الالهية المحمدية يحملها في جوانحهم مسلمون مؤمنون يصنعون المعجزات بايمانهم .

والدين والعقل لسليمان دنيا – وآيات الله في الآفاق لمحمد أحمد العدوي والعودة الى الايمان لهنري لنك ترجمة ثروت عكاشة – والعقل والدين لوليم جيمش وقضية الالوهية بين الديـــن والفلسفة ، الله ذاتا وموضوعا ، والله والإنسان لعبد الكريم الخطيب وله كتاب آخر بعنوان – التعريف بالإسلام – .

وكتاب كبرى اليقينيات : وجود الخالق ووظيفة المخلوق لمحمد سعيد رمضان .

في سنن الله الكونية لمحمد احمد الغمراوي وكتاب الدين في نظر العقل الصحيح لمحمد توفيق صدقي وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لمصطفى صبري ومع الله في السماء لأحمد زكي والله للعقاد .

أما حاضر الاسلام اليوم فلا يقوم على اساس .. مسلمون ولكن اين العقيدة ؟ وعرب ، ولكن اين الايمان ، وكان العرب في بدء شروق الاسلام مثلنا اليوم ، ولذلك قال الله عز وجل فيهم :

« قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » [١] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » .

ان الغد الذي نريده لا يمكن أن يكون غدا آخر مقطوع الصلة بماضينا ، لان ذلك محال يأباه ديننا وتراثنا وتاريخنا وفكرنا من جانب ، ومحال الوصول عن طريقه الى أهدافنا وغاياتنا من جانب آخر ، وفيه ما فيه من تفريق جهود المسلمين ودخولهم في دائرة التبدد بالصراع الطبقي والحرب الاجتماعية بين الناس من جانب ثالث . وقد فشلت ولا تزال تفشل كل المحاولات لبناء غد للاسلام يرتكز على أصول غير اسلامية ، ومن الوثنية والعلمانية ، والمادية الالحادية والوجودية وغيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم .

ولا يوصى مفكرو الاسلام وعلماؤه وشعوبهم اليوم الا بشيء واحد في مقدورهم ، وفي مقدورهم أن يفعلوه ، وهو سبيلهم الوحيدة الى النجاح لو فعلوه ، ذلك هو عودة اليقظة الاسلامية من جديد، نسير بها على ضوء البعث الاسلامي العظيم ، الذي صنعناه من قبل ، وصنعنا به اعظم حضارة في اعظم حقب التاريخ ، الى ما ننشده من غايات رفيعة في الحياة والعيش [٢] .

وذلك محور دعوات أئمة الاسلام واعلامه في العصر الحديث .

محمد عبد الوهاب في الجزيرة العربية .

الشوكاني في اليمن .

---

(١) ١٤ سورة الحجرات .

(٢) الإسلام في مفترق الطرق لأحمد عروة .

محمد عبده والافغاني وتلاميذهما في مصر .
المهدي الكبير في السودان .
محمد بن علي السنوسي في ليبيا .
عبد القادر الجزائري وابن باديس والبشير الابراهيمي ومالك بن نبي في الجزائر .
ومحمد علي واقبال في الهند وباكستان .
يعقوب بك في الصين في اوائل القرن العشرين .
مصطفى صبري وزاهد الكوثري في تركيا .
الشيخ شامل في القوقاز .
الكواكبي في سوريا ، وكتابه « ام القرى » يرمز الى ضرورة عودة البعث الاسلامي ، الذي يستمد مقوماته ، من الاسلام والقرآن والدعوة التي أذن بها محمد رسول الله صلوات الله عليه في شعاب مكة وبلغها الناس كافة .

طريقنا الى هذا الغد المنشود اذاً انما يكمن في الجهاد من أجل تربية إسلامية حقة يقوم عليها جيل جديد ، يسير على بصيرة من الامر الى فجر النور ، الى كبد الحقيقة ، الى سنا الامل ، الى مشرق البعث ، الذي يود نحو السبعمائة مليون مسلم [1] في شتى انحاء العالم ، ان يبصروا في ضوئه طريقهم الى السلام والرفاهية ، والمجد والعزة والسيادة في الارض ، فالبعث الروحي هو منطلقنا الى الجد والمجد ، ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها كما يقول الامام مالك .

وما أحب الى نفوسنا ان يعود المسلمون بالاسلام الى قيادة وتوجيه حياتهم بخاصة ، والى قيادة وتوجيه الحياة بعامة ..

---

(١) منهم نحو مائتي مليون في افريقيا ، ونحو خمسمائة مليون في آسيا ، ونحو عشرين مليونا في أوربا وأمريكا ، وهو عدد ضخم وهائل ، وفي امكانهم أن يصنعوا المعجزات . ويقدر العقاد عدد المسلمين اليوم بأقل من هذا التقدير (٣٦ – ٤٨ ما يقال عن الإسلام) .. وعدد سكان العالم كما قدره الخبراء في عام ١٩٦٩ يبلغ ٣٥٥٢ مليونا : فالمسلمون نحو خمس سكان العالم على هذا التقدير .

والاسلام تلقيناه عن الرسول عن رب العزة ، ونطق به كتاب كريم :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (١).

وهو في أصوله الكبرى دين الأنبياء من قبل، او شريعة التوحيد التي وصى الله بها أنبياءه ورسله : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه (٢) .. — ووصى بها ابراهيم بنيه ، ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق ، الها واحدا ونحن له مسلمون (٣) .

الإسلام شريعة الله التي ارتضاها لخلقه واصطفاها لعباده .

— ان الدين عند الله الإسلام (٤) .

— ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (٥)

— افغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون (٦) .

هذه الشريعة (٧) هي أساس سعادة العباد في الدنيا والآخرة وسبب أمنهم

---

(١) فصلت ٤٢ .

(٢) ١٣ الجاثية .

(٣) ١٣٢ و١٣٣ البقرة .

(٤) ١٩ آل عمران .

(٥) ٨٥ آل عمران .

(٦) ٨٣ آل عمران .

(٧) راجع كتاب :

— نظام الإسلام في العقيدة والعبادة لمحمد المبارك .

— الدين الإسلامي في الأصول والعقائد لمحمد علي .

— الإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت .

— العقيدة والشريعة في الإسلام لزيهر ترجمة النجار ومحمد يوسف موسى .

— دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين لمحمد الغزالي .

وطمأنينتهم ، يقول الله عز وجل : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » — أي على الطريق وهو دين الإسلام — « تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » [١] .

والشريعة في الأصل موردالماء العذب الصافي النمير ، وهي كذلك الطريق اللاحب ، والدين الحق الذي يجب على العقل التزامه والعمل به والسير عليه ، بالقلب أو بالجوارح ، فيستوي فيها ما يتصل بالعقيدة وما يتصل بالسلوك ، وما يتصل بالعمل ، فلا يعد الانسان مسلما الا اذا امتثل أمر الله في هذه الجوانب جميعها ، وشرع الله ودينه القويم شامل لكل توجيه الهي حكيم في هذه النواحي الثلاث .

ويخطىء المبطلون الذين يزعمون أن الشريعة قاصرة على الاحكام التي تنظم العلاقة بين العبد وربه فحسب [٢] فما مما هو وحده ، في زعمهم الباطل ، مجال التشريع السماوي . ويقولون : ان الاحكام التي تشرع لبيان علاقة الانسان بالانسان ليست من الشريعة في شيء ، ومردها الى ولي الامر الشرعي ، وهم في ذلك يهرفون بما لا يعرفون .

ان الاسلام يجمع . كل ما يدخل في باب العقيدة والسلوك باب العمل ، مما يؤديه المسلم تقربا الى الله كالصلاة والصيام ، او تبادلا للمنافع بينه وبين الناس كالبيع والشركة والرهن والمزارعة والمضاربة .

وهؤلاء الذين يدعون الى عزلة الإسلام عن الحياة والدولة وواقع الناس ، انما يريدون ان يصير الإسلام الى ما صارت اليه المسيحية ، اذ أصبحت أمرا يخص الانسان وحده ولا صلة لها بشؤون المجتمع او الدولة .. وهم ولا ريب

---

(١) ٣٠ فصلت .

(٢) راجع :

– الإسلام وأصول الحكم ، علي عبد الرازق .

– منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد ، ترجمة منصور محمد ماضي .

مدفوعون الى شعاراتهم الباطلة بايدي أعداء الاسلام من الصليبيين والصهيونيين والشيوعيين ، ولهم الخسران والضلال البعيد .

وبئس شعارهم الذي رددوه — دع ما لقيصر ليقصر وما لله لله — وهو أكثر الشعارات بهتانا وتآمرا على الإسلام وكيف يصح قولهم هذا والله عز وجل يقول : [1]

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ، إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون، من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون. قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ، ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.

ليس الإسلام كالمسيحية ، ولا غيرها من الاديان ، دين رهبنة فحسب ، انه حركة اجتماعية دائبة تشمل الاعتقاد والاخلاق ، والدولة والنظم الاجتماعية . يقول العقاد [2] .

« لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر ، لان الأمر في الإسلام كله لله ، بل لله الامر جميعا » .

وأقول إنه على شعارهم الباطل لا يكون هناك معنى لان يأمر الله عباده بالامانة وتحمل المسؤولية والصدق في المعاملة وبالحفاظ على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم ، ولا لان يبيح الله البيع ويحرم الربا ، ولا لان يلزمنا بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، والتوحيد هو مع ذلك الدعامة الكبرى للاسلام ، يقول محمد فريد وجدي [3]

(١) ١٥٩ – ١٦٢ الأنعام .
(٢) ٢٧ الإسلام في القرن العشرين ط ١٩٥٤ .
(٣) ٢ : ٣٥٦ الإسلام في عصر العلم .

« الإسلام أن تسلم وجهك لله ، مجردا نفسك عن علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها ، الفقر شعارك والخشوع دثارك ، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك ، متجردا له ، كيوم ولدتك أمك ، على الفطرة ، لتحقق عبوديتك » ..

ويقول عبد الحليم محمود : الاسلام ان تستسلم لله سبحانه وتعالى ، ان توطد نفسك على ان تكون في اطار التربية الالهية [1] .

هذا هو الإسلام ، الدين الذي عاش في ظلاله أسلافنا وسارت تحت لوائه أيامنا وأجيالنا ، وشهدت حضاراته وانتصاراته أرضنا وسماؤنا ، وكان منه ومن خيوطه نسيج حاضرنا ، وفي ظلاله سوف يعيش غدنا ، ولاغد لنا الا في ظله ، ولن نحيا الا بالعودة اليه ، وصبغ حياتنا كلها بصبغته .

ولسوف يصنع هذا الغد الوضاء المسلم الحقيقي ، المسلم الذي وصفه إقبال بأنه مطلع فجر السعادة في العالم ومؤذن الصباح في الليل المظلم ، ومصدر التطور الصالح في التاريخ ،حتى يشرق العالم بالنور ،ويستيقظ الكون من سباته بالبعث.

المسلم الذي هو معجزة الله في الكون ، وصورة الكمال في الوجود ، والذي وعده الله بان يستخلفه في الارض ، لانه زكى روحه بالايمان ، وطهر نفسه بالعمل الصالح :

وهو الذي سينتصر في الحياة ، وسيملك زمام القيادة في العالم :

يقول العقاد [2] اذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ، ولا من أقوياء الغد المجهول ..

واقول للعقاد : ليس هناك خطر على الاسلام في يوم من الأيام حتى في عصر سيطرة الغرب وجبروته .

واقول له كذلك انه اذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به فان الصورة التي

---

(١) ص ٢٠ مجلة الوعي الإسلامي – رمضان ١٣٩٠ هـ – عبد الحليم محمود .
(٢) ١٧٩ الإسلام في القرن العشرين – ط ١٩٥٤ .

سنراها في الحياة حينئذ هي عودة الاسلام الى قيادة العالم ، وتملك زمام البشرية مرة أخرى ، لانه حينئذ لن يكون هناك صوت أعلى من صوته ، ولا قوة أشد بأسا من قوته ، وهذا مرهون بعودة المؤمن الحقيقي الى ساحة النضال من أجل رسالة الإسلام المؤمن الذي سوف ينهض العالم على يديه .

يقول الندوي[1] : «لا ينهض الإسلام الا برسالته ، والايمان بها ، والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة واضحة لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية » .

ويقول مؤلف كتاب « واجب المسلمين في نشر الإسلام » [2] لا علاج الا في الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، وان يقوم كل مسلم بما يستطيع لتحقيق هذه الغاية .

ان الذي وقف في معارك الإسلام الكبرى مؤمنا صامدا صابرا مناضلا من أجل الحق ودين القيمة ورسالة السماء إنما هو المسلم الحقيقي ، وكان هو ومن ماثله النماذج البشرية الرفيعة في تاريخ الانسان والحضارة ، وهم الذين روعوا هرقل وفزعوه في حروبهم في الشام فلما خرج منها مهزوما مدحورا ووصل انطاكية ، وأقبلت فلول جيشه اليه محطمة ذليلة ، أمر بعقد مجلس حربي أعلى وصاح في كبار قواده :

ـ ويلكم ، أخبروني، هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشرا مثلكم؟

ـ وردوا عليه : بلى

ـ فقال لهم : فانتم أكثر أم هم ؟

ـ قالوا : بل نحن أكثر منهم اضعافا مضاعفة في كل موطن .

ـ قال لهم : فما بالكم تهزمون ؟

ـ فسكتوا ، وأجابه قائد من كبار قواده قائلا : أيها الملك ، انتصروا . وهزمنا :

---

(١) كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

(٢) ص ٩ واجب المسلمين ـ للاستاذ ريدين فياض .

من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم .

ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهي عما يرضي الله ، ونفسد في الأرض .

هكذا روى ابن الأثير ، وبالصواب نطق هذا القائد المجرب، وفي غزو المسلمين لبلاد كسرى جلس رسول المسلمين في مجلس يزدجرد امبراطور الفرس ، وأقبل عليه كسرى الامبراطور يسأله : من أنتم ، وماذا تريدون ؟ وجاء الجواب واضحا قويا جليلا : ان الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل السماء . .

ان عظمة الإسلام وجلاله وحكمته وسموه وانسانيته ونبل مقصده وشرف غاياته ، تجعله دين الحياة ، وعقيدة الزمن ، وشريعة البشرية ، في كل زمان ومكان، وتجعل معتنقيه أقدر على أن يصنعوا للعالم مستقبله المتألق النبيل المنشود.

يقول المودودي [1] ان فلاح الانسانية وصلاحها في المستقبل انما يتوقف على أن تؤمن بالاسلام ، وتكفر بكل ما اخترعت من النظريات الباطلة ..
وهو صورة لتفكير الافغاني من قبل اذ كان يقول : الدين قوام الامم وفيه سعادتها وفلاحها .

ويقول برنارد شو : اني أكن كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة ، فهو الدين الوحيد الذي له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة ، وهو صالح لكل العصور .

---

(١) ٩ حاجة الإنسانية الى نظرية صالحة ، والحضارة الإسلامية والإسلام والمدنية العربية وهي كلها للمودودي .

ولقد درست حياة هذا الرجل العجيب محمد ، وفي رأيي انه يجب ان يسمى منقذ البشرية ، وأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يحكم العالم الحديث لحالفه التوفيق في حل جميع مشكلاته ، بأسلوب يؤدي الى السلام والسعادة ، اللذين يفتقر العالم اليهما كثيراً : واستطيع ان اتنبأ بأن العقيدة التي جاء بها محمد ستلقى قبولا حسنا في اوربا في الغد ، وقد بدأت تجد آذانا صاغية فيها اليوم ..

وأقول : انه لو قدر لهذا الكون أن يشهد قيام أمة إنسانية على الارض فان تكون هذه الأمة الا مسلمة ، ولن يكون قائدها الا القرآن الحكيم ، الذي يطبع أخلاق كل مؤمن به على غرار أخلاقه ، وسئلت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وإني لأعجب أشد العجب أن أرى الكثير من المفكرين العرب يحارون في أمر غد الإسلام ، وفيما سوف يكون عليه ، وفيما سيشهده فجر المستقبل من شؤونه . وهو موقف يدل على عدم وضوح الرؤية أمامهم ، وعلى سذاجة ما هم عليه من تفكير . وهم ومن ينحون منحاهم واقعون في خطأ جسيم .

ان المسلمين المعاصرين ، أو المفكرين منهم :

١ – إما جاهلون بالاسلام أو متجاهلون له ، وما أتعس أمثال هؤلاء .

٢ – واما جازمون بأن الإسلام قد انتهى زمنه ، وانه اليوم في غربة ، وغدا سيكون في أشد منها ، وما أشد خطأ هؤلاء ، لان غربة الإسلام في آخر الزمان التي جاء بها الحديث الشريف : هي غربته اليوم بيننا التي سيعقبها انطلاق وبعث ، كغربته الاولى حين بدء ظهوره وقد أعقبها ما أعقبها من البعث الاكبر والانطلاقة العظمى التي لم يشهد التاريخ ولا الانسانية لها نديدا .

٣ – واما حائرون مترددون لا يعرفون عن الغد شيئا ، وقد قلت ان أمرهم يدل على عدم وضوح الرؤية .

٤ – وهناك من يرون ان الإسلام سوف يعود الى الظهور على مسرح الحياة ، قوة عالمية ثالثة بين قوتي الشرق والغرب ، قوة بين العديد من القوى التي تسيطر على أقدار العالم والحياة .

وكنت أنا أذهب الى ذلك منذ نحو ربع قرن في مقالاتي التي نشرتها في مجلة الأزهر عام ١٩٤٦ وما بعده ، وفي كتب لي من أمثال :

الإسلام وحقوق الإنسان ، والإسلام رسالة الاصلاح والحرية ، والإسلام دين الإنسانية الخالد ، ومن ماضي الإسلام وحاضره .

ويردد العقاد ذلك الرأي أيضا في كتابه – الإسلام في القرن العشرين – المطبوع منذ ستة عشر عاماً ، فيقول [١] :

ان الإسلام مجموعة من مجاميع الأمم الكبرى في القرن العشرين .

وكذلك ذهب الدكتور محمد البهي في كتابه – الفكر الإسلامي ، مشكلات الأسرة والتكافل – المطبوع منذ سنوات قلائل .

وأشهد بخطأ هذا الرأي ، وبأني كنت به على ضلال من الأمر ، وقد خضعت فيه لواقع حياة المسلمين المعاصرين .

ولو كنت جئت الى هنا لاقول لكم اليوم ما قلته بالامس البعيد ، ولاردد أمامكم ما رددته يومئذ من ظهور الإسلام في الغد قوة عالمية ثالثة .. لما جئت الى هذا المكان ، ولما تحدثت أليكم من فوق المنبر .

ولكني أقول لكم اليوم الحقيقة ناصعة .

أقولها لكم في يقين قوي : ان الغد وحده للاسلام ، والغد للاسلام وحده .

لن يكون الإسلام القوة الثالثة بين قوتي الشرق والغرب ، لأنه لن تكون هناك قوة شرق وقوة غرب ، بل سيكون الإسلام في الغد القوة الوحيدة في العالم .

لسوف تنهار حضارة الشرق والغرب انهيارا تاما لا قيام لها معه ، وما ذلك بمحال فقد أصبحت الحرب النووية تهدد كل قوة على سطح الأرض بالفناء ، بل لو أرادت الدول العظمى السلام لما وجدت السبيل اليه ، بل ان حضارة اليوم تقوم على أساس واه ، ودعائم منهارة . ولن تجد الإنسانية يومئذ عقيدة

---

(١) ص ١٨١ الإسلام في القرن العشرين للعقاد .

تؤمن بها وتؤمن بها مصيرها الا الإسلام ، الإسلام وحده : والايمان سيكون ضرورة بشرية لان ذلك مسيرة التاريخ ، وحتمية انتصار الحضارة والعلاج الوحيد لكل مشكلات الحياة ، وهو النتيجة الاخيرة لقدرة الانسان على مواجهة التحديات التي يتحداه بها عصره وقدره.

ومن هذا المنطلق أرفض فلسفة الامام محمد عبده ومدرسته ، التي تقوم لايجاد التقاء فكري بين الإسلام وحضارة الغرب . وأرى أن الترويج والدعم لفكرة هذا الالتقاء خطأ جسيم لانه لا هدف من وراء هذا الالتقاء ، الا خضوع الإسلام لقوة الغرب وماديته ولحضارته ، وهذا هو ما يعمل له المستشرقون والكثير من الاوربيين المثقفين ، وأذنابهم من دعاة التبعية والهزيمة بيننا .

وأقول : ان الإسلام هو النموذج الكامل الشامل ولا بد ان تعود جميع النماذج اليه ، القريبة منه والبعيدة عنه على السواء ، أما أن الإسلام هو الذي رجع أو يرجع اليها فهو ولا ريب خطأ ، وأي خطأ .. ان علينا أن نستعيد تراثنا ووجودنا الحضاري الإسلامي من جديد مرة أخرى .

ولا يصح بحال أن ننسى أو نتناسى أهداف اوربا التي تعمل لها بيننا ، وفي مقدمتها العمل من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين في العالم .

ان بقاء الإسلام أمر تكرهه اوربا كل الكراهية ، وكذلك قيام بعث إسلامي جديد شيء ترهبه كل الرهبة ، وهي تقدم الخوف منه والحذر من انطلاقه ، على كل خوف وكل حذر .

انها مشغولة بأمر الإسلام مشغولية من يشعر بيقظته وترقب ما وراء هذه اليقظة ، فلا يخرجها لحظة من حسابه ، كما يقول العقاد [١] .

---

(١) ١٧٠ الإسلام في القرن العشرين – العقاد – ١٩٥٤ .

الحروب الصليبية التي امتدت نحو قرنين من الزمان [١] (١٠٩٦ — ١٢٧٠م ٤٨٩ — ٦٦٨ هـ) .

التخطيط لغزو التتار للعالم الإسلامي ، ولتدمير مراكز الحضارة الإسلامية في العالم بأيدي التتار ، مما نجم عنه ، سقوط بغداد في يوم الاحد الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ العاشر من فبراير ١٢٥٨ بتحريض العالم المسيحي .

سقوط الأندلس في الحادي والعشرين من المحرم عام ٨٩٧هـ ١٤٩٢م [٢]

كشف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤ هـ — ١٤٩٨ م بارشاد ابن ماجد الربان البحري العربي المسلم ، وتحول التجارة العالمية مع الهند إلى هذا الطريق ، وافقار شعوب العالم العربي بفقدانهم للرسوم التي كانوا يجبونها من هذه التجارة اثناء مرورها من قبل ببلدانهم .

ثم الحملة الفرنسية على الشرق العربي ١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م وقيام الاستعمار الاوربي وتدميره للعالم الإسلامي ، واحتلال الغرب لاراضيه ولاملاك وامبراطورية الإسلام ، ونهبه لكنوزه وثرواته وتراثه وحضارته وفرضه عليه الحضارة والاحتلال الغربية فرضا ، وازالته لمعالم الحضارة الإسلامية من بلاد المسلمين .

---

(١) صنع الصليبيون من الفظائع مالا يمكن أن يتصوره إنسان ولما احتلوا بيت المقدس في شعبان ٤٩٢ هـ — يوليو ١٠٩٩ ذبحوا فيه تسعين ألفا من المسلمين ، وكتبوا إلى البابا يهنئونه ويقولون له : ثق أنه في ايوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء المسلمين — وحينما دخلوا مدينة طرابلس الشام دمروا فيها وحدها دار كتب بها ما يزيد على ثلاثة آلاف ألف كتاب مخطوط .

— راجع الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور في جزأين .

(٢) ٢٥٢ الدعوة الى الإسلام ارنولدو وتوماس — ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين .

(٣) راجع : — مأساة انهيار الوجود العربي من الأندلس لعبد الكريم التواني — نهاية الأندلس — لمحمد عبد الله عنان .

ظهور المسألة الشرقية وتخطيط الغرب لنهاية الخلافة العثمانية ، والامبراطورية الإسلامية التركية .

قيام اسرائيل في الرابع عشر من ايار عام ١٩٤٨ بتدبير من الغرب منذ صدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ .

كل ذلك سلسلة ضخمة من سلسلات الاحداث والمؤامرات التي صنعها الغرب المسيحي واحلافه من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين على امتداد التاريخ .. محاولات مستمرة من أجل الوقوف في وجه التيار الإسلامي وفي وجه شعوبه والمؤمنين به .

ولكن ربك لهم بالمرصاد ، فعلى مرور الايام والاجيال لم يخلد الإسلام الى الهوان ومشيئة الطغاة أبدا ، بل سار شامخ الرأس مرفوع اللواء ، وضاح الجبين ، يبني الحياة ويصنعها ، يبدل الهزيمة نصرا ، يطلع من ظلام الليل البهيم فجرا وفجرا .

انتصر في معركة حطين الخالدة على جيوش الصليبيين — السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني ٥٣٨ هـ — الخامس من يونيو ١١٨٧ م ، واستعاد بعدها بيت المقدس ، من أيديهم ، بعد احتلالهم الغاشم لها ، احتلالا دام نحو نصف قرن من الزمان — ٤٩٢ — ٥٣٨ هـ : ١٠٩٩ — ١١٤٤ م .

وهزم جيشه جيوشهم هزيمة مروعة في معركة المنصورة المشهورة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠م وأسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا ، وانتصر في معركة عين جالوت العظيمة على التتار في يوم الجمعة الخامس والعشرين ن رمضان عام٥٦٩هـ — ١٢٦٠م.

وفتحت القسطنطينة في الثلاثين من مايو عام ١٤٥٣ م — ٨٥٧ هـ وانتشر الإسلام في كل مكان ، في الهند والصين وجزر المحيط الهادي ، وفي افريقيا وأوربا نفسها ، انتشارا بالغا .

وأخذت الشعوب تدخل فيه بطريقة جماعية غير مألوفة .

في عام ٣٠٩ هـ : ٩٢١ م اتصل ملك الفولغا بالخليفة العباسي المقتدر بالله ، وبعث اليه المقتدر من يرشده الى الإسلام ، وأسلم هو وشعبه .

وفي عام ٣٨٨ هـ : ٩٩٨ م عرض أهل البلغار على الخلافة العباسية رغبتهم في دراسة الإسلام ليدخلوا فيه ، ولكن باباوات اوربا سبقوا المسلمين اليهم ، فاعتنقوا المسيحية .

وفي عام ٦٨١ هـ : ١٢٨٢ م أسلم أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو تكودار خان ٦٨١ -- ٦٨٣ : ١٢٨٢ — ١٢٨٤ وذلك في عهد السلطان قلاوون بمصر ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م كما ذكر القلقشندي [١].

وفي الرابع من شعبان ٦٩٤ هـ التاسع عشر من يونيو ١٢٩٥ م اعتنقت الإسلام شعوب المغول في عهد ملكهم غازان خان ، وصار هو الدين الرسمي لدولتهم ، ودخل فيه في يوم واحد مائة الف منهم ، وباسلامهم أخذ العالم الاسلامي يسترد جانبا من الطمأنينة على حاضره ، وبدأ العلماء المسلمون يبنون من جديد مراكز الحضارة الاسلامية التي سبق تدميرها ، وأخذ ملوك المغول يرفعون المظالم عن كاهل الرعية ، ويكفرون بذلك عما قاموا من سيئات في حق الاسلام وشعوبه.وباسم الاسلام وصلوا الى أوربا،وبلغوا رسالته كاملة ، وان كانت حروبهم قد دمرت مرة أخرى المراكز الجديدة للثقافة الاسلامية، كما دمر الاتراك في فتوحاتهم ما نشأ من مراكز أخرى ، ولكنهم حملوا مشاعل الاسلام الى أوربا ، وبلغوا رسالته كما حملها الغزنويون من قبل الى الهند والصين وفي عام ١٨٦٣ م كانت معركة تركيا الفاصلة مع الغرب المسيحي أمام اسوار فيينا حيث ارتدت جيوشها مهزومة بعد وقفتها الطويلة حيالها

ومع ما أصابها من قبل ومن بعد ذلك من هزائم ، فقد بقيت حصنا للاسلام ودرعا يحمي المسلمين ، وما موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية ، وحسبه ذاك فخرا ، عنا ببعيد .

---

(١) ١ : ٦٥ — ٦٨ : ٧ : ٢٣٧ — ٢٤٢ صبح الأعشى للقلقشندي ، وراجع : المغول بين المسيحية والإسلام ، والمغول في إيران : وهما لمصطفى طه بدر .

ذهب اليه وفد يهودي من جمعية احياء صهيون وعرضوا عليه ، بوساطة رئيس وزرائه تحسين باشا عروضا مغرية هي :

١ — تعهدهم بسداد جميع ديون الخلافة ومقدارها ٢٣٣ مليون ليرة انكليزية ذهبية .

٢ — تقديم قرض للخلافة بمبلغ ٣٥ مليون ليرة ذهبية ، دون فائدة .

٣ — بناء اسطول بحري تجاري للدولة ، يكلف ١٢٠ مليون فرنك فرنسي .

على أن يسمح الخليفة لليهود بانشاء مستعمرة لهم قرب بيت المقدس وأن يباح دخولهم إلى فلسطين للزيارة في أي يوم من أيام السنة .

وكان جواب الخليفة المسلم ما نصه هو :

يا تحسين ، قل لهؤلاء اليهود الوقحين ما يلي :

١ — ديون الدولة ليست عارا عليها ، فغيرها من الدول مثل فرنسا مدينة ، وذلك لا يضيرها .

٢ — ليحتفظ اليهود بأموالهم فالدولة العالية لا يمكن ان تحتمي وراء حصون بنيت بأموال اعداء الإسلام .

٣ — بيت المقدس افتتحها للاسلام عمر بن الخطاب ، ولست مستعدا لان احمل في التاريخ وصمة بيعها لليهود ، ولا لخيانة الامانة التي كلفني المسلمون بحملها .

٤ — وأخيراً : مرهم ، فليخرجوا من عندي ، ولا يحاولون بعدها مقابلتي ، أو الدخول الى هذا المكان أبدا .

وخرج اليهود ليتآمروا مع الاستعمار على السلطان عبد الحميد ، فقامت الثورة عليه ، وأقصي عن عرشه ثم محيت الخلافة من تركيا ، وكانت الأموال التي أنفقوها بهدف التخلص منه هي السبب الرئيسي لكل ما حدث ، ولكنه لقي ربه شريفا راضيا مرضيا .

ومع ذلك كله ، ومع المحن التي نزلت بالاسلام وشعوبه ، فلا يزال ذعر أوربا من يقظة المسلمين هو هو حتى اليوم ، لم تمحه الأيام ، ولم تخفف من من شدته الخطوب التي نزلت بالعالم الإسلامي .

وينطق مفكر مسيحي متعصب ، هو غوستاف لوبون ، بما يصور ما أصاب أوربا من قبل ومن بعد من فزع ، لامتداد نفوذ الإسلام وسلطانه ، فيقول :

الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الاعداء ارهابا عدة قرون وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة ونحن لم نتحرر من نفوذهم الا بالامس .

ومن قبل وفي القرن الرابع عشر الميلادي صاح الشاعر الايطالي المشهور بترارك ١٣٣٤–١٣٧٤م فقال يرسم صورة لذعر بلاده من الاسلام وفكره الحضاري :

يا عجبا ! لقد استطاع شيشرون : ١٠٧ – ٤٣ ق. م. ان يكون خطيبا بعد ديموستين ، واستطاع فرجيل : ٨٩–١٩ ق.م. أن يكون شاعرا بعد هوميروس عاش في القرن التاسع قبل الميلاد – فهل قدر علينا الا نؤلف بعد العرب ، لقد تساوينا نحن والاغريق وجميع الشعوب غالبا ، وسبقناها أحيانا الا العرب ، فيا لعبقرية ايطاليا النائمة الخامدة .. وكم كان أسف بطريرك قرطبة شديدا لان كل الشبان المسيحيين في اسبانيا بعد طردهم للعرب من بلادهم كانوا لا يعرفون الا لغة العرب وآدابهم .

وحين وقف فيكتور هوغو شاعر فرنسا في القرن التاسع عشر أمام حضارة الاسلام في الأندلس وقف مبهوراً مأخوذاً بعظمتها ممثلةً في قصر الحمراء . مما صوره في قصيدة من روائع شعره ..

ووقف اقبال شاعر الاسلام أمام حضارة المسلمين في صقلية ، وغلبه التأثر فبكى ، وقال في قصيدة له :

– .. ابك أيها الرجل دما لا دمعا ، فهذا هو مدفن الحضارة العربية .

وتدمير أوربا لمعالم الحضارة الإسلامية في بلادها وفي خارج بلادها ، معروف ، رغبة منها في القضاء على التراث الاسلامي العريق .

هذه هي أوربا الحاقدة على الاسلام وشعوبه ، والتي تفزعها رسالة محمد وكتابها السماوي الحكيم ، شرقها وغربها في ذلك سواء .

انها ترهب الاسد وترتعد خوفا منه ، ولهذا تعمل بكل طاقاتها لمنع انطلاقه ويقظته ، حتى لا يشهد وطنه بعثا جديدا .

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون [1] .

لقد مدت المسيحية يديها الى الوثنية المادية ، والى الوثنيات الاخرى ، تستعين بها في محاربة الاسلام ، وفي القضاء عليه في بلاده وفي بلاد كانت اسلامية آمنة ، مثل القرم والقوقاز ، وبخارى وسمرقند وخوارزم ، ومثل زنجبار والفليبين وموزامبيق وغيرها . ومن ثم رأينا الصهيونية تجد معاونة ، وتلقى مؤازرة من الدول اليسارية ، وغير اليسارية التي تعادي العرب والاسلام . وهذا كاسترو ينصح السفير الاسرائيلي في بلاده ، كما ذكرته صحف كوبا من اذاعتها ، وترجمته عنها صحفنا العربية ، فيقول له :

— .. على اسرائيل الا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعا اسلاميا دينيا ، حتى لا يجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني ، مما يجعل من المستحيل على اسرائيل أن تصون كيانها ، لان الفداء اذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة في المجتمعات الاسلامية ، تلاشت أمامه كل العقائد الاخرى ، بما فيها الماركسية .

سيعلم الناصح غير الامين كاسترو أنه هو ومن ينصحهم سوف يبوءان بالخسران العظيم ، والذل المقيم ، باذن الله .

---

(١) ٨ و ٩ سورة الصف — واقرأ الآيتين الكريمتين من سورة التوبة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون — ٣٢ و ٣٣ سورة التوبة .

ان جميع القوى في العالم تقف في مواجهة الاسلام ، لترصد حركاته ، والتعرف الى خطواته ، والتسمع الى أخباره ، ما خفي منها وما ظهر ، ليدبروا المؤامرات له في كل مكان ، وتحرص جميع وسائل الاعلام العالمية والصهيونية على تجسيم خطر أية خطوة يخطوها المسلمون ، ليلفتوا الانظار في العالم الصليبي واليهودي والشيوعي اليها ، وليعملوا متكاتفين من أجل القضاء عليها ، ويجتمع القادة بين الحين والحين للتخطيط لمستقبل الشرق الاوسط في غياب الاسد الهصور عن عرينه ، ولكنهم سوف يفاجأون في يوم من الأيام باذن الله بما لم يكن لهم في الحسبان،وبما لم يدر في خلدهم وتفكيرهم على طول الزمان.

وصدق الله العظيم : ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الاذلين ، كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ، ان الله قوي عزيز [1] .

— ٥ —

وأعود فأسائل نفسي :

ما العقبات التي تقف في وجه البعث الذي ننتظره ،عدا كل ما ذكرت من عقبات ، وما الحواجز التي وضعت حجر عثرة لتحول دون بلوغ المسلمين غاياتهم الجسام [2] ؟

وأجيب على هذا السؤال :

انها عقبات كثيرة ، اقامتها الصليبية والصهيونية والاستعمار والماركسية ، بعضها ظاهرة وبعضها خفية ، وكلها تعمل على اضعاف الايمان من أنفسنا بأنفسنا وبديننا وبمقوماتنا، وعلى ترك اليأس يدب الى قلوبنا ، وعلى الاستسلام المطلق لمدية عدونا وهو يجهز علينا،حتى لا نتحرك ولا نتململ ولا نقول له كلمة،

عقبات وما أكثرها ، وأشد صلابتها وشراستها وضخامة امكانياتها وقدرتها

---

(١) ٢٠ و ٢١ المجادلة .

(٢) راجع : الإسلام والتيارات المعاصرة لعمر بهاء الدين الأميري .

على محاربتنا [١] .. ومع ذلك فمن الايمان الا يحسب لها مسلم قوي العقيدة حسابا ، والا يفتح للقنوط في أعماق نفسه وعقله بابا ، أما غير المؤمن بنفسه ودينه وكتابه وماضيه ، ولا بحتمية انتصار هذا الدين في معارك الحياة ، فشأنه وما يريد ، وان كنا نتمنى أن يعود الايمان والامل والثقة الى روحه من جديد [٢] .

هذه الحضارة الغربية ، بكل فلسفاتها وايديولوجيتها وماديا‌تها وطاقاتها ومذاهبها ووسائلها وابتكاراتها ، من الرصاصة الى القنبلة الهيدروجينية ، والذرية والصواريخ وغيرها .. وبكل ما يقام من أجل نموها وبقائها من جامعات ومعاهد ومصانع وشركات ومؤسسات ، وبما يرصد لها من أموال واستثمارات وثروات منهوبة .

هذه الحضارة هي أمر هائل ضخم يحسب حسابه في لغة الارقام ، وهي شيء رهيب مفزع مخيف في نظر المسلم العادي ولكنها مع ذلك ، وكما نؤكد ، أوهى من بيت النمل ، وأوهى من بيت العنكبوت .

---

(١) راجع : الإسلام تجاه تحديات العصر – حسن صعب .
(٢) راجع : الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للمودودي .
– روح الإسلام لمحمد عطية الابراشي – من توجيهات الإسلام لشلتوت .
– روح الإسلام لسيد امير علي ترجمة عمر الديراوي .
– روح الدين الإسلامي لطبارة .
الصورة الأدبية في القرآن الكريم
– نظام الإسلام لمنصور علي رجب .
– حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد .
– ما يقال عن الإسلام له أيضا – العدد ١٨٩ من كتاب الهلال .
– خصائص التصور الإسلامي ومقوماته .
– تاريخ المذاهب الإسلامية لأبو زهرة .
– أثر الترجمة في حضارة العرب .
– الإسلام والعرب – روم لاندو .
– تراث الإسلام – كارا دوفو .

ذلك أنها بناء بدون أساس ، وجسم بلا روح ، ومادة بلا عقل ، وأهواء بلا عقيدة ولا تنطوي على نزعة انسانية أو خلقية ، حتى لنراها يدمر بعضها بعضا ، ويحطم جانب منها جانبا آخر ، وهي تقف كل لحظة على أبواب الفناء الذري الذي لا يطمأن معه الى شيء . واذا كانت هذه الحضارة قد يسرت الحياة أمام الانسان ، فانها قد رجعت به القهقرى الى حياة الغاب والى التأخر والوحشية ، وبعد أن كان الاسلام قد حرر الانسان من العبودية والخضوع للفرد أو للمجتمع ، عادت به هذه الحضارة من جديد الى انتكاسة وفقدان الحرية وإلى سجن الظلم الظلام والخضوع المطلق لحكم القوة والاستغلال .

على أن رأس المال الضخم الذي يدعم هذه الحضارة لا يرهبنا ، فمن الممكن تدبير الكثير منه ، لان خيرات من بلادنا وكنوزها تمثل قسما كبيرا منه ، وقسم آخر هو ثمرة الفكر والعلم والدؤوب على استغلال كل نعم الله في الوجود ، ولا يعجزنا ان نسير في هذا الميدان ننافس فيه غيرنا ممن سبقونا ، لان لنا من العقل ما للغرب من عقل وتفكير ، اما القسم الثالث من رأس المال هذا فهو من صنع الربا والاحتكار ، وبسببه يسلط الله الحروب على الارض لتبتلع هذه الاموال الضخام الحرام ، ويرسل عليها الخوف ، فهي في السلام في خوف من الحرب كما لو كانت قد أعلنت الحرب ، سواء بسواء . وما ينفق على صنع مركبة قمرية مثلا شيء طائل كان يمكن ان يكون وسيلة سعادة ورفاهية للملايين من المحرومين .

وفوق ذلك كله فان هذه الحضارة الغربية قد نال منها الهرم ، وأدركتها الشيخوخة ، واقتربت من حافة الفناء ، يقول اقبال :

– مثلت حضارة الغرب دورها ، وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، سوف ينهار العالم الذي حوله مغامرو الغرب الى حانة للفساد عما قريب ، ولقد رأيت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية الاخلاقية العلمية ، ولسوف تتمخض الانسانية عن عالم جديد وهذا العالم لا يحسن تصميمه الا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمدا وابراهيم قيادة العالم .

وما قاله اقبال يقوله كذلك مفكرو العالم وفلاسفته كل يوم . وميزان القوة في العالم متغير أبدا وعلى امتداد التاريخ ، ومن ذا الذي كان يتصور امكان تصفية قوة المانيا العسكرية ، أو الامبراطورية البريطانية العتيدة .

على أني لا أعتقد أن نسبة ما يملكه العالم الإسلامي اليوم الى حضارة الغرب الراهنة ، أقل من نسبة ما كان في أيدي أسلافنا الى ما كانت تملكه الحضارتان الفارسية والرومانية بعد ظهور الاسلام .

وتعالوا معي الى هذه الحضارة الغربية ، اليست هي حضارة القمار والربا والمكيافيلية الشريرة ، والايديولوجيات العفنة، والتفرقة العنصرية البغيضة ، والاستعمار والتخلف الوحشي ، حضارة الاباحية الشائعة ، والشهوات العارمة والجنس الآثم ، والمادية الملحدة ، والعلمانية الكافرة ، والصهيونية الخبيثة ، والصليبية العدوانية .

وأين هي من القيم الروحية والانسانية الرفيعة التي قامت بها حضارة الاسلام [1] على أن هذه الحضارة الغربية انما قامت على الفكر الاسلامي وحضارته ، فلقد سرقت اوربا حضارتنا وبحوث أسلافنا وكنوز تراثنا المخطوطة ومناهج فلاسفتنا وتجاربهم وأفكارهم [2] مثل ما سرقت ممالك المسلمين وامبراطوريتهم الكبرى التي لم تكن تغيب عنها الشمس ، وأقامت على أنقاض جامعاتنا ومكتباتنا ومعاملنا ومعارفنا حضارتها الماثلة أمامنا . يقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » :

---

(١) راجع : — مقام العقل عند العرب لقدري طوقان .

(٢) راجع : — أثر العرب في الحضارة الاوروبية للعقاد — فضل العرب على أوروبا لفؤاد حسين .

— مآثر العرب على الحضارة الأوروبية لجمال مظهر .

— أثر العرب في حضارة اوروبا للشوباش — طبع بيروت شمس العرب تسطع على الغرب زيغريد هونكة تعريب بيضون ودسوقي .

— الإسلام والحضارة الغربية — محمد محمد حسين .

— نحن والحضارة الغربية — المودودي .

— أوربا مدينة للعرب بحضارتها ، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والادبية ، فكانوا ممدنين للغرب ، وأئمة له في ستة قرون ، وعن طريقهم اهتدى الغرب الى تراث الاغريق ، واكتشف ماضيه وأخذ ينضب عنه .

وتقول المستشرقة الالمانية هونكة : كل موجة علم أو معرفة قدمت لاوربا كان مصدرها البلدان الاسلامية (١) .

ويجب أن نلحظ أن الغربيين قلما يذكرون كلمة الاسلام في كتاباتهم ، ويبدلونها دائما بلفظة العرب ، يقولون : حضارة العرب ولا يقولون : حضارة الاسلام ويقولون : التراث العلمي للعرب ، ولا يقولون للمسلمين .. ذلك لان كلمة « الاسلام » ثقيلة على أفواههم ، وهم حاقدون عليه ، حاسدون له ، خائفون منه ، ولا يحبون أن ينسبوا له فخرا أو مجدا . ونحن لا نؤاخذهم ، بل نكشف طويتهم . أما المؤاخذة فهي لكتابنا العرب المسلمين الذين يتابعونهم .

محمد كرد علي يكتب كتابه « حضارة العرب » .

الكعاك يكتب « الحضارة العربية » .

العقاد يكتب « اثر العرب في الحضارة الاوربية » .

طوقان يكتب « العلوم عند العرب » .

وهناك كتاب نشرته الجامعة الامريكية في بيروت عنوانه :

« نشاط العرب العلمي في مائة سنة » .

وما أكثر ما نسمع ونقرأ : « الحضارة العربية » .

يقول أحد كتابنا المعاصرين ، وهو محمود عزمي :

— الثقافة العربية اسلامية في أصلها ، ولم توجد الا بالاسلام ، والمخلصون من مسيحيي العرب يعلمون حق العلم أن ثقافتهم في أصولها اسلامية (٢) وكذلك الحضارة العربية (٣) .

---

(١) ٥٤١ شمس العرب تسطع على الغرب .

(٢) راجع : كتاب : الإسلام والعرب تأليف روم لا ندو .

(٣) راجع : الحضارة الإسلامية والإسلام والمدنية العربية وهما للمودودي .

ان الاسلام هو الذي منح حضارته طابعها الاصيل من الجمع بين العلم والدين ، لاول مرة في التاريخ .

ونذكر في هذا الموقف تقريرا سريا رفعه الى الرئيس الامريكي جونسون مستشاره الأول روستو عام ١٩٦٤ ، وجاء فيه :

لقد كان الحوار بين المسيحية والاسلام محتدما على الدوام منذ القرون الوسطى . ومنذ قرن ونصف خضع الاسلام لسيطرة الغرب ، أي خضعت الحضارة الاسلامية للحضارة الغربية ، والتراث الاسلامي للتراث المسيحي ، وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة في المجتمعات الاسلامية حتى بعد انتهاء اشكالها السياسية ، بحيث جعلت المواطن العربي يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم ، لا يدري كيف يتفاعل معها في علاقاته الداخلية والخارجية على السواء .

لقد تحرر من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع التحرر من سيطرته الحضارية ، حتى أن معرفته بتاريخه وحضارته وتراثه تعزى الى المثقفين الغربيين—يعني المستشرقين—ان غلبة الحضارة الغربية في الشرق وهي هي العدو القديم للحضارة الاسلامية قد أورثت العربي المسلم الشعور بالضعة والمهانة والصغار أمام طغيان تلك الحضارة التي يمقتها ويحترمها في نفس الوقت ، لقد استطاعت بعض الدول الشرقية كتركيا وايران تطوير علاقاتهما بالغرب على أساس مصالحهما القومية ، لكن السياسات العربية ما تزال تعيش على أحلام وأمجاد الامبراطورية الاسلامية .

وأقول لروستو : لماذا تفزعون من أحلام الامبراطورية الاسلامية ، ان العرب لن يتحرروا من اساركم وأغلال حضارتكم التي تذلونهم اليوم بها الا بعد ان تصبح أحلامهم ايمانا وعقيدة تنطوي عليها جوانحهم ، وما ذلك ببعيد، وان كان هو الامل الذي تحذرون أن يصير واقعا حيا لشعوب الاسلام .

— ٦ —

وثانية هذه العقبات :

الغزو الفكري الصليبي للشرق الاسلامي العربي [١] ونشوء طبقات جديدة من أبنائنا أصبحت لا ترى الحياة الا بمنظار الغرب وثقافاته وفلسفاته وفكره ، وترى ان فكر بلادها وتراثها ، بل دينها عبء ثقيل يجب طرحه والتحرر منه ، وألا يبقى له أثر في حياة المسلمين المعاصرين أيضا .

ووجدنا في محيطنا من يقول أنه لا يقرأ كتابا عربيا ، أو كلمة لكاتب عربي ، وكان طه حسين يقول : انني أفكر بالفرنسية وأكتب بالعربية .

ومن هذا المنطلق الغريب ، وهو خضوعنا الكامل للثقافة الغربية ، وغزوها الفكري لاعماق نفوسنا أصبحنا نجد من يصف الاسلام العظيم بأنه دين رجعي ومن يتحدث عن قطع يد السارق بأنه عمل بربري ، ومن يقول من المبعوثين العرب الى جامعات العالم انه لم يستطع الدفاع عن قضية الحدود الاسلامية وعدالتها أمام الشباب الغربي أو الامريكي ممن يتصورون ذلك عملا منافيا للانسانية ، وكأن الانسانية وحدها عندهم انما هي في مثل عزل نحو خمس السكان في الولايات المتحدة عن الحياة بناء على فلسفة التفرقة العنصرية .

وأصبحنا نجد من يرى أن الثقافة الاسلامية تراث متخلف وفكر غريب ، يجب أن ترمى كتبه الصفراء في النار ، ومن يقترح للتخلص من هذا التراث أن نكتب لغتنا بالحروف اللاتينية مثل تركيا ، أو أن نتخذ اللغة العامية لغة لنا ،

---

(١) راجع : تجديد الفكر الإسلامي لا قبال ، ترجمة عباس محمود .
— الفكر الإسلامي المعاصر ، غازي التوبة .
— الغزو الفكري ، محمد جلال كشك .
— تاريخ الفكر العربي ، عمر فروخ .
— الفكر الإسلامي الحديث ، محمد المبارك .
— الفكر الإسلامي ، محمد البهي .
— الفكر الإسلامي ، محمد الشبلي .
— أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام ، علي الجندي .

والهدف من ذلك كله قطع صلتنا بماضينا وحاضرنا جملة ، والارتماء في أحضان أعدائنا ليكملوا الاجهاز علينا بمداهم المشحوذة [1] .

ويجدد بعض المستغربين من العرب زعمهم الباطل أن الاسلام خصم للعلم والعقل ، وانه دين الغيبيات ، وسبب ضعف المسلمين اليوم ، يرددون في ذلك كله أقوال أعداء الاسلام من الصليبيين والماركسيين والصهيونيين .. يقول مثلا كليموفتش في كتابه «الاسلام» المطبوع في موسكو عام ١٩٥٦ : الاسلام في جوهره ما زال ولا يزال عدوا للعلم .

ويقول ماركسي آخر : الاسلام عدو للعلم .. ونود أن نسأل مع العقاد : هل يؤمن عقل الانسان بالدين في هذا العصر ، ويرى دينا أحق بالايمان به من الاسلام ؟

ولماذا لا يؤمن عقل الانسان بالدين .. أليس أعظم رجال البحث العلمي في اوربا كانت نفوسهم مشربة بالشعور الديني العميق .

طبقات كثيرة من كتابنا أصبحت تنطق بلسان الثقافة الغربية ، وتعبر عنها تعبيرا كاملا ، ومن ثم صارت تعادي الاسلام والفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية لالشيء الا أنها تقف في مواجهة طغيان هذا الغزو الفكري لعقولنا ، وصارت لا ترى بدء النهضة الحديثة في العالم العربي الا بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر والشرق العربي ، كأن العرب لم يعرفوا التقدم الا في ظلال الغرب وبعد اتصالهم بثقافته وحضارته .

ويضاعف من خطر هذا الغزو الفكري عمل الجامعات والمدارس والكليات الاجنبية في بلادنا ، وتأثر المبعوثين من شبابنا الى جامعات الغرب بالفكر الاوربي المعادي للاسلام وللعرب ، وذلك طيلة قرن ونصف من الزمان . ثم جهل شبابنا بالثقافة الاسلامية ومصادرها وتراثها جهلا تاما الا ما يعرفونه عنها من مطالعاتهم لكتب المستشرقين .

---

(١) راجع كتاب : العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والفكري ، لأنور الجندي – وكتاب : المثل الأعلى للحضارة العربية – محمد البهي .

ونجد مثل هذه الآراء الغريبة مبثوثة في كتابات الكتاب المعاصرين ، وعندما نقرأ مقدمة كتاب في منزل الوحي لهيكل ، أو كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين أو مقالات أمين الخولي ، أو آراء لطفي السيد ومنصور فهمي واسماعيل مظهر واحمد زكي ابو شادي والعقاد في مستهل حياتهم الفكرية ، نجد العجب العجيب من طغيان الفكر الغربي في أدبهم ، وانحرف بعض كتابنا من العلماء بحسن نية فساروا في هذا المجال كالشيخ محمود ابو رية ، ومحمود الشرقاوي ، وخالد محمد خالد وغيرهم ... ودع عنك كتابات ساطع الحصري وتلاميذه ، وجرجي زيدان وسلامة موسى ، وامين الريحاني وجبران وميخائيل نعيمة ، والبستـــاني ولويس عوض ، وسواهم من دعاة المادية والعلمانية والوجودية والهيبية ، وغيرها ...

وبتأثير هذا الغزو الفكري أصبحت مذاهبنا الادبية والتقدمية والفنية والفكرية والعلمية صدى للفكر الاوربي وحده ، وصقلت الجامعات العربية المدنية هذه المناهج بالأسلوب العربي ، واحتفت بها ، وتبعتها في الاحتفاء بها الجامعات الاسلامية .

بل لقد خضعت مناهجنا التربوية والتعليمية للطابع الغربي خضوعا تاما ، وأصبحت محتاجة الى الترقيع يوما بعد يوم ، حتى قرأنا مؤخرا على لسان عربي كبير ان هذه المناهج صارت مستعصية على الترقيع [1] .. ولم تعد صحفنا ومجلاتنا العربية اليوم تحتفي برأي أو فكر الا اذا كان تعبيرا كاملا عن الثقافة الغربية .

والمنصفون من المستشرقين يؤاخذوننا على ذلك اليوم ، لانهم لا يجدون لنا طابعا خاصا من الفكر والادب ، وفي العام الماضي زار شارل بيلا المستشرق الفرنسي المملكة العربية السعودية فسأل صحفي :

— ماذا تقرأ ، الأدب العربي القديم أم الحديث ؟

---

(١) في التربية الإسلامية اقرأ : — منهج القرآن في التربية لمحمد شديد .
— التربية الإسلامية لأحمد شلبي .

فأجابه : القديم وحده .

فقال له الصحفي : ولماذا لا تقرأ الادب الحديث ؟

فأجابه : لانه أدب غربي مكتوب بحروف عربية .

وكثير من أدبنا المعاصر ما هو الا ترجمة حرفية لآداب غربية منشورة في كتب او دوريات مختلفة .

ولما عاد بعض كتابنا الى دراسة الاسلام في مصادره العربية الاسلامية ، كهيكل والعقاد ومنصور فهمي وطه حسين وغيرهم . وقفوا مذهولين أمام عظمة الاسلام ، وقوة تياره وجلال ضوء نهاره ، وظهر أثر ذلك فيما كتبوه عن الاسلام والسيرة النبوية [١] .

وألفت النظر هنا الى المؤتمرات الاسلامية والى مؤتمرات الاديان كذلك ، التي تعقد في بلاد غير اسلامية ، وهي مؤتمرات يهدف الغرب بها الى تضليل الفكر الاسلامي والمحافظين على مثله ، والى تفسير الاسلام تفسيرا خاطئا يجنح به الى الخضوع التامللفكرالغربي ولذلك يعقدونها كثيراً في بلادغيرمسيحية مثل اليابان وروسيا وغيرها ، لانكار طابعها الغربي المسيحي .

وأمامي مثلا صحيفة تصدر هنا ، وتخصص نحو الصفحة لمؤتمر سمته مؤتمر الدين الاسلامي الذي عقد لاول مرة في اليابان ، ويبث كما تقول الصحيفة في تعاون الاديان لخدمة السلام ، وتقول : ان الذي مثل لبنان في المؤتمر الاسلامي هو الدكتور حسن صعب ، ولكن اسمعوا ما يقول ممثلنا الدكتور صعب أو الدكتور حسن :

ــ لقد ركزت الجهد على التوعية ، وربطتها بحقائق الوضع الحضاري الانساني وتفادي التعويل على تفوق الشرق الروحي كبديل للتفوق المادي ، والسعي لتطوير القيم الروحية .

وهذا كلام واضح في مغزاه كل الوضوح ، فهناك توعية وهي مربوطة بحقائق الوضع الحضاري والانساني وهناك تطوير للقيم الروحية أي قيم الاسلام

(١) راجع : حياة محمد لهيكل ، وهيكل وحياة محمد لحسين فوزي .

الذي يمثله الدكتور صعب ، وهناك انكار لنظرية تفوق الشرق الروحي .. شيء جميل .. ويقول بيان الدكتور صعب الذي بعث به الى صحفنا العربية ونشرته بحسن نية : لقد أوجد المؤتمر فرصة انفتاح جديد بين أديان الشرق الاوسط وأديان الشرق الاقصى الحلولية ، ومعنى ذلك بدء العمل على تفاهم جديد بين الاسلام مثلا ووثنيات الشرق الاقصى .

الاسلام لانه الدين الرئيسي للشرق الاوسط ، والوثنيات الحلولية في الشرق الاقصى يراد لها ان تتفاهم ، تتفاهم على ماذا – بالطبع على مزج الاسلام بالوثنية وشعائرها .. هذا مثل من أمثلة الغزو الفكري بمختلف أساليبه ومنطقه ومناهجه من العمل ضد الفكر الاسلامي ، ولكن الله من ورائهم محيط .

وبهذه الروح أيضا دارت مناقشات مؤتمر النهضة العربية الذي دعت اليه جامعة لوفان البلجيكية حول مستلزمات التكيف مع الفكر الحديث [1] .

أما ثالثة العقبات التي يظن انها تقف في سبيل بعث اسلامي جديد ، فهي تدمير الاستعمار الغربي عن طريقه وطريق أذنابه لكل جوانب الحياة الاسلامية الفاضلة النقية في مختلف بلاد الاسلام .

لقد أخضعنا لماديته ، ولمذاهبه الهدامة ، ولالحاده ، ولفلسفاته في السلوك والاخلاق والعادات والطعام والشراب واللباس ، ولغير ذلك من مجالات الحياة ، وخضعنا بتأثير ذلك لافكار الجنس ، ومن بينها : حقوق المرأة السياسية ، وخروجها من البيت ، والاختلاط والرقص ، والازياء الفاضحة ، والاصطياف على الشواطىء الخليعة ، والتحلل من أعباء الزواج والاسرة والاولاد ، وتفضيل النوادي الليلية على كل شيء ،والانطلاق مع الشهوات العارمة في كل واد ، ولسان الحال مع أبي نواس في بيته المشهور :

وكنت فتى من جند ابليس فانتهى ... بي الحال حتى صار ابليس من جندي

---

(١) راجع جريدة الحياة – نوفمبر ١٩٧٠ .

وذاع وباء الجنس والعري في السينما العالمية ، وفي مختلف الاعلانات الصحفية .

وليس الامر كذلك فحسب ، بل فتحت في بلاد الاسلام بيوت للبغاء ، وحانات للخمور ، وانتقل الينا الاقتصاد الغربي الربوي على اطلال المذاهب الاسلامية في الاقتصاد ، واتخذت مصارفنا ضرورة منهج المصارف الغربية ، لانها لا يمكن ان تستقل باقتصاد منعزل عن العالم ، وأخذ بعض علمائنا لذلك يفتون بحل الاقتصاد الربوي للضرورة والمصالح المرسلة ، وهم في ذلك جد مخطئين ، لأن المسلم الكامل لا بد أن يتمسك بنصوص دينه كلها كاملة غير منقوصة ، ولنعد الى عالم فرنسي ، جاك اوستروي في كتابه — الاسلام أمام التطور الاقتصادي — الذي نشر في باريس عام ١٩٦١ فماذا يقول : يقول في صفحة ١١٢ مانصه : ان الاسلام ليتمتع بامكانيات هائلة ، واذا ماوجد الطريق الصحيح فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده ، ثم يرى أنه أقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد الروسية والغربية .

ونحن نعرف أن تطبيق الاقتصاد الاسلامي في مجتمع عربي يأخذ اليوم بكل أساليب الحياة الغربية أمر صعب ، وأن من الواجب أن يكون للاسلام القيادة والتوجيه في حياتنا في كل جانب لانه نظام كامل للحياة لا يمكن تجزئته ، ومع ذلك فالى أن يكون الاسلام وحده هو كل شيء في حياتنا لا نجد أفضل من الاقتصاد الاسلامي والعمل به في بلادنا للتخفيف من مشكلات الحياة الاقتصادية (١) .

---

(١) راجع الكتب الآتية : — نظام الإسلام لمنصور علي رجب .
— الإسلام والمناهج الاشتراكية ، لمحمد الغزالي .
— ذاتية الإسلام امام المذاهب والعقائد لمحمد المبارك .
— الإسلام والتنمية الاقتصادية لجاك اوستردي ، ترجمة نبيل صبحي الطويل .
— الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية لمحمد الغزالي .
— الربا لعلاء الدين خروفة طبع بغداد .

ان مفاسد الغرب في بلادنا اليوم أكبر من أن تحصى أو تعالج على أساس التلفيق والترقيع ، وبقاء هذه المفاسد والمشكلات مستمرة ما دام اتجاه العمل في محيطنا الى تطبيق الاسلوب الغربي في كل شيء في حياتنا ، ولبقائها واستمرارها أثر كبير في اضعاف قدرة الجيل المسلم المعاصر على تحمل المسؤولية والامانة والواجب ، وفي تغير الموازين التي يوزن بها الانسان العربي في مجتمعاتنا ، فبعد أن كان التزام هذا الانسان بالدين هو كل شيء أصبح التزامه بالحياة الغربية هو مظهر التمدن والاتزان والعصرية ، ومن قبل كان اللورد كرومر الحاكم الانجليزي في مصر في أوائل هذا القرن يردد كلامه الباطل : — ان المسلم غير المتخلق بالاخلاق الاوربية لا يصلح لحكم بلاده — ولذلك جهد بقدر ما استطاع في منع علماء الازهر من العمل في وزارات الحكومة وحصر مهمتهم في الوعظ والامامة والتدريس في الأزهر .

ولقد فرض الاستعمار الغربي حكما مسيحيا متعصبا على شعوب اسلامية كثيرة .

فالمسلمون في قبرص والحبشة ، وغانا ونيجيريا والسنغال ولبنان ، وهم الغالبية الكبرى للسكان لا بد أن يحكمهم حاكم مسيحي ، كما تحتم ذلك قوانين هذه البلاد التي سنها الاستعمار الغربي [1] .

وسياسة اضطهاد المسلمين في كل مكان يقف من ورائها الاستعمار ،

= — نظرية الربا المحرمة في الشريعة الإسلامية .
— الربا والمعاملات في الإسلام لرشيد رضا .
— الربا للمودودي .
— معركة الإسلام والرأسمالية .
— وراجع كتاب : الإسلام والعرب تأليف روم لاندو .
— تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر .

(١) في نيجيريا نسبة المسلمين إلى جميع السكان أكثر من ٧٠ ٪ وهي في السنغال ٩٠ ٪ ، وفي قبرص وغانا ولبنان أكثر من ٦٠ ٪ .

سواء في زنجبار أم الهند أم الفيلبين أم الحبشة ، أم تشاد أم أوغندا أم بورما بل سياسة ابادتهم في روسيا والصين والدول التي تدور في فلكيهما هي من صنع يديه وبتدبيره ورضائه [1] .

ولم تأمن تركيا مكر الاستعمار الغربي الا بعد أن سارت على السياسة التي فرضها عليها ، وهي قطع كل صلة لها بالاسلام أو كما يقول العلامة زيد بن فياض في كتابه « واجب المسلمين في نشر الاسلام » :

١ ــ قطع صلة الدولة بالاسلام والعالم الاسلامي .

٢ ــ الغاء الخلافة الاسلامية .

٣ ــ استبدال الدستور القائم على الاسلام بدستور مدني [2] .

وكانت الخلافة العثمانية آخر مجتمع يقوم على الايديولوجية الاسلامية الكاملة ، اذ كانت تعتمد القاعدة الفكرية للاسلام أساسا للتنظيم والتشريع في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكانت مظهرا يبرز الوجود الدولي الاسلامي كرسالة ، وللمسلمين كافة ، وتاريخ المسلمين منذ سقوط الخلافة يتميز بالتبعية والضياع والتخلف فقد اقصي الاسلام القاعدة للتربية وللتقنين عن مناهج التعليم وعن دنيا الانسان المسلم تماما وعلى شتى المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكان آخر خطوة في ذلك الغاء نظام الاسرة الاسلامي واستبداله بقانون للاحوال الشخصية في كثير من بلدان العالم الاسلامي وهكذا أصبح المسلمون يطبقون تعاليم الغرب في مختلف مجالات الحياة بفعل المكر الاستعماري الغربي ونشاط مراكز التخريب في حياتنا ، وفي مقدمتها : الصهيونية ، والماركسية ، وحركة التبشير ، وحركة الاستشراق .

---

(١) راجع : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي .

(٢) ص ٣٠ و٣١ واجب المسلمين في نشر الإسلام .

اما الاستشراق :

فقد كان وراء انتقال كنوزنا العلمية الثمينة الى الغرب، جامعاته ومكتباته ومتاحفه .

ووراء حركة الافتراء على أسلافنا من العلماء ، وعلى ثقافتنا الاسلامية العربية كذلك ، والآراء الكثيرة الزائفة التي يذيعها المستشرقون حول علوم الاسلام وعلمائه وتاريخه وحضارته لا تخفى على عاقل .

وقد صارت مناهج المستشرقين في البحث والدراسة والثقافة هي الاساس الذي يوطد له في بنياننا الفكري ، وهي التي تأثر بها مشاهير كتابنا من أمثال : طه حسين ، العقاد ، أحمد أمين ، الزيات ، زكي مبارك ، وسواهم : فنجد احمد امين مثلا يكتب ضحى الاسلام وظهره ، كأن الاسلام لا بد أن يصل الى نهايته على يدي أحمد أمين وكتبه .

وقام كثير من علمائنا بترجمة كتب المستشرقين بما فيها من أباطيل وبهتان وتعصب على الاسلام ، ومن بينها كتب جولد زيهر ، وأصبح بعض علمائنا يقول عن مستشرق : أستاذي العظيم ، وذلك مظهر للتبعية لا يعلو عليه مظهر.

وأسفت وأنا أقرأ كتابا ، يحمل عنوان عبقرية محمد ، في الوقت الذي كان أمامي كتابان : عبقرية شكسبير ، وعبقرية الصافي النجفي .

وفي الصيف الماضي قال لي شاب عربي : أردت التحضير لرسالة الدكتوراه في السوربون ، ولكن المشرف الذي عين لي وهو مستشرق رفض الموضوعات التي كنت أقدمها له ، وارادني أن ا كتب ما ليس للاسلام فأبيت .

وقد صارت أقسام الدراسات الاسلامية والعربية التي يشرف عليها المستشرقون في جامعات أوروبا وكندا والولايات المتحدة ذات طابع هجومي على الاسلام ، ومراكز للتجسس عليه ، وينلب للتدريس فيها أساتذة من أنحاء العالم الاسلامي ، وفي مقدمة الموضوعات التي يطلب اليهم المحاضرة

والكتابة حولها ، الحركات الاسلامية المعاصرة في مختلف بلدان الاسلام [1] .

واما التبشير :

فيقف من ورائه العالم المسيحي بتوجيه الهيئات الدينية العليا في أوروبا ، وهو ند لحركة الاستشراق في الاهداف وفي خدمة الاستعمار القديم والجديد، وفي التجسس على الاسلام والحركات الاسلامية المعاصرة ، وهو كذلك حملة صليبية جديدة على الاسلام ، ومحالفة أبدية مع الاستعمار لخنقه وصرف أتباعه عنه بكل وسيلة .

يقول المبشر لورانس براون : الخطر الحقيقي يكمن في نظام الاسلام ، وفي قدرته على التوسع وفي حيويته، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوروبي [2] .

ويقول المبشر زويمر (١٩٥٢) الهدف من التبشير ليس هو ادخال المسلمين في المسيحية ، لان ذلك في زعمه الباطل هداية وتكريم لهم ، انما هو عنده أن تخرج المسلم عن الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صله له بالله [3] .

ويقول العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » : التبشير حملة على الاسلام بغزوه في عقر داره ، ومن مخططاته تشويه التاريخ الاسلامي وابطاله وقادته والطعن في العقيدة الاسلامية .

ويقول المبشر جون تاكلي : يجب ان نستخدم القرآن ، وهو أمضى سلاح

---

(١) راجع : المسلمون في العالم اليوم ، عبد الرحمن زكي .

(٢) راجع : ـ الإسلام والنصرانية للامام محمد عبده .

ـ التبشير والاستعمار ، عمر فروخ .

ـ دفاع عن العقيدة الشريعة ضد مطاعن المستشرقين لمحمد الغزالي .

(٣) ٢٣ واجب المسلمين في نشر الإسلام .

(٤) راجع : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي .

في الاسلام ، ضد الاسلام نفسه ، بأن نعلم المسلمين أن الصحيح في القرآن غير جديد وأن الجديد فيه غير صحيح .. وهكذا صار المبشرون بضلالهم وبهتانهم نقادا للقرآن الكريم وشارحين له ، ولقد وضعت الامكانيات الهائلة تحت أيديهم ، ولهم أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد في العالم ، فضلا عن المستشفيات والمستوصفات الطبية .. وعندما وضع النظام الاساسي للجامعة الامريكية في بيروت منذ أكثر من مائة عام أصر واضعوه على تأكيد الطابع التبشيري لها ، وعلى أن يكون كل استاذ فيها مبشرا مسيحيا [1] .

والغريب أن المبشرين صاروا يدفعون بأذنابهم الى التظاهر بالاسلام ، والتزوج من المسلمات لاخراج أولادهن عن الاسلام ، أو لتشريد المرأة المسلمة في كل مكان ، أو لدفعها الى الرذيلة والاثم هي وابنائها .

واما الماركسية :

ومحاولتها التسلل الى عقول المسلمين فهي من أشد الاخطار التي تجابه الاسلام اليوم ، وبخاصة أن الغرب المسيحي يفسح لها المجال لتعيث في بلاد المسلمين فسادا ، بعدما شاهد صمود الاسلام في مواجهة الاستعمار وحركات التبشير والاستشراق والصهيونية .

وعمل الماركسية في اعلان الحرب على الاسلام ، وفي تدمير حصونه في بلادها وخارج بلادها ، وفي تحطيم معنويات المسلمين .. معروف لا يحتاج الى بيان .

والماركسية وهي مصطلح ومذهب غربي نجد لها اشتقاقا لغويا عربيا يفسر معناها تفسيرا واضحا دقيقا ، وكأنها من قولنا :

أركسوا في الضلالة ، أي سقطوا فيها وترددوا في هوتها السحيقة التي لا نجاة منها ، والله عز وجل يقول في كتابه الحكيم [2] :

---

(١) واجب المسلمين .

(٢) النساء ٨٨ .

فما لكم في المنافقين فئتين ، والله أركسهم بما كسبوا ، اتريدون أن تهدوا من أضل الله ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا

ونضال الماركسية ضد الجامعة الاسلامية وضد الدين بعامته والاسلام بخاصته أحد شعائر دعوتها المنحرفة وكان لينين يردد :

الدين أفيون الشعوب ، ويقول : نعلن بصراحة أننا ملحدون ، ونرى في الاديان خطرا على الحضارة ، وكان شعار ماركس ان فكرة الاله من بقايا القرون الوسطى المظلمة .. ويقول ستالين عام ١٩٤٤ :

نحن ملحدون ونؤمن بأن فكرة الله خرافة وفي البيان الذي أصدره أحد مؤتمرات عام ١٩٢٣ أن بداخل اتحاد الجمهوريات الروسية ثلاثين مليونا من المسلمين ، يحافظون على عقائد باطلة ، وخرافات من العصور الوسطى [١] . لها صلة بالدين ، وتقرر القيام بالخطط والتدابير الواجب عملها لازالة هذه العقائد الباطلة [٢] .. وتقول برافدا في عددها الصادر في ٢٦ أبريل عام ١٩٤٩ : نحن نؤمن بثلاثة أشياء : ماركس ولينين وستالين ولا نؤمن بثلاثة أشياء : الله والدين والملكية الخاصة .

هذا هو شعار الغزو الماركسي الذي بدأ يدخل في صفوفنا ، ومآله كغيره الفشل ، ولا سبيل له في مجتمع الاسلام ، الحريص على القيم والمثل والفضائل والدين ، حرصه على أعز ما تملكه الانسانية من مقتنيات ، وان الاحتشام والاحترام والسخاء وعظمة الاخلاق والقيم والمشاعر الانسانية السامية لا يمكن الحصول عليها أبدا من طريق الالحاد ، والتدين هو جزء أساسي من الطبيعة البشرية .

ان علينا نحن المسلمين ان نختار أحد أمرين : الاستقلال أو التبعية ، فاذا

---

(١) ٢٢ و٢٣ الإسلام والمبادىء المستوردة .

(٢) العلم يدعو الى الإيمان .

(٣) ن موريسون ، ترجمة محمود صالح الفلكي .

اخترنا الاول وجب علينا أن نعود الى تراثنا العظيم نستمد منه القوة على مواجهة التحديات التي تعترض طريقنا ، فبالاسلام انتصرنا في الماضي ، وبه سوف ننتصر باذن الله (١) .

ونسائل أنفسنا أخيراً :

هل يمكن أن تقف هذه العقبات وغيرها في طريق الاسلام ؟ أو أن تحول دون بعث اسلامي جديد (٢) .

والجواب ، عن ذلك : لا ، بكل تأكيد .

نعم : لا ، لن تستطيع شياطين الارض كلها مجتمعة أن تصدنا عن الاسلام ، ولا أن تصد الاسلام عن بلوغ أهدافه أو أن تقف في يوم ما في وجه تياره .

وكم من عقبات وضعت في كل عصور التاريخ في طريقه فانهارت ، وكم من مذاهب قامت لصرف المسلمين عنه ، أو لتزييف مبادئه في نفوس المؤمنين به ، فتحطمت . وكم من قوى كثيرة مدمرة حاربت الاسلام ، على امتداد الايام ، فهزمها ، وتركها مشلولة اليدين ، ذاهبة الفكر ، شاردة اللب ، مفزعة وأي فزع ؟

لن ينطفىء نور الاسلام أبدا ، وذلك وعد الله الصادق لعباده المؤمنين :

يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون (٣) .

ويقول الله تعالى على سبيل التأكيد والحزم والتعميم :

كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الارض فسادا ، والله لا يحب المفسدين .

---

(١) ٢٨٣ ندوة محاضرات رابطة العالم الإسلامي ١٣٨٧ هـ.

(٢) ينادي فريق من المسلمين ببعث عربي – راجع الحياة عدد ٢ – ١٠ – ١٩٧٠ وهو خطأ كبير ، ولن يفيدنا بشيء ما في حياتنا .

(٣) ٨ الصف .

سيبقى الاسلام [1] قمة سامقة، كوكبا وضاء ، نورا هاديا ، معجزة السماء على الارض، صانعا للتاريخ والزمن والحضارة ، وعاملا فعالاً في حياة العرب والمسلمين والانسانية قاطبة .

يقول مؤلف كتاب « الشرق الأوسط المعاصر » :

ـ إن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الاوسط هو الدين .

ويقول الدكتور عصمت سيف الدولة في كتاب له : الدين جزء من تكوين الامة العربية بحكم انها تكونت في ظلال الحضارة الاسلامية ، والاسلام بالنسبة لها أكثر من مجرد دين اذ هو جزء من نسيج قوميتها [2] .

ويقول ولز : الدين الحق الذي يساير المدنية هو الاسلام وحسبك القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب علمي اجتماعي تهذيبي خلقي [3] .

والقرآن ـ كما يقول الشاطبي في الموافقات ـ أصل الاصول في الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة وآية الرسالة ، ونور الابصار والبصائر وانه لا طريق الى الله سواه .

ويقول غوستاف لوبون : ان سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة .

---

(١) راجع : الإسلام وحركة التاريخ ، أنور الجندي .
ـ عناصر القوة في الإسلام ، سيد سابق .
ـ كيف نفهم الإسلام وهذا ديننا ، وهما لمحمد الغزالي .
ـ الإسلام دين الإنسانية ، الإسلام دين الإنسانية الخالد ، وهما للخفاجي .
ـ مبادىء الإسلام لمحمود علي قراعة .
ـ الدين والمستقبل لهذا الدين ، نحو وعي جديد لمحمد المبارك .

(٢) ص ٦ أسس الاشتراكية العربية .

(٣) الإسلام روح المدنية ، الغلاييني ، وراجع : الإسلام والمدنية الحديثة ، للمودودي ، والإسلام في المعترك الحضاري لعمر الاميري .

وصدق عمر بن الخطاب حين قال لاصحابه : لقد أعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله .

وقال الهرمزان الفارسي لعمر وقواده انما غلبتمونا بالاسلام .

وهذا هو ما أكده الرسول صلوات الله عليه لزعماء قريش في مكة بعد نزول الرسالة ، حين قال لهم :

ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه عليّ اصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم [1] .

ان الغد سوف يؤدي بنا الى يقظة اسلامية جديدة باذن الله ، ولكي تنطلق هذه اليقظة لا بد مما يلي :

اولا : قيام ثقافة اسلامية قوية ، وحركة تربوية دينية مثمرة ، تسير عليها مناهج جامعاتنا ومدارسنا ، وللتربية والثقافة دورهما الجليل في التوجيه [2] .

وحسبنا أن نعرف أن جميع المذاهب المعاصرة ، يمينية أو يسارية ، ترتكز على دعامة قوية من التربية والتثقيف .

ثانياً : قيام المذاهب والحركات والمجامع والهيئات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلادنا على أسس اسلامية خالصة .

ثالثاً : صياغة علومنا الاسلامية واللغوية صياغة جديدة تقربها الى أذهان العصر والشباب .

رابعاً : قيام حركات الشباب في العالم على أسس اسلامية .

---

(١) ١ : ٣١٦ سيرة ابن هشام ، تحقق محمد محيي الدين عبد الحميد .
(٢) راجع : تجديد الفكر الإسلامي لاقبال ، ترجمة عباس محمود .

خامساً : صبغ وسائل الاعلام كافة في أنحاء العالم الاسلامي بصبغة اسلامية.

سادساً : نشر نفائس تراثنا المخطوطة محققة تحقيقا علميا دقيقا .

سابعاً : انشاء هيئة أمم اسلامية تتولى التخطيط الكامل لمستقبل المسلمين وتعد منظمة الدول الاسلامية القائمة اليوم نواة لها [١] .

ثامناً : صبغ حياتنا في شتّى نواحيها بالصبغة الاسلامية وتطبيق التشريع الاسلامي تطبيقا كاملا .

تاسعاً : انشاء مجمع اسلامي عالمي يمثل الفكر الاسلامي ويخطط له .

عاشراً : انشاء صندوق للدعاية للاسلام ونشره بأسلوب العصر ، وعلى ضوء افكاره ومتطلعاته .

ففي ذلك وغيره من مقومات العمل الاسلامي ما يسير بنا الى الغد المنتظر والمستقبل المأمول .

— ٧ —

وهنا أقول ، بل أردد :

ان الاسلام هو وحده عقيدة الغد ، وان الغد وحده هو لعقيدة القرآن .

ان الاسلام هو نظام الكون ، والكون كله صائر اليه في يوم من الايام ، وليس هذا حلما من الاحلام ، بل انه الحقيقة الثابتة الواضحة ، وضوح الشمس في ريعان النهار .

ولسوف يتألف من الغد والاسلام طاقة جديدة تعيد الحياة الحرة المبدعة الى الانسانية والانسان ، وتبني السعادة والرفاهية للمجتمع البشري المفزع ، ففلاح الانسانية وصلاحها في المستقبل في أن تؤمن بالاسلام وتكفر بكل ما اخترعت من النظريات الباطلة كما يقول المودودي :

---

(٣) راجع كتاب الشعوب الإسلامية المتحدة : لعبد الوارث صوفي .

ان ذلك ضرورة ملحة للانسانية لتعيد بناء نفسها من جديد ولترتفع بالاسلام الذي ارتفع على المحن ، وعلا على الزمن ، ورفع الى مستواه الاسمى المؤمنين به في كل دار ووطن ، وكان فيه دائما الحياة للروح والعقل والنفس والبدن

انه ليس حنينا الى الماضي ، ولا مجرد أمل في انبعاث مجد قديم بل هو مسيرة التاريخ وحتميته وحركة تطوره وهو الانتخاب الطبيعي الذي تقوم به الحياة ، الانتخاب والتخير لاسمى القيم والمثل التي تثق في قدرتها على الوصول بها الى مرفأ السلام والامان .. انه وعد الله الصادق بانتصار رسالته ، وغلبة وحيه ، وعزة كتابه ، وسيادة دينه في الارض .. انه الاستجابة الفطرية لنداء العقيدة الصالحة لكل عصر ، الصانعة لكل خير ، القائدة الى كل نصر .

العقيدة التي تشرق الفجر ، وتتدفق كما يتدفق الماء على صفحة النهر ، وتمنحنا بحقها وصدقها الامل والنور والحياة .

العقيدة التي تعلو أبدا على كل الآلام ، وعلى أحداث الايام وعلى شتى المحن والخطوب الجسام .

لسوف يظل الاسلام منارة الاجيال العصور ، ويبني للبشرية من جديد في ظلال انبعاث أكبر صروحا من التقدم والابداع والتجديد ، ومن الحق والعدل والسلام والحرية والمساواة ، ومن طمأنينة الانسان وسعادته ورفاهيته في الحياة .

الفَصْلُ السَّابعُ

خلود الإسلام



خُـلودُ الإسْـلام

– ١ –

سقطت ألمانيا الهتلرية مهزومة مضرجة بدمائها ، أمام جيوش الحلفاء الظافرة ، في الحرب العالمية الثانية ، وتجمع قواد الحلفاء في موكب حربي لم يشهد التاريخ له مثيلا ، حيث الجيوش المدججة بالسلاح ، والطائرات المحملة بالمدافع ، والدبابات تهز الأرض هزا ؛ وسارت على جماجم القتلى وأشلاء الجرحى ؛ ليشهدوا توقيع قواد المانيا على وثيقة الاستسلام وحول مائدة مستديرة ، وقف القواد الألمان ، يحيون في ذلة وخشوع موكب النصر ، والقواد الذين صنعوه ؛ وسلّم المهزومون كل شيء ، دون أن يكون لهم شيء ودون أن يسمعوا كلمة ، ولوكانت عزاء أو رثاء ؛ وانتهى الأمر ؛ الحرية كل الحرية للمنتصرين والعبودية كل العبودية للمنهزمين ؛

لقد فعلوا ما يفعله ضمير القائد االمسيحي المنتصر ، حيال قواد مسيحيين أورثتهم الهزيمة الذل .

فأين هذا من الإسلام وجلالهِ وعظمتِه وسماحته ، وخلفاؤُه وقوادُه يسيرون في مواكب الظافرين ؛

أمامنا المثلُ من الإسلام .

عمرُ بنُ الخطاب

عمرُ الفاروقُ

عمرُ العظيم .

عمرُ محطِّم الامبراطورية الساسانية ،

عمر الذي هزم هرقل امبراطور الروم في سواحل الشام ؛ والذي بلغت جيوشه الظافرة أبواب بيت المقدس ، وحاصرته حصارا شديداً لا مفر معه من الاستسلام ، وفر القائد الروماني منها إلى مصر ، وأخذ رئيس أساقفة بيت المقدس يطلب التسليم ، على أن يتولّى عمر أمير المؤمنين نفسه بحث مفاوضات الاستسلام .

وسار عمر إلى المدينة المحاصرة ، إلى بيت المقدس .

سار بلا مواكب ومهرجانات ، بلا جيش حوله .

سار في موكب نبيل .. عمر على جمل غليظ ، في ملابس خشنة وتكاد تكون ممزقة .

ويقال له : لو لبست شيئاً غير هذا ، وركبت برذوناً ، لكان هذا أعظم في عين الروم ..

ويقول : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلا ..

ويسير عمر

وإذا هو أمام مستنقع ماءٍ .

ويقف ، وينزل من على ظهر البعير ، ويخلع خفيه ، ويمسكهما بيده ، وزمام الجمل باليد الأخرى ، ويخوض الماء ؛ ويبهر أبو عبيدة بما صنع عمر ، فيقول له : لقد صنعت اليوم صنيعا عظيماً عند أهل الأرض فيضرب عمر بيده في صدره ، ويقول له :

أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ؟

إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله .

ويدخل عمر بيت المقدس ، ويعطي لرئيس أساقفتها العهود والمواثيق ، التي تؤمن من فيها من المسيحيين على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وحرياتهم

الدينية كاملة غير منقوصة .

ويجد المسيحيون المهزومون من الخليفة المسلم عمر بن الخطاب ما لم يكونوا يجدونه من حكامهم المسيحيين في إبان السلام ، من العدل والحرية والكرامة الإنسانية ، ومن الأمان وحسن المعاملة والتسامح والرفق ، وهذا هو الإسلام في وجدان المسلمين .

وهذا هو الإيمان في ضمير المؤمنين .

وهذه هي الإنسانية ، إنسانية الدين ، وإنسانية أمير المؤمنين ، إنسانية المبادىء والقيم والمثل ، والفضائل والأخلاق والآداب .

الصغير يوقر الكبير .

القوي يحترم الضعيف .

الحاكم يحنو على المحكوم .

الغنيُّ في مساندة الفقير ، قلبا وروحا ومالا .

الصحيح يعود المريض ، يواسيه ، ويملأ قلبه تفاؤلا وأملا .

الشباب يحترم الشيخوخة في الهرم الكبير ،

الرجل يرعى المرأة والطفل والخادم .

الحنان حتى على الهرة ، والكلب ،والجمل الهرم الضعيف .

إنسانية يغذيها الايمان بالله والدين ، وبالحب والإخاء وبالرحمة والشفقة . الإيمان بوجود الله في كل مكان ومع كل إنسان .

إنسانية تملأ قلب المسلم بالعطف على اليتامى والمساكين والأرامل والمستضعفين ، والغريب والضيف والأجير والأسير ، بل إنما لتجعله حينما يطأ بقدميه العشب الأخضر يحس بأن روحاً تتأوّه ، وعندما يغيب جار له يغدو الحارس الأمين لحُرَمِه وحَرَمِه ، وإذا ما مات الميت صار الوصي أبا لأطفاله ، والقيم الأمين على ماله .

هذه الإنسانية هي أحد مقومات خلود الإسلام ، وبقائه واستمراره في الأرض إلى يوم الدين ، إلى يوم يبعث الخلق أجمعون .

إنسانية تتمثل في كل عمل ، ويستشعرها المسلم وهو يسعى إلى كل أمل .

يبدأ بالسلام كل من يلقاه ، الراكب يسلِّم على الماشي ، الرجل على الشاب ، الكبير على الصغير ، الكثير على القليل ، السليم على المريض .

يبدأ كل عمل ببسم الله ، بسم الله الحاضر الموجود والخالق القادر المعبود ؛ وكأن البدء ببسم الله إعلان بأن الإنسانية في الإنسان المسلم تضع نفسها في موضعها الصحيح ، وتعرف أنها مهما أوتيت من أسباب القوة ، فهي عاجزة إلا بالله ، وحيدة تستمد العون من الله ، فقيرة تطلب كل أسباب الغنى لدى **الله** .

هذا الجانب الإنساني في الإسلام لا يحتاج إلى بيان ، نهى رسول الله صلوات الله عليه خالدا في غزوة حنين عن قتل الأطفال والنساء والأجراء [1] ، وقال لأصحابه : دخلت امرأة النار في هِرةٍ حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خِشاشِ [2] الأرض ، وقال لعائشة وقد قست على بعير ركبته : « من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله » ؛ ونهى أبو بكر قائده في معارك الفرس عن تتبع المنهزمين ، والإجهاز على الجرحى ، والتمثيل بالقتلى

هذا الجانب الانساني في الإسلام يبدو لنا واضحا في النهي عن إكراه الأبناء على الدين ، فقد جاء رجل من الأنصار الى الرسول ، وكان له ابنان نصرانيان فقال : ألا استكرههما لانهما قد أبيا ، فنزلت الآية الكريمة : « **لا اكراه في الدين** » . كما يبدو لنا واضحا كذلك فيما أمر به من وجوب احترام الابن لأبويه اللذين لم يدخلا في الإسلام ، واستماعه لهما إلا في الدين ، قال تعالى : **وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً** [3] .

---

(١) ٤ : ٩٠ سيرة ابن هشام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
(٢) بفتح الخاء وكسرها : حشرات الأرض
(٣) آية ١٥ ، سورة لقمان

وإنسانية الإسلام ليست موضع جدل أو خصام وهي التي جعلت مثل سعيد بن المسيب [1] (٢٠ – ٩٥ هـ) عالم المدينة يرفض زواج ابنته لولي عهد المسلمين الوليد، وزوجها لطالب فقير من طلابه الذين كانوا يلازمون حلقات درسه.

ومن أجل ذلك دخلت الملايين في الإسلام، لتجد في ظله العدل والأمن والرفاهية والسلام وكل مثل الحياة الكريمة، فليس في الإسلام عصبية لجنس أو لون، الجميع بنعمة الله متحابون متآلفون، يسودهم الإخاء والحب والألفة ووجد اليهود والنصارى كل ما كانوا يبتغون من العدل في ظلاله ولم يعد هناك فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

لم يكن المسلمون أبداً متعصبين على أحد ممن خالفوهم في العقيدة، كان الامبراطور المسيحي يأبى على المسيحي المخالف له في المذهب أن يعيش في ظله آمناً على حياته وماله، متمتعاً بحقوقه في المساواة؛ من حيث كان السلطان المسلم يعيش في مُلكه أهل الأديان الأخرى، يلقون من عدله ما يلقاه المسلم تماماً بتمام.

وفي العصور الوسطى طردت إسبانيا المسلمين من بلادها بلا رحمة، ونصبت لهم محاكم التفتيش الرهيبة، وفي العصر الراهن طرد المسلمون من بلادهم وهُجِّروا رجالا ونساء وأطفالا وشيوخاً إلى سهول سيبيريا بلا شفقة وطَرَد اليهود عرب فلسطين من بلادهم وأموالهم دون أدنى مبالاة.

فأين مثل الإسلام في إنسانيته، وكما يقول الشاعر: أين في الناس أبٌ مثل أبي.

وأصبح الإسلام أمل الإنسانية، حلمها الأكبر، ملاذها الأمين، لأنه الدين الذي يؤمن بالانسانية ويدعو إليها، قانوناً وتشريعا، عملا وتطبيقاً،

---

(١) من مشاهير التابعين المحدثين (التهذيب لا بن حجر «٤ : ٨٤ – ٨٨»

ضميرا وسلوكا ، قولا وعقيدة .

وسوف يظل الإسلام حلم الإنسانية ، وسوف يبقى خالدا أبدا ، له كل فعالية في الحياة ، في كل مكان وكل زمان ، كل بيئة وكل عصر .

قد يقول أعداء الرسالة : وأين إنسانية الدين في تشريعه للرقيق ، وأين إنسانية محمد في زواجه من زينب امرأة زيد ؟

ونقول لهم أمّا الرقيق ومفاخر الإسلام في تحريره كالشمس في رابعة النهار ، أقرت الديانات والشرائع والنظم السياسية قبل الإسلام الرق ، وفتحت منافذه ووسعت أسبابه ، وجاء الإسلام فشرع العتق وأمر به ولم يشرع الرق (١) أبداً بحال من الأحوال . وضروب تشريعه للعتق كثيرة معروفة في الفقه الإسلامي ، والباب الذي بقي في الإسلام من أبوابه هو أسرى الحروب الإسلامية ، وقد أوصى الإسلام بمعاملة الرقيق معاملة طيبة . وحسبك أن علي بن أبي طالب خليفة المسلمين ينزع ثوبه الجديد من على جسده ويعطيه لخادمه الرقيق ، ويقول له : أنت أحق به في العيد مني . وقد تعلمت دول الغرب من الإسلام نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء ، والقوانين الدولية اليوم لا تلزم أمة منتصرة بمعاملة الأسرى معاملة خاصة ، ولقد ذهب أغلب أسرى الحرب العالمية الثانية ما بين قتيل ومفقود وشريد . وأوربا لم تدع من قبل إلى تحرير الأرقاء إلا حين وجدت صناعاتها مرتفعة التكاليف لغلاء الأجور فيها ، ووجدت الصناعات في الشرق رخيصة الأسعار لرخص الأيدي التي تديرها من الأرقاء .

وأما زينب فإن قصتها تدل على الإنسانية الرفيعة في الرسول ، وليست كما يصورها المبشرون وأعداء الإسلام .

كان زيد بن حارثة (أو سيدوس) أسيرا عتيقا في بيت رسول الله ، رباه النبي فأسلم ، وأخلص لدين الله ، وآثر المقام في بيت النبوة على الرجوع إلى

(١) ١٤٥ ما يقال عن الإسلام – محمود عباس العقاد – كتاب الهلال العدد ١٨٩

أهله [1] ، وتبناه الرسول وزوجه من بنت عمته زينب ، وهي بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ، وأطاعت الزوجة أمر رسول الله وعاشت مع زوجها راضية ، وإن كانت تشعر في أعماق نفسها بالمهانة لأن العرب كانوا يأنفون أن يزوجوا بناتهم لمواليهم ، وكان زيد يشعر بجراحها النفسية العميقة ، ويهم بطلاقها ، والرسول يقول له : أمسك عليك زوجك ، انتظاراً لتبدل الحال ، ولكن الأمر ظل كما كان ، فطلقها زيد ، ورأى الرسول أن أحداً لن يتقدم الى ابنة عمته بعد ذلك ، فعوضها عن مهانتها بزواجه إياها ، لتعلم ويعلم الناس أنها كفؤ لصاحب الرسالة ، وأن زواجها من زيد لم يكن مهانة لها ، بل كان من أجل التشريع ، وصار تشريعاً سماوياً أن يتزوج السيد من زوج مولاه ومتبناه . وبصنيع الرسول شعر زيد بالكرامة الإنسانية في نفسه ، وشعر بالعزة تملأ جوانح قلبه ، الذي ملأه الدين نوراً وهدىً وخشوعاً لله رب العالمين .

— ٢ —

وسبب آخر من أسباب خلود الإسلام ، سبب ثانٍ له كبير معناه ، وعظيم مغزاه ؛ وهو أمرٌ تفرد به الإسلام ، ديننا الخالدُ العظيم ، وهو عقيدة الإسلام نفسُها .

فلقد ارتفع الدين بضمير الانسان شأوا بعيدا ، حتى صار في مستوى الادراك العميق للفكرة الإلهية، ولفكرة النبوة .

عقيدة الإسلام أعظم العقائد الدينية اتفاقاً مع المنطق وأشدها صرامة في التوحيد ، وأكثرها تقريرا لمبدأ الوحدانية والألوهية ، وما أعظم رسالته وضوحا في إدراك الاستشراف الالهي ، وتسامي الذات الإلهية . إن روح العقيدة الإسلامية تكمن في الخضوع لإرادة الله ، وحجر الزاوية فيها هو

---

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥ — ٢٦٧ — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

الصلاة ، وهي بين الأديان كلها أبسطها وأقدرها على السمو بالبشرية كما يقول بعض الذين أسلموا من المفكرين في أوروبا .

جميع أديان العالم اليوم السماوية منها وغير السماوية ، من مسيحية ويهودية وهندوكية وبوذية ، لا تدعو إلى التوحيد المطلق الذي ينفرد الإسلام وحده بالدعوة إليه وبوجوب تعرُّف كل مؤمن به عليه .

ارتقى الإسلام بالعقيدة الإلهية ، فجعلها توحيدا خالصا ؛ كما ارتقى بعقيدة النبوة التي كان الناس من قبله يحسبونها ضربا من التنجيم والشعوذة فقرر أن النبي بشر يبلِّغ عن الله إلى العباد رسالة إلهية ؛ وارتقى الإسلام بالمسؤولية الإنسانية التي جعلوها لوناً من المحاباة والمحسوبية والأهواء والإيثار للقربى ، ولعصبية الدم أو اللون وما من دين استطاع أن يغرس في نفوس المؤمنين به الحب ، وأن يوحي إلى معتنقيه شعوراً بالعزة والكرامة مثل الإسلام ، الذي حَمَّلَ الانسان مسؤولية الحياة نفسِها ، وجعله خليفة لله في الأرض .

الله في الإسلام أعظم وأجل من أن ندركه بعقولنا ، وهو رب العالمين ، وخالق السماوات والأرضين بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .

والنبي هو البشير النذير ، المبلغ عن الله ، وليس بالذي يكشف الطوالع والأسرار ، ولا بصاحب الخوارق والهينمات والطلاسم والأعاجيب ،التي تشل العقول وتهول الضمائر ؛ وليس النبي الذي يخاطب الناس من حيث يخافون ويفزعون ، ولكنه الذي يخاطبهم من حيث يعقلون ويتدبرون .

والإنسان في الإسلام إنسان مفكر ، يحمل المسؤولية وعبء الأمانة ، الأمانة التي شرحها الله عز وجل ؛ فقال : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ، وحملها الإنسان .

---

(١) برتراند راسل – الأمريكي – الندوة عدد ١٣ / ١١ / ١٣٨٩

وعظمة محمد النبي عظمة إنسانية متينة القرار رفيعة الذرى ، تملك إعجاب كل مفكر ، وكل إنسان مهما كانت منزلته في الحياة ، ولو كان في عزة الصدّيق ، وعظمة عمر ، وجلال عثمان ، وبطولة علي ، عظمة جاوزت حد المألوف المعروف من شؤون الناس .

ولقد ربّى النبي أصحابه على العزة والشمم والنبل ، والبطولة والفقه والطهر ، فكانوا حملة الرسالة ، ودعاة الحضارة ، والمستمسكين بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها ، ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وابو عبيدة وسعد ابن أبي وقاص والزبير وخالد بن الوليد وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومعاذ بن جبل وسواهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

الرؤساء والقادة اليوم كثيراً ما يحاولون إطفاء الأنوار من حولهم ، فلا يُظهرون نبوغ أحد بجوار نبوغهم . ولكن الرسول الأعظم هو وحده الذي برئت نفسه من كل هوى ، ونزّهت عن كل أثرة ، والذي أشعل الأنوار كلها من حوله ، فظهرت مواهب أصحابه جميعاً ظهور الشمس في رابعة النهار ، فكان منهم كل من صلح لاقامة دولة ، وسياسة أمة ، وقيادة جيوش ، وتدبير أمور ، وخلق تاريخ وحضارة ، رضي الله عنهم أجمعين ، ولقد بقيت سيرتهم عطرة خالدة في فم الزمن ، وصُحُف التاريخ ، من حيث لم يبق لصحابة موسى كليم الله ، ولا لحواريي عيسى نبي الله ، سيرة تدل على عظمة خارقة .

وبجانب عقيدة التوحيد ، وشريعة النبوة ، وشخصية الرسول ، كانت الذات المحمدية بجلالها وكمالها وعظمتها أعظم فكرة مضيئة في الحياة ، فكرة باقية في ضمير الزمن فكرة موحية بعظمة الدين وخلود الإسلام .

يقرر المؤرخ كريستوفر دارسون في كتابه « قواعد الحركة في تاريخ العالم » (ص ٢٥٧) أن الأوضاع العالمية تغيرت تغيرا مفاجئا عارما بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ ، هو محمد .

ويقرر المؤرخ توينبي في كتابه « مدخل تاريخي للدين » أن سيرة الرسول السياسية كانت عاملاً من أهم العوامل وأبرزها في تاريخ الحضارات ، وفي بناء الامبراطورية الإسلامية ، والذين يريدون أن يدرسوا هذه السيرة العطرة الملهمة ، يستطيعون أن يجدوا أمامهم ، مئات الأسفار التي كتبت عن السيرة المحمدية ، في جميع أطوار حياته صلى الله عليه وسلم ، ويستطيعون أن يعرفوا كل ما جل وقل من سيرته ، مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة نبي من أنبياء الله ، ولا رسول من رسله الكرام .

ويتصل بعقيدة الإسلام ما شرعه الله من عبادات جعلها ركنا من أركان الدين ، وفرضها على كل مسلم من المسلمين ، وفي مقدمتها الصلاة التي يرتفع بها الانسان في مصاف الانسانية إلى حيث يتصل بالخالق الأعظم اتصالا روحيا يغرس فيه عزة المسلم ، وكرامة المؤمن ، وشرف العابد،وسمو الزاهد، وعبودية الراكع الساجد ، فالصلاة جزء من عقيدة الوحدانية وشريعة التوحيد.

وإذا كان نيتشه قد تبجح في قوله **الذي** روي عنه وهو « إنه لشيء مخجل أن يبتهل الانسان بالصلاة » ، فان الإنسانية كلها تكذبه ، ويكفي أن نرد عليه بأن الصلاة إنما هي نتيجة لترقي الإنسان في فهم وحدة الكون ، ووحدة القوة الالهية التي تقوم بتدبيره ، والصلاة في الأديان العليا علامة من علامات التقدم الانساني في فهم حقائق الكون وفهم الصفات الإلهية . وأنّ وجود الله قائم في ضمائرنا ، والنواميس الطبيعية وحدها لا تغني الإنسان عن الاتصال الروحي بخالقها .

والصيام وهو موجود في جميع الشرائع القديمة ارتفع به الإسلام ، فجعله علامة من علامات الصحة والقوة والتضحية والإيثار والإنسانية في الإنسان المسلم ، ودليلاً على قوة الإرادة ، ومنعة الشخصية ، وكمال الذاتية ، وعلى إمكان النجاح في الصمود للحق والشدائد التي تنزل بساحة المؤمن فيجعلها برداً وسلاماً .

هذه العقيدة الإسلامية الجليلة هي العقيدة الصالحة ، عقيدة الفطرة الصادقة ، عقيدة البشرية الواعية ،عقيدة تمتاز ببساطتها وحيويتها وجلالها ، عقيدة صالحة لكل زمان ومكان ، عقيدة لا تجافي العقل ، ولا تتنكر لطبيعة الحياة ، ولا تثير الرعب والفزع بين الناس ، عقيدة تجعل العمل خالصاً لوجه الله ، والمسلم دائما مولياً وجهه شطر الله ، يذكره في كل لحظة ، عند كل خاطرة ، يسبح بحمده وقدرته ، يخشع لجبروته وقوته ، يعنو لعظمته وإرادته وحكمته . إنها عقيدة الإيمان والتوحيد ، عقيدة الدين الكامل ، عقيدة تجعل الانسان خليفة لله في الأرض ، وتلزمه الأمانة والمسؤولية ، وتكرمه فتهبه الحريــة وتمنحه العزة وشرف العبودية ، وتقرر المساواة والاخاء بين الناس أجمعين ، وتؤدي للمستضعفين والمستذلين في الأرض كل حقوقهم ،ولا تجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح الذي يرضى عنه الله ورسوله والملائكة أجمعون .

وأصبحت الكعبة قبلة المسلمين جميعا ، وهي أقدم بيت بني للعبادة في الأرض ، وإليها حج العرب وغيرهم في كل عصر وجيل من عهد آدم حتى اليوم . ولقد مضى على قيامها نحو عشرة آلاف من السنين وهي مقصد العابدين والزاهدين والخاشعين والقانتين . وحولها قام البيت الحرام رمز أمانٍ في الأرض وسلام إلى يوم الدين .

هذه هي العقــيدة الإسلامية ، حريــة وعدل ، نقل وعقل ، تضحية وبذل ، عمل وقول ، وستظل دائماً منار الحرية للمستعبدين ، ونبراس العزة للمستضعفين ، ومشعل النور والعلم والمعرفة والثقافة للحائرين والمخدوعين والمستذلين ، ستبقى حية في الأرض ، خالدة على الزمن ، كريمة عزيزة في ضمير الحياة ، ووجدان الأجيال والعصور ، وبها كان للاسلام الخلود والبقاء والدوام إلى أبد الآباد ، وحتى تقوم الساعة ؛ وصدق الله الكريم فيما

يقول في كتابه الحكيم « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً [1] .

— ٣ —

وأمر ثالث هو مصدر خلود الإسلام وبقائه إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ألا وهو قوة مبادىء الإسلام السياسية والاقتصادية والعالمية ؛ هذه القوة التي بقيت صلبـــة منيعة في الأرض على امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان لم تلن لها قناة ، ولم تذل لها شوكة ، ولم يهن لها عود ، ولم تسكن لهـــا حركة ، ولم تبطل لها ولا له أنفة .

شموخ الإسلام ومنعته وكبرياؤه ، قوته ، وعزته وعظمته وإباؤه ، طموحه ووثوبه واقتداره وتجدده هي كلها مضرب الأمثال في صفحات الخلود ، وفي تاريخ الأديان والعلم والأمم والشعوب .

لقد بقي الإسلام ، وبقيت مبادئه ، كالطود الشامخ ، وكالنجم الثاقب ، وكالموج الهادر ، وكالأمل الباهر وكالربيع المتجدد الزهر والعطر والسحر ، والحياة والنضارة ، قرونا واحقابا ، عصوراً وأجيالاً مديدةً ، لم تؤثر فيه الأحداث ، لم تنل منه الأيام ، لم تخدش صفحته المتألقة عاديات العواصف والخطوب .

تهاوت أمام عظمته أمم وحضارات ، أديان وعقائد ، طغاة مستبدون ، حكام وقواد وغزاة وفاتحون، وتهاوت من حوله مبادىء ودعوات، وانطفأت مشاعل وثقافات، وبقيت دعوته وحدها مرفوعة اللواء ، شامخة البناء ، قوية البنيان ، عظيمة الأركان ، يأوي إليها المحرومون ، ويلوذ بها المعذبون في الأرض ، وتهتدي بهداها الجماعات والدول والشعوب والناس أجمعون .

---

(١) ١٧٤ سورة النساء

وسبحان الله ، ارتضى الإسلام دينا ، وأنزله شريعة ، وأوحى به كتابا حكيما ، جمع خير الدنيا والآخرة .

أما قوة الإسلام ومبادئه ونظرياته السياسية فلقد خشع لها المفكرون السياسيون والمشترعون ، ووقفوا حيالها حائرين مشدوهين متعجبين مذهولين ، لما انطوت عليه هذه المبادىء من عظمة نادرة ، وحكمة باهرة ، فلقد أقام على رأس الجماعة الإسلامية إماما يحكم بالعدل والشورى ، وهو صاحب السلطان وولي الأمر في الأمة ،ومن حوله أولو الذكر من الحكماء والخبراء المصلحين المخلصين ، وجعل الفرد حرا مسؤولا ، وجعل أحكام الشريعة نافذة مهيمنة في كل جيل وكل بيئة ، وهي أساس مصلحة الأمة وسعادتها ورفاهيتها وتقدمها وازدهارها ، وأساس الأمن والشرف والعزة لها ، وجعل الأمة الإسلامية موصولة الرحم والأخوة ، مشمولة بالرعاية والتعهد والعدالة الاجتماعية تقوم أمورها على الحب بين الناس ، وعلى النصيحة لله ورسوله ولأولي الأمر ولعامة المسلمين ، وعلى احترام الحدود والقصاص العادل لمن تسول له نفسه ارتكاب ما حرم الله ، قصاصا لا تأخذ الحاكم فيه ولا في الله من أجله لومة لائم ، مبادىء تؤمن بحرية الإنسان وخلافته لله في الأرض ، ومنها تنبعث الرفاهية والحضارة في العالم ، وبها يلتحم الدين والسياسة في مجتمع الإسلام التحاماً وثيقاً ، فلا ينفصل الدين عن الملك ، ولا الملك عن الدين ، فالجانب الديني والسياسي يلتئمان في الأمة الإسلامية في وحدة قوية باهرة . والتحام الدين بالدولة هو أعظم ظاهرة في الإسلام، وبها صارت القيم الأخلاقية في التشريع والنظام السياسي وتكوين الأمة الاجتماعي منهجاً أصيلا ملتزماً ؛ وكان الإسلام بهذا المنهج على مر العصور المثل الأعلى للعالم ، ولباباوات المسيحية الغربية ، الذين حاولوا تطبيق مناهجه في مجتمعاتهم ففشلوا ، لأن طبيعة الإسلام تخالف طبيعة المسيحية التي لا تتصل شرائعها بالمجتمع والدولة اتصالاً ما ، من حيث ظل الإسلام قوة دينية وسياسية معاً ، فالعبادات والمعاملات والقوانين المدنية والدستورية والجنائية ونظم الحكم

والسياسة ، كل ذلك هو في صلب مواده ، وقد احتواها كلها كتاب الله الحكيم ، ودستوره الخالد، القرآن الكريم .

ولقد أثبتت قوة الإسلام بالسياسة فعاليته الكاملة وسمو نظامه السياسي على كل نظام سياسي عالمي طبق حتى اليوم في الأرض .

وحسبنا أن فكرة الأمة الإسلامية كما جاء بها الإسلام هي أروع فكرة شهدتها الإنسانية ؛ حتى اليوم ؛ ولم يسبق الإسلام إليها دين من الأديان ، ولا نظام من النظم السياسية في العالم ، ولم تزل حتى اليوم ينبوعاً لكل فيض من فيوض الإيمان، ودافعاً يدفع المسلمين إلى الأخوة الكاملة في الله ، أخوة اختفت فيها كل عوامل الفرقة بين الناس من الجنس واللغة وعصبية النسب والسلالة ، وانفرد الإسلام وحده بهذه الظاهرة الفذة العجيبة ، ظاهرة الوحدة الإسلامية بين المؤمنين به ، واشتملت أمة الإسلام على العرب والفرس وأقوام من البيض والسود والهنود والصينيين والروم جميعا ، على تباعد الديار ، وتنائي الأقطار وتفاوت المصالح . ولم يخرج عن هذه الأمة ، ولا من دائرة الضوء فيها أحد ، لينشق عليها ، أو يقطع الصلة بينه وبينها .

وقد نجح الإسلام في تكوين المجتمع الدولي المتحد ، أو ما نسميه الولايات الإسلامية العالمية المتحدة ، نجاحاً لم يشاهد العالم حتى اليوم مثله ولا نظيراً له ، وما تزال أوربا تحاول الوصول إلى ما وصل إليه الإسلام في ذلك المجال ، دون أية بارقة من أمل في تحقيق أمنيتها المنشودة .

يقول مونتجمري وايت رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبره بإيرلندا في كتابه « الإسلام والجماعة المتحدة » : إن هذه الفكرة منحت المسلم مقياساً للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والوطنية ، وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة وربقة الوراثة والمصالح الشخصية .

(ب) وأما قوة الإسلام ونظرياته الاقتصادية: فقد أثبت الزمن صلابتها

وصلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان ، وهي عامل من عوامل خلوده في الأرض .

لقد عرف القرن التاسع عشر نظام رأس المال ، وجعل الربا قاعدته الأولى ، وعاب كذباً وزوراً على الإسلام أنه يقف حجر عثرة في سبيل التقدم الاقتصادي بتحريمه الربا . ولم يلبث هذا النظام أن شهد نطاقاً آخر يرميه بالسفه ، ويحاول أن يصرعه ، ويصفه بالاستغلال ، وهو نظام المادية الاقتصادية الذي ينكر الربا وينكر معه رأس المال

ويقف النظامان اليوم يتصارعان على سيادة العالم ، والاستحواذ على اقتصاديات الأمم .

وهذا دليل ما بعده من دليل على أن نظرية الإسلام في الاقتصاد التي مر عليها نحو أربعة عشر قرنا ، ولا تزال مطبقة كلها أو بعضها في بعض الدول الإسلامية ، هي من المنعة والقوة والعظمة والخلود والدوام بمكان لا تحلم به نظرية اقتصادية أخرى .

ومن أهم مقومات هذه النظرية الإسلامية ؛ الحرية الاقتصادية بأقوى مدلولاتها ، وأوسع مفهوماتها ، وأن رأس المال يتحكم فيه الوازع الديني ويوجهه لخير المجتمع الإسلامي ورفاهيته ، وأن رأس المال لم يوجد ليوقع ضرراً بالجماعة الإسلامية ، ومن ثم حرم الإسلام الربا والاستغلال والاحتكار وكنز المال ، وشرع الحجر على الإنسان للسفه والجنون وغيرهما ، وقرر الصدقة والإحسان والزكاة ، وقرر شرائع البيع والإجارة والمزارعة والمساقاة والشركات والقرض والهبة والوصية والميراث ليتداول المجتمع المسلم الثروة لخيره ورفاهيته ، كي لا تكو ن دولة بين الأغنياء . نظاماً إلهياً عادلاً يكفل لكل إنسان الأمن من العوز ، والحق في العمل ، وفي الحصول على الأجر المناسب وعلى تكافل اجتماعي سليم ؛ ويضمن له كذلك المنافسة الشريفة العادلة من أجل ازدهار الاقتصاد الإسلامي الحر .

(ج) وأما قوة الإسلام العالمية فهي مضرب المثل في التاريخ والحياة وعند المفكرين المعاصرين ، وهي موضع العجب عند جميع المؤرخين العالميين المنصفين .

وحسبك أن الإسلام أمد أتباعه بقوة عالية حطمت دولة الأكاسرة ، وقلمت أظفار القياصرة ، وقضت على دول الحروب الصليبية والمغول ؛ ووقف شامخاً أبياً عزيزاً أمام دول الاستعمار ودول التبشير والدعاية المذهبية منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم .

ويؤكد المؤرخ الانجليزي توسيني معجزة الإسلام الكبرى في انبعاثه ، وفي استيلائه على الامبراطورية الساسانية ، ثم على الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وفي فوزه بولاء مئات الملايين من الشعوب ، لتسامحه وعدالته .

ويقرر المؤرخ كروبر في كتابه « طبيعة الثقافة » (ص ٣٨٨) أن الإسلام لا يخضع للمقاييس التي يخضع لها غيره من الظواهر الروحية والاجتماعية ، إذ لم تكن له طفولة أو شباب بل انبعث ظاهرة متكاملة غاية التكامل.وحقاً ، لقد انتشر الإسلام في العالم كله في زمن يسير ، كما ينتشر شعاع الشمس في لحظات ، وكان انتشاره دون مساندة قوته له في هذا المضمار معجزة من معجزاته ، ودليلاً على سمو مبادئه وغاياته ، وعقائده وتشريعاته ؛ هذه المبادىء التي كانت ولا تزال تشع النور والهداية والمعرفة والعلم على الناس .

وهكذا أصبح للاسلام كيان دولي عالمي منذ ظهوره فقد أحدث آثاره العظيمة المدوية منذ حياة الرسول نفسه ، وأثرت مبادئه في السياسة العالمية ، ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم ، هذا بينما لم يصبح للمسيحية تأثير سياسي وديني في العالم إلا بعد وفاة المسيح بثلاثمائة عام ، وبفضل اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية .

وإذا كان الاستعمار قد حاول طويلا أن يبعد الإسلام عن مراكز القوة والتأثير في العالم ، وجاء التبشير ليحارب الإسلام وتأثيره في إفريقيا وآسيا ، تارة باسم الدين ، وأخرى باسم العلم ، أو المدنية أو الوطنية ، فان ديننا

الخالد قد بقي صامداً ؛ وهو اليوم يقف مبتسماً ساخراً شامخاً في معركة الدعاية المذهبية الراهنة ، وفي جميع معاركه مع الصهيونية العالمية في أرض فلسطين العربية المسلمة .

ولقد ربّى المبشرون في مدارسهم طائفة من الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم العربي ، وصنعوهم كما شاءوا لهم ، ولا تزال طوائف أخرى تتلقى في مراكز الدعاية المادية ، أخطر وسائل الانقضاض على مقومات شعوبها وأوطانها الروحية والثقافية والاقتصادية ، ونحن نقول لهم : لا تنسوا أيها المسلمون الشباب والشيوخ أن الابتسامة الجميلة التي تقابلون بها في معاهد العلم حملت وتحمل أخطر أفكار التدمير للكيان الإسلامي القوي العظيم ، وأن هدفها الأول القضاء على أعظم رسالات السماء قوة وصدقاً وحقاً ، وأجلها أثراً وخطراً في الحياة .

والإسلام قوة أجل وأعظم ، وأسمى وأكرم ، وأبقى على الزمن مما يظن كل أولئك ، وهي قوة تزداد وهجاً ، وحيوية وضياء بمرور الأيام ، وتقدم العلم ، ووقوف المفكرين في صفه ، وصلابة المسلمين الحقيقيين في الدفاع عنه .

وأولى بأوروبا ، ومراكز التبشير ، أن تنصرف إلى حرب الوثنية والمادية والتأخر والهمجية ،وإلى حل مشكلات الإنسان المعاصر ، وإلى غير ذلك من وسائل تعين على تقدم البشر ورفاهيتهم .

— ٤ —

ويجيء سبب من أوثق أسباب خلود الاسلام ، وأكبر مقوماته ، وهو القرآن الكريم . هذه المعجزةُ الإلهيةُ الكبرى ، هـذا الناموس السماويُّ الأعظمُ ، هذا القانون الانساني الحكيم .

القرآن بما تضمنه من القيم والمثل ، وبما احتوت عليه سوره وآياته من

الحقّ والصدق ، والهدى والنور ، وبما اشتمل عليه من العلم والحكمة ، وأخبار الأولين ، وبدءِ الحياةِ على الأرض ، وتطور الانسانية ونهايتها ... هو هو ، معجزة الدهور ، وآية الاحقاب والعصور

إعجازه الأدبي ، وإعجازه العلمي والكوني ، وإعجـازه الروحي والاجتماعي والتشريعي . هو آية الآيات ، وهو الدليل على جلاله وخلوده في الأرض .

لقد كشف القرآن في عصور الجهل كل طلاسم العلم ، وحل من عهود البداوة كل ألغاز الحياة ، وأتى بحقائق مذهلة لم تتأت للإنسان وسائل فهـم بعضها حتى اليوم في القرن العشرين .

فلا تزال الروح سراً محجباً على العلماء ، وقد أجمل القرآن نظريتها وسرها الرحيب في أبلغ كلماته ، فقال : « **ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** » (١) .

وقد فسر القرآن نشأة الحياة والكون والانسان تفسيراً علمياً رفيعاً بديعاً . ما أحوجنا إلى الحديث عنه في بحثٍ آخر .

وفي قوله تعالى : « **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون** » (٢) ، مثل من أمثلة ، هذا الانجاز العلمي .

ولا يزال العلماء يختلفون في نشأة المجموعة الشمسية : أنشأت من انفجار الشمس ، أم من اصطدامها بشمسٍ أخرى ، أو بمذنب عابر من الفضاء .

ولا يزال العلم حتى اليوم عاجزاً عن فهم بعض حقائق الحياة التي جاء القرآن بأحدث تفسير لها ، وفي نظرية هير نبرج أن العلم لا يستطيع أن يعرف مقدماً كيف يتصرف كهرب واحد من كهارب الأجسام المادية ، وإنما الذي يعرفه من ذلك هو حكم الجملة ، مما يستحيل تطبيقه على الأجزاء المتفرقة .

---

(١) ٨٥ الإسراء (٢) ٣٠ الأنبياء

والنواميس الكونية غير معروفة حتّى اليوم عند العلماء يقول بيرس : إن المصادفات قد تكون اليوم قوانين في دور التكوين ، والقوانين قد تكون مصادفات تكررت على وتيرة واحدة ، ولكنها لا يرتبط بعضها ببعض ارتباط الأسباب بالمسبّبات .

وفي قوله تعالى : « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون**»[1] .. فيه ما فيه من معجزات علمية باهرة تدل على قدرة الله ووحدانيته ، وتسخيره لهذا الكون العجيب .

وقد احتوى القرآن على قصص النبوات الأولى التي لم تُذكر في كتب العهد القديم كقصص عادٍ وثمودَ . وذي الكِفل وغيرهم ، مما يدل دلالة واضحة على إعجاز القرآنٍ الكريم . وعلى أن الكتب السماوية القديمة لم تكن مصدر أنباء الأولين وتواريخ الأقدمين ، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، كما يقول بعض المفترين .

فهل هناك سبب أقوى من هذا السبب في فهم إعجاز القرآن الحكيم ، وعظمة المعجزة الإلهية فيه .

وهاكم مثلا بسيطاً لعظمة كتاب الله، ولإعجازه الذي هو سر من أسرار الخلود فيه :

النحل ، هذا الطائر الصغير ، الذي يقطف رحيق الأزهار ، ويلقح مختلف الأشجار ، ويخرج الشهد المصفى ؛ من عجب أن تسمى سورة من سور القرآن باسمه ، دليلا على صنيع القدرة الألهية فيه ، ومصداقاً لقوله تعالى : « **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربِّكِ ذللا ، يخرج**

---

(١) ٣٧ – ٤٠ يس .

من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون»[1]

شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

عجباً يا رب ، وصدقاً وحقاً ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

ويزيد عجبنا حينما نجد أن الله تعالى قدم ذكر الجبال في الآية ، لأن الشهد الذي يخرج فيها من النحل يكون أعظم جودة ، وأجل فائدة ، وقد رأيت « رأس الهلال » من ليبيا ، وهو جبل « شاهق » فيها على البحر الأبيض المتوسط بين سوسة ودرنة يزيد ارتفاعه على ألف وخمسمائة متر ، وعسل النحل الذي يجمع منه من أجود أصناف الشهد التي يعرفها العالم .

ويقول الإمام الطبري في تفسيره [2]:

يخرج من بطون النحل شراب وهو العسل ، مختلف ألوانه لأن فيه أبيض وأحمر وأسمر ، أي ذا لون مكون من عدة ألوان ، وفيه أي في القرآن رأي ، أو في الشهد في رأي آخرين ، شفاءٌ للناس من الأدواء .

ولم يأت الإمام الطبري بجديد في تفسير الآية الكريمة .

ما فائدة النصّ على أنه مختلف ألوانه ، ولماذا كان فيه أي في العسل شفاء للناس ؟ فيه اسلوب التعظيم والتكثير المستفاد من تنكير كلمة المسند إليه ، وهي « شفاء » ، ولماذا قدّمَ ذكر الشهدِ : المأخوذ من زهور الجبال على مـا عداه .

يالله ما أشد جهل الانسان بعظمة هذا القرآن .

لقد أراد مبشر « مغرور » أن يتهكم بالاسلام وكتابه وأهله ، وأن يبين مدى تأخر المسلمين ، فذكر عسل النحل ، وأنه هو العلاج الوحيد الذي وصفه القرآن . ولفظة « الوحيد » جاءت في كلامه مبينّة على المغالطة والكذب والافتراء على كتاب الله وعلى الاسلام ، وهذا المبشر هو زويمر مؤلف كتاب « بلاد العرب مهد الاسلام » .

---

(١) النحل آية ٦٨ و٦٩

(٢) الجزء ١٤ ص ٩ تفسير الطبري .

ونترك هذا المبشر وكتابه الأثيم ، لنعود إلى كتاب يصدره مسيحي آخر باللغة الانجليزية ، وهو كتاب « الطب الطبيعي » الذي وصف فيه خصائص الشهد الطبيعية العجيبة ، فقرر أن البكتيريا — وهي جراثيم الأمراض لا تعيش — في الشهد ، لاحتوائه على مادة ، البوتاس التي تقضي على الرطوبة اللازمة لحياة البيكتريا .

وجاء أستاذ في البكتيريا في إحدى كليات الزراعة بجامعة اوروبية ، فأجرى تجارب على أنواع مختلفة من جراثيم الأمراض لمعرفة مدى تحملها للحياة في الشهد . ومن أجل ذلك وضع أنواعاً من الجراثيم في قوارير مملوءة بعسل النحل الصرف ، وكانت النتيجة كما يلي :

أولا — ماتت جراثيم بعض الأمراض بعد خمس ساعات .

ثانياً — ماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات .

ثالثاً — ماتت جراثيم التيفوئيد بعد ثمان وأربعين ساعة أي يومين .

رابعاً — ماتت جراثيم النزلات الصدرية في اليوم الرابع .

هذا إلى توفر الأغذية المعدنية في الشهد وتبلغ أكثر من عشرة معادن، فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في الشهد الضارب إلى السواد .

وقد بيّن هذا العالم أنواع المعادن الغذائية في الشهد ، وعلاقتها بألوان هذا الشراب .

كما شهد الكيمائيون للمادة السكرية في الشهد بأنها :

١ — سريعة التمثيل في البنية الحية .

٢ — وبأنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

٣ — وبأنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم .

٤ — وبأنها مهدئة وملطفة .

٥ — وبأنها أوفق للكليتين دون سائر المواد السكرية .

٦ — وبأنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة المفقودة .

٧ – وبأنها يسهل الحصول عليها [١] .

ومن هذا كله ندرك سر وكثرة ما في الشهد من شفاء ودواء ، وعظمة القرآن الكريم الذي سجّل هذه الحقيقة العلمية منذ أربعة عشر قرناً وسجل معها اختلاف المعادن الغذائية في النحل باختلاف ألوانه ، ونقف في خشوع وإجلال مبهورين بما احتواه من أسرار العلم ودقائقه ، مما سبق به العلم الحديث ، وانظروا إلى عظمة الاعجاز في قوله تعالى : « ان اتخذي من الجبال بيوتاً » ، وقوله عز وجل « شراب مختلف ألوانه » مما يشير إلى اختلاف المواد الغذائية في الشهد باختلاف ألوانه .

أفليس ذلك دليلا على سمو القرآن وخلوده ما بقيت الحياة .

– ٥ –

وسبب آخر أو أخير أو خامس لخلود الاسلام هو وعد الله الصادق الحكيم في قوله تعالى : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » [٢] .

ويؤكد ما قرره القرآن هنا أن الاسلام وقد مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزمان ، جابهه فيها آلاف المضللين والمموّهين والمفترين والمغرورين ، وآلاف الدعوات والمذاهب والنظريات ؛ ولم تستطع دعوة ولا صاحب دعوة منها أن تخدع المسلمين عن حقهم بالباطل الذي يفتريه الكاذبون ، وظل وسيظل الاسلام خالداً محفوظاً إلى يوم القيامة بإذن الله .

إننا اليوم ونحن نشهد غربة الاسلام الروحية في عقول بعض المسلمين ، من أبواق المبشرين والماديين والجاحدين ، لنعتقد أن الله عز وجل ناصر دينه ، ومظهر نوره ولو كره الكافرون والمشركون .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » [٣] .

---

(١) ١٦١ و١٦٢ ما يقال عن الإسلام للعقاد

(٢) ٩ سورة الحجر

(٣) رواه البخاري في كتاب الحج ومسلم وابن ماجة، وراويه هو ابو هريرة ويروى الحديث في آيات مختلفة :

وغربة الإسلام في آخر الزمان المشبهة بغربته في أول ظهوره يمكن تفسيرها بما يلي :

أولا ـ قلة المسلمين في آخر الزمان أو ضعفهم وهوانهم ، مما أشبهوا فيه حالة المسلمين في بدء ظهور الاسلام ، التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » ، ويقول ابن الأثير : كان الاسلام في بدء أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له لقلة المسلمين يومئذ .

ثانياً ـ ضعف الدين في نفوس المسلمين في آخر الزمان ، حتى لا يكاد يوجد بين القائمين به إلا الأفراد ، كما يقول المناوي في « فيض القدير » (١) .

ثالثاً ـ قلة ما فرضه القرآن على المسلمين من أحكام الدين في بدء ظهور الاسلام ، وقلة ما يعملون به من أحكام الدين في آخر الزمان كما ذكر المناوي أيضاً (٢) .

أ ـ عن سعد بن ابي وقاص قال سمعت رسول الله (ص) وهو يقول : إن الإيمان بدأ غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناس ـ الجزء الثالث من مسند الامام أحمد ـ دار المعارف

ب ـ عن ابن عمر : إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، اي فيقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء ـ ويروى عن ثوبان عن رسول الله (ص) : « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ؛ قال المناوي في فيض القدير . (٢ / ٣٢١) : بدأ غريبا أي في قلة من الناس ثم انتشر ، وسيعود غريبا لا يكاد يوجد من القائمين به إلا الأفراد .

(١) ٢ / ٣٢١ فيض القدير للمناوي ، وقد جمع الطرطوشي بين التعليل الأول والثاني فقال في تفسير الحديث : (٢٩ كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي ـ ط دار الاصفهاني بجدة) : كان الرجل إذا أسلم غريبا مستخفيا بإسلامه قد جفاه الأهل والعشيرة ، فهو بينهم دليل حقير خائف ، ثم يعود غريبا لكثرة الأهواء المضلة حتى يمسي أهل الحق غرباء

رابعاً – وذهب الشيخ المراغيُّ في مقدمته لكتاب « حياة محمد » أن غربة الاسلام في بدئه معناها أنه إنما ظهر وقوي في المدينة ولم تكن هي دار الاسلام الأولى ، بل هي دار غربة له بالنسبة إلى مكة ، وغربته في آخر الزمان معناها أنه يعتريه ضعف بعد ظهور أمره ، ثم يعود إلى الظهور بين أقوام غرباء عنه من غير أهله ، فيقيض الله له أمة قوية جديدة تدين به ، وتحميه ويعود بها إلى الظهور من جديد .

خامساً – ويذهب عالم جليل هو الشيخ قادوم إلى أن المعنى على غرابة مبادىء الاسلام على النفوس أولا وأخيراً .

ومهما كان الرأي في معنى الحديث ، فأنا لا أخرج به عن معنى غربة الاسلام الروحية والفكرية في نفوس بعض المسلمين في آخر الزمان ، مما نشاهد بعضاً منه اليوم في زماننا ، من تنكر البعض لمبادىء الاسلام ونظمه وأحكامه وتشريعاته .. ولكن الحديث لا يدل على شيء مما حمل عليه بالباطل من ذهاب شوكة الاسلام وأهله ، لأنه سيظل عزيزاً أبداً ، قوياً أبداً ، خالداً أبداً ، في نفوس مئات الملايين من المسلمين الذين اعتنقوه عقيدة وشريعة إلهية حكيمة ، وفي نفوس الآلاف التي تعتنقه كل يوم في شتى أنحاء العالم ، مؤمنة بأنه خاتم الشرائع ، ودين الله الخالد ، وصدق الله العظيم فيما يقول : « **وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد** [1] .

وليس أدل على خلود الاسلام من قوله تعالى : « **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نورَه ، ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون** »

---

(١) ٤٢ سورة فصلت

(٢) ٣٢ و٣٣ سورة التوبة

وبعد فإننا — ولا بد إن شاء الله — سوف نشهد ازدهار الإسلام وقوته . وعظمته ، رضي الجاحدون والكافرون ذلك أم كرهوا .

وهنا نقول : إن على شباب الجامعات العربية بعامة ، وشباب الجامعات الاسلامية بخاصة ، أن يعملوا من أجل الإسلام ، ومن أجل تقدم المجتمعات الاسلامية .

عليهم أن يحاربوا الغربة الروحية لمبادىء الاسلام في نفوس بعض المسلمين .

عليهم أن يدرسوا الحضارة الاسلامية في عصورها الزاهرة،أن يدرسوا الفكر الاسلامي واعلامه .

أن يدرسوا الثقافة الاسلامية في تراثها العظيم الخالد ، الذي تأخذه اوربا علماً وفكراً ومبادىء وسلوكاً ، ونزدريه نحن . فيقول البعض من المثقفين : اطرحوا الورق الأصفر في الماء ، وارموا به خلف ظهوركم — وكذبوا فيما يقولون — .

عليهم أن يدرسوا مبادىء الاسلام وأصوله الخالدة في كل فروع الحياة ، وينشروها في دراسات حديثة قريبة إلى عقل الشباب المسلم ، وإلى طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، فيقوموا بواجب التعريف بالاسلام ، وتحببه إلى عقول الناس في عصرنا الحاضر بكل وسيلة .

أن يدرسوا السيرة النبوية والفتوحات الاسلامية ومعارك الاسلام الكبرى .

أن يدرسوا حركة الاسلام ومجتمعاته في مختلف العصور ، والحركات الاسلامية اليوم في الشرق والغرب .

أن ينشئوا المجلات الاسلامية .

أن يبنوا الكيان الاسلامي بالأعمال والحقائق .

أن يبنوا المراكز الاسلامية في كل مكان منارات علم وهداية إلى الاسلام .

وإننا يجب أن نعلم أن التخطيط في الشرق والغرب قائم على قدم وساق

لمحاربة الاسلام ، وأن وسائل هذه الحرب ما خفي منها وما بطن كثيرة لا تنقصها القوة . ولديها المال والعلم والخبرة .

ومن هنا كانت التبعة كبيرة ، والمسؤولية فادحة ، والأمانة ثقيلة .

فلنعمل دائماً ، ولنعمل أبداً ، من أجل الاسلام ، وكتابه الحكيم الخالد .

لتكون العزة لله ولرسوله وللدين وللمؤمنين .

لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

فإن الله وعد المؤمنين حقاً وصدقاً ، وعدهم بالنصر ، وأكد أن دين الاسلام خالد إلى يوم الدين .

وبعد فما أجل مفاخر الاسلام ومآثره وعظائمه التي لا ينتهي الحديث فيها ، ولا يمل الكلام عنها ، وتقف كل بلاغة دون بلاغتها وآياتها العظيمة الباهرة .

وهنا أعترف بالعجز مهما قلت ، وبالقصور مهما حدثت ، وحسبي أن أتمثل بقول هوميروس شاعر اليونان القديم في مطلع ملحمته المشهورة « الإلياذة » :

نشيد الزمان
وقصيدة الماضي
وغناء السلف
وحداءُ القافلةِ ، لا تفتأ تخُب في بيداء الأزلِ ، إلى الواحةِ المفقودة في متاهة الأبد
أنشد أيها الشاعر
واملأ الأحقابَ موسيقى
واللانهاية جمالاً وسحرا
فالأرواح ظامئة

والقلوبُ متعبــةٌ
والانسانيةُ واجفةٌ
والآذانُ مكدودةٌ من دويِّ العصر
فهي أبداً تحنُّ إلى سكونِ الماضي
لن تصمتَ أيها الشاعر
فالقيثارةُ الخالدةُ لا تزال في يديك
والقلوبُ هي القلوبُ
فدع أوتارَها تملأ الدنيا رنينا
فطالما أوسعتنا من هذه الدنيا أنينا
إن رنينَك العذبَ أذهب لأنين الشاكين ، ولوعة الباكين

والسلام عليكم ورحمة الله .

الفَصْلُ الثَّامِنُ

– الصورة الأدبية في القرآن الكريم –

الصُّورَة الأدبيّة في القرآن الكريم

— ١ —

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية ؛ فضلا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والانسانية ، التي كانت جدتها حدثاً كبيراً ضخماً من أهم الأحداث العالمية ، وأكبرها اثارة وجليل أثر ، وكبير خطر في الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد ، وبأكثر وأكبر مما أتى ويأتي به أي جديد ، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل ما وصل اليه الفكر الانساني من تطورات مذهلة ، ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ؛ وجدة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور انساني وبشري ، وامام كل تقدم فكري بلغته الحياة حتى اليوم ، والقرآن الحكيم كما كان جديداً على عقل انسان القرون الأولى لنزوله ، فانه بفكره المشرق المضيء ، وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم ، هو جديد أبداً ، وسيظل هو الجديد دائماً على مر العصور والأجيال والاحقاب .

لن نفيض في الحديث اذن عن الجدة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم ... ويدفعنا إلى ذلك أمران :

الأول : جانب المعجزة في القرآن الكريم .

والثاني : جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية ، فضلا عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره في الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستبين للباحث أهمية أي نص من نصوص الأدب ، أو أثر من آثاره الرفيعة الا إذا ادرك ادراكاً عميقاً مدى الجدة في هذا الأثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها إلى الفكر الانساني شيئاً لم يضفه اليه السابقون .

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية أمرا مسلماً به ، فان الذي سينتهي بنا الحديث اليه هو تقرير الجدة في الصورة الأدبية للقرآن الكريم ايضاً ، لأن تقريرها أساسي لتقرير أي أثر وفهمه ومعرفة قيمته .

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة في الصورة الأدبية للقرآن ؟ ولا نطلق البحث اطلاقاً ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانب الأدبي عامة من جديد ؟ .

نعم نريد أن نبحث عن الجديد في الصورة الأدبية في القرآن الكريم وحدها ، لأن الصورة الأدبية هي الاطار العام للأدب ، وهي التي تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه ؛ وهي التي تستثير الباحث أول ما يستثيره في النص الأدبي من خصائص ومميزات على أن الصورة الأدبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية ، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف الا نادراً جداً ، وفي أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب .

— ٢ —

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب :

الأول : أنها تعني المنهج وطريقة الأداء ؛ وتساوي بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة الخ ..

والثاني : أن الصورة هي الشكل في النص الأدبي ، وتقابل المضمون الذي هو الفكرة أو المعنى ، أو الغرض أيضاً (مع بعض التجاوز) في النص ، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة العبارة — أي الأسلوب — والخيال الذي يلون عاطفة الأديب ويصورها . وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون ، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، فلا يطغى المضمون على الشكل أي الصورة . والا خرج الكلام من باب الأدب إلى العلم ؛ ولا تطغى الصورة على المضمون ، والا كان الكلام أدباً لفظياً انشائياً لا وزن له في باب الفكر ، بل في مجال الأدب أيضاً ؛ وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة ، كما يهتم بالصورة أو الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم بالمعنى الأول الذي هو طريقة الأداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل أو النظم أو الأسلوب .

— ٣ —

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والاسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف .

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه في المجتمع العربي كبير خطر ، ولا عظيم شأن ؛ وكان أكثره ارتجالا واقتضاباً ، وليس فيه ثقافة واسعة ، ولا فكر مضيء ، وأكثره ، يذهب في الشتات والاختلاف وتفكك الوحدة الفنية (أو العضوية) مذهباً بعيداً ، فضلا عن أن النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالا يذكر ، ولم يوله عناية ما ، ولا أحله منزلة خاصة ، وفوق ذلك كله

فقد فقد النثر الجاهلي قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ، ولضياع أكثره للمدة الطويلة التي عاشها هذا النثر معتمداً في بقائه على الحافظة وحدها ، والحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلا فيها بعكس الشعر لأنه مقيد والنثر مطلق ، والمقيد يبقى في الذاكرة أكثر مما يبقى المطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفض كثير من الدارسين والنقاد ؛ ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين أيضاً ، رفضوا أن يسمى نثراً فنياً ، لأنه في رأيهم لم يكن محتوياً على عناصر النثر ومقوماته ، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبي ، الذي يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة ... ولكل هذه الأسباب كانت الصور الأدبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية .

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ، وهو المجتمع الذي نزل القرآن الكريم متحدثاً اليه،مفيضاً في التوجه — كل التوجه — له .

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفني ، حتى انتهت إلى ما انتهت اليه من قصيدة المعلقات المعروفة ذات الصبغة المتوازية العمودية ، التي وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل الوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التي ورثناها عن الجاهليين ،وكانت لهذه القصيدة منزلتهاومكانتها وأهميتها في المجتمع العربي ؛ فهي حديث الناس ، وموضع اعتزازهموتقديرهم وفخرهم ، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم ، وفي مسامراتهم ، وأنديتهم ، وفي أسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم ، وهي على العموم آية عبقرية ، ودليل شخصية وذاتية عظيمة ،والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس ، وبلغ من أمر قصيدة المعلقات أن علقت على استار الكعبة .

وإذا أردنا ان نعرف قيمة قصيدة المعلقات هذه ؛لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها :

١ – تخلو من كل قيمة فكرية أو انسانية أو روحية .

٢ – وأنها تخلو من كل وحدة فنيـة، مما لاحظه عليها ، كثير من النقاد المعاصرين من امثال العقاد في كتابه (مراجعات) وغير العقاد أيضاً ، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلي فى مجلة الثقافة (١).

٣ – وانها تمثل منهجاً بدوياً في التعبير والاسلوب واللفظ والخيال ، وليس هو كل شيء في مناهج التعبير الأدبي .

٤ – وانها كذلك تكثر أخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة .

ولسنا نقول نحن ذلك تجنياً على القصيدة العربية القديمة ، بل لقد سبقنا إلى ذلك الامام ابو بكر الباقلاني في كتابه المشهور « إعجاز القرآن » الذي درس معلقة امرىء القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه ، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها .

ونحن نعرف أهمية قصيدة المعلقات معرفة وثيقة، فهي التي وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية ، وهي التي تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلا كاملا، وهي التي استنبطت منها احكام اللغة العربية وقراعدها في بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها واحكام مفرداتها ونظام معجماتها، وغير ذلك.

وهي كذلك التي امدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية ، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول : اذا عزّ عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه من شعر العرب (٢). فنحن لا نريد ان نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية او ننفر منها ، ولكننا نضعها في موضعها الذي وضعه فيها الامام الباقلاني في مقام حديثه عن اعجاز القرآن الكريم.

هذه القصيدة الشعرية اذن كانت ارفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين، ومع ذلك فانها لا تزن شيئاً في مقام الحديث عن الصورة الأدبية من القرآن الكريم

---

(١) «جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي» – أحمد أمين، مجلة الثقافة المصرية – عام ١٩٣٩

(٢) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتابنا «الحياة الأدبية في العصر الجاهلي»، وكتابنا «موقف النقاد من الشعر الجاهلي»

فما هي اذاً الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها ، والطريف منها ، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها والوانها وطرق أدائها ؟

لأول وهلة نجد أنفسنا امام اشياء جديدة كل الجدة، ففرقان وقرآن، وآيات وسور ؛ اسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك .

وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١) .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (٢) .

الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون (٣) .

طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٤) .

سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات مبينات، لعلكم تذكرون (٥)

ولم يتنزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب ، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطاً له . ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية،ولا المثل ولا الحكمة، ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة .

ولكننا نجد فيه القصة في أرفع أشكالها وأروع ظلالها ، ونجد فيه الخيال الرفيع في ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة، ونجد فيه البشارة والانذار والوعد والوعيد ، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور .

لم يكن القرآن شعراً ولا سجعاً ولا مزاوجة ولا نثراً مرسلا ولا خطابة ، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من مناهج كلامهم ، ينصرف على وجوه مختلفة ، من ذكر قصص ومواعظ

---

(١) آية ١٠٦ سورة الإسراء
(٢) آية ١ من سورة الفرقان
(٣) آية ١ من سورة القصص
(٤) آية ١ و٢ من سورة طه
(٥) آية ١ من سورة النور

واحتجاج وحكم وأحكام،واعذار وانذار، ووعد ووعيد وتبشير وتخويف، واوصاف وتعليم، وسير مأثورة، ويتردد بين طرفي الايجاز والاطناب. كلمه يضيء، كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر؛ كالروح في البدن، والأمن في الوطن، وكالغيث الشامل، والسحاب الهاطل، وكالضياء الباهر، والبحر الزاخر ...

ران تعجب، فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الانسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها،وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها وأملها وكفرها وايمانها، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة، التي يسعى اليها انسان الاسلام، وتسير لشاطئها الأمين انسانية الحياة في ظلال الدين؛ لأنه خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة.

وفي القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة، واتمام مطابقة المثل، ما جمع به البلاغة من مختلف اقطارها. وفيه من الحجة الدامغة، والروحانية الصافية، والحديث عن العقيدة، والافاضة في بيان الشرك والايمان. والشر والخير ما يوقظ الضمائر، ويحرك العقول، ويثير النفوس.

وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية،والشرائع البائدة، والاديان السالفة، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن الأخبار بالمغيبات، ومن الافاضة في شرح الدعوة، وبيان التشريع،والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السماوات والأرض، وبقياس الغائب على الشاهد، وبضرب الأمثال، وبالبراهين العقلية المجردة، وفيه: من حسن التقسيم، وجمال المقابلة، وروعة الطباق، وبديع الجناس، ورفيع الفواصل، ما يهز القلوب ويملك على عقل الانسان كل منافذه وأبوابه.

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية، وليس كتاب شعر وأدب ولا حكمة أو تاريخ او اجتماع؛ وانما هو خلاصة لكل

ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الانسانية كلها ، وصحيفة البشرية قاطبة .

وما أروع القرآن في فواتحه ومقاصده وخواتيمه ، وفي مبادىء آياته وفواصلها ، وفي حديثه عن المعاني الدقيقة ، والأفكار العميقة ، والأغراض النبيلة ، وفيما اشتمل عليه من دقة التصوير ، وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التأثير ، وروعة الايجاز ، وسحر المجاز ،وبلاغة التكرار ، وفصاحة التعريض. يصور نعيم المؤمنين ، وسعادة المتقين ، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة ، وبالسعادة والفرحة ، وبالسرور والحبور ، وبقرة العين ، وانثلاج الصدر ، وبالعجب والطرب . ثم يصور هلاك العاصين ، وشقاء الجاحدين ،وعذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكر والاعتبار ، والتفكر والتدبر ، والألم والدمع ،والبكاء ،والعبرة المنسكبة ، والآهة المرددة .

والسورة القرآنية ، قصيرة أو طويلة تجيء ممثلة لفكرة ، ومصورة لغرض ، ومؤدية لمعنى . وتسير في جوها العبق ، وأفقها الساحر ، وجوانبها المشرقة ، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشي مع الغرض القرآني ، غاية فغاية ، في وحدة واتساق ، وفي نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفي منطق منسق ، وحجج متدافعة متدفقة ؛ وتجد الآيات تتحرك في معرض الاستدلال كأنها موكب من نور ، ومهرجان مصور لادق خفايا الشعور ، وحنايا الصدور ، وتجد في هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التي تمثلها السورة الأخرى ، وغرضاً واضحاً غير الغرض الذي ترمي اليه السورة السابقة أو اللاحقة .

وتجد افتتاحات السور العجيبة ، مثل: ص ، ن ، ق ، طه ، طسم ، حم ، الر ، ألم ، إلى غير ذلك .

وتجد الآيات تتوالى في السورة ، وكأنها البحر الهادر ، والموج العاصف ، وتجد الفواصل في السورة ، موقعة الخطا ، منغمة الحروف ، وتجد القصة والعبرة ، والموعظة والحكمة في قالب من السحر ولا كسحر هـاروت وماروت ؛ وفي طابع من الحسن والجمال ، ولا كحسن يوسف واخوته .

وتجد لكل سورة اسماً عجيباً : البقرة ، والرعد ، والطور ، والمائدة والكهف ،ويونس،ويوسف،وابراهيم،ومحمد، والنور والمؤمنين،والمنافقين ، والضحى ، والشمس ، والقتال ، والفتح ، والحشر ، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والتحريم ، والاحزاب،والمائدة ، والانفال ، والتوبة ، وآل عمران ، والجمعة ، والعصر.. إلى غير ذلك ؛ وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثاً وعبرة .

وكل ذلك نمط مخالف لانماط البيان عند الجاهليين ، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين تنزلت عليهم هذه المعجزة الالهية الحكيمة ... انها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثلا ولا شبيهاً بها ، ولا تجدها نفسها ، الا في القرآن الكريم .

سبحانك ربي ، انزلت القرآن ، وفصلت الفرقان ، وأحكمت البرهان ، وأنت رب العالمين . ومنزل الكتاب المبين . ورأى العرب الكتاب شيئاً عجبا ، ومنطقاً جديداً ، ومنطلقاً فسيحاً من الحكمة الالهية الجليلة ، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب: « لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر » . انما هو الوحي ، الوحي المنزل على محمد بن عبدالله، الوحي الذي نفس بعض العرب على محمد ان ينزل عليه ، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الاخنس بن قيس يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد ، فقال الاخنس : ماذا أقول : قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، وقالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم عادوا يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي ، والله لا آمنت به أبداً .

إنه الوحي المنزل من السماء ، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء ؛ وكفاه ذلك فخراً على فخر ، وسناء على سناء .

— ٥ —

ونتحدث بعد ذلك عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية ، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون ، بعد أن تحدثنا عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية التي يراد منها الجنس الأدبي وطريقة الأداء والمنهج الذي ينتهي اليـه المتكلم في التعبـير .

والصورة التي نريد أن نتحدث هنا عنها ، ونريد بها الشكل في النص القرآني ، لا يمتري أحد ، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام في أنها والجدة صنوان ، وفي أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان .

تتكون عناصر الصورة من: الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، يضاف اليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني، من الايقاع واللحن للكلمات والعبارات، ومن الصور والظلال التي يشعها التعبير، ثم هناك طريقة تتناول الموضوع، أي الاسلوب الذي تعرض به التجربة لأدبية .

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره ، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الادبي ، وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيراً دقيقاً .

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلا ، يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل كلمة على كلمة ، ويقول كثير من النقاد : اننا نفكر بالألفاظ ، أي أن الالفاظ هي مظهر ادراكنا الفكري ،وعمل الاديب تهيئة الجو الفني للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والايقاع وترسم الصور ، وتؤدي المعاني في رشاقة وحركة وتتابع وعذوبة . نقرأ قوله تعالى في كتابه العزيز في سورة « **والضحى والليل إذا سجى** » فنجد جواً من الهدوء والطمأنينة والنعمة ؛ ونقرأ قوله

تعالى : « **فأصبح في المدينة خائفاً يترقب** » ، فتجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت في كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن ؛ ونقرأ قوله تعالى « **عتل بعد ذلك زنيم** » فنجد البلاغة في أرفع منازلها ، ولا نجد لفظاً يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع بمثل هذه اللفظة ... وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعاني تمثيلا دقيقاً رائعاً كاملا غير منقوص ..

والخيال في الصورة الأدبية يبدو في مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل ...

والايقاع أو اللحن في الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال .

وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءاً بالحيوية والمتعة والتأثير ، وتجعله لا يقلد أحداً في لفظه ولا في عبارته ؛ وليس الاسلوب حشداً من الألفاظ المرصوصة ، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية ، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى في الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام ان تراعى فيه مقامات الكلام واحوال بلاغته ، فتوضع الجزالة في موضعها ، والرقة والعذوبة في موضعها ، ويوضع التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والايجاز والاطناب ، كل في موضعه ، وبذلك تكمل الصورة ، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة ، ومن البدهي أن أبلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافاً ، وانما يجب أن يصور الاسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم واحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها .

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هو كل شيء في البلاغة ، أو أهم شيء فيها ؛ ولو أردنا أن نقول : إن الصورة الأدبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الاسلوب ، جاءت على أبلغ ما يكون الأداء في القران الكريم ، وعلى أروع ما يكون التصوير في أسلوب الذكر الحكيم ، لما أتينا بجديد في الموضوع .

ان البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة ، عما ألف العرب في بلاغاتهم ؛ وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج في أسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ؛ والوصل والفصل ، والايجاز والاطناب ، والتشبيه والتمثيل ، والمجاز والحقيقة ، والاستعارة والكناية ، والتمثيل والتعريض ؛ ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية الى مستوى القمة ، وحد الاعجاز ، ومنزلة السحر والروعة ؛ ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآني وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعاً ، والفرق بعيداً ، ويطول بنا الأمر لو وازنا بين أساليب القرآن وأساليب العرب ، فان النتيجة التي سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الاسلوب والسحر فيه .

والعناصر الأخرى الجديدة في الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها ، ولا تزال علوم البلاغة والنحو تسير في طريقها محاولة الكشف عنها ، من مثل الوحدة العضوية في الصورة الأدبية ومن مثل التجربة الأدبية التي يؤديها البليغ ويجمعها كلامه ، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال في الصورة ، ومن مثل النظم والشكل في النص ، ومن مثل أثر الالهام أو الصفة في الصورة الأدبية ، ومن مثل الرمزية في الاسلوب أو الفكرة ، ومن مثل الوضوح والجمال ومن مثل التأثير في الاسلوب ؛ وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الأدبية ، كالرقة والجزالة ، وكالتعريض والكناية ، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة كل الجدة ، في كل جوانبها وألوانها ، سواء منها العناصر القديمة التي تداول استعمالها في الاسلوب ، أو العناصر الجديدة التي كشف عنها النقاد المحدثون ، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التي كشف عنها النقاد القدماء . ولو حاولت أن أبين كل

ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله في ساعة أو بعض ساعة ، وكمن يظن أن في قدرته الاحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد في اسرار بلاغة القرآن الكريم واعجازه .

— ٧ —

وحسبك أن اسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن اشراق البيان وجمال الديباجة ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، وبين القوة والعذوبة ، وبين حرارة الايمان وتدقيق البيان ، فهو السحر الساحر والنور الباهر ، والحق الساطع والصدق المبين .

نظم رائع وألفاظ عذبة ، وخيال صادق ، وعاطفة حارة ، وفكر رفيع ، تملك على القارىء والسامع لبه ووجدانه ، وعقله وبيانه ، ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين ، وما ايمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت » ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلا ، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، إلا دليل السحر القرآني الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم : ان هو الا سحر مبين ، وقولهم: ان هذا الا سحر يؤثر ، السحر القرآني الذي يتمثل فيما يتمثل في صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، واحكام البيان ، وروعة التصوير .

اي وربي ، وهل تجد أفصح وأجزل و أسلس من الفاظــه ؟ وهل ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، الآخذ بمجامع القلوب ، ومشاعر النفوس .

ان بلاغة الصورة الأدبية وجدتها في القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار اعجازها باحث أو ناقد .

وحسبك روعة القرآن وجدته وحيويته وأخذه بالأفئدة والاسماع ، والمشاعر والعواطف والنفوس ، وحسبك خلوده على مر الأيام ، واختلاف البيئات والعصور .

هذه البساطة في الاسلوب ، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه . والجزالة والعذوبة في أطرافه ونواحيه تمثل فيما تمثل جانباً من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم .

وهذا اعرابي سمع قوله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين** » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ؛ وهذا آخر سمع قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً** » فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على هذا الكلام.

وماذا نقول في حسن التأليف وتخير الألفاظ ، والتئام الكلمات ، واحكام الصنعة ، وجودة السبك ، وكمال البيان ، وجمال الرونق ، ومتانة النسج ؟ وماذا نقول في هذا النظام الفريد، والنسق الغريب ،وفي هذه النضارة والجلالة، وفي ذلك الاشراق والبهاء ودقة الصوغ ؟

ألفاظ كأنها السحر ، وكأنها الدر ، تشع نوراً كما يشع الفجر ، وتهدر حركة وحياة ونمواً وتجدداً كما يهدر البحر ، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر .

وصور تموج كما تموج العواصف ، وتتحرك كما تتحرك الأشباح لراكب مسرع في السير ،

وبلاغة هي حديث الأيام ، والتي سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الأعوام ؛ وما هي الا الضوء السافر ، والهدى الباهر والوحي الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أو رأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على الرسول وسمع منه ؛ فقال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ،

ووالله ان لقوله الذي يقول حلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر اعلاه ، مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه .

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر ، وهي مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات ، مشرقة الصور والقسمات والصفحات ؛ نسق هو السحر ، وتآخ وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنه الوحدة الالهية التي دعا اليها القرآن ؛ ممثلة في كلمات .

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة ، وهذه الجماة قصيرة في نظمهم ، ولكل جملة معنى ، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام؛ وجاء القرآن الكريم ، فصارت الجملة تمثل أرفع المعاني وأدقها،وسار نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر ، وقد تطول الجملة القرآنية ، وتتركب فيها الصور ، وتتوالى المشاهد ، وتتعاقب المعاني ، وقد لا يؤدي المعنى القرآني آية أو آيات ، بل عشرات الآيات ، ومع ذلك فلن تجد الا فكراً مهذباً ، ونظاماً محكماً ، وتصويراً منمنماً ووشياً منمقاً ، واحكاماً في الصياغة ، ودقة في الصناعة ، ولن تجد الا وشياً يبهرك جماله ، ويسحرك جلاله ، ولن تجد الا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح .

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير ، وابراز معالم المعنى جزءاً جزءاً ، وحركة بعد حركة ، وان شئت فاسمع قوله تعالى : « **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً** » ، وقوله تعالى : « **وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً** » ، وقوله تعالى : « **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً** » . ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة وهي من سورة الكهف لرأينا فيها هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثلة في أروع بيان ، وأبسط تعبير ، ولرأينا فيها هذا الايجاز الرفيع البليغ مع أداء المعنى كاملا غير منقوص ، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة الممثلة لأروع تصوير للغرض المقصود ، الآية ثلاث جمل قصار :

١ — **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض .**

٢ — **ونفخ في الصور .**

٣ — **فجمعناهم جمعاً .**

وترى في الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة ، والسر في ذلك هو كلمة يموج التي أدت لك الصورة كاملة ، والمشهد رائعاً ، والمعنى ممثلا أدق تمثيل ، وأدت لك الحركة والحياة ، ومشت بك إلى آفاق رحيبة من جلال الأداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير .

وفي الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذي يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها إلى الناس ان قد جاء أمر الله ، وان نهاية الأمر لا بد أن توضع ، وأن الناس وهم في أمر مريج لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد ، وأمر عتيد ، وقدر شديد .

وتجيء الجملة الثالثة تعلن اليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعاً إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان ، وان قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم ، وشدة شتاتهم ، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر « جمعاً » ليدلك على عظمة القدرة ، وروعة المشهد ، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق في هذا الموقف العصيب .

ولو أن بليغاً من أبلغ الناس ، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان ، حاول أن يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره ، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه ، لما استطاع أن يقول ، ولما قدر أن يتكلم ، ولما أمكنه أن يؤدي هذا المعنى في عمقه ودقته بمثل هذا الاسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته .

اي وربي إنه القرآن الحكيم ، انه الذكر المبين ، انه الجلال والعظمة ، والايجاز والأعجاز ، وروعة التصوير التي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي إلى بيان .

وماذا أقول ، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئاً ولن أبلغ بكلامي مبلغاً ما؟!

يا كتاب الله ، يا معجزة القرآن يا آية البيان ، يا روعة الدهور ، يا عظمة العصور ، يا جلال السماء ، يا حكمة الأنبياء ، يا وحيا نزل على محمد بن عبد الله .. يا كتاب الله حسبي ، فان الانسان لأعجز عن أن يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان ، ودقائق الفرقان ، وروائع التصوير والتبيان !

الفَصْلُ التَاسِعُ

الإسلام كما رآه جوته – عباس بن فرناس .

الإسلام كما رآه جوته

— ١ —

يقول النقاد : ان الالمان شعب المفكرين والشعراء ، وصدقوا فيما يقولون ، فقد ظهر على مسرح الحياة العقلية في المانيا في القرنين التاسع عشر والعشرين أعلام عديدون من المفكرين والأدباء والشعراء ممن خلد ذكرهم ، وذاع أدبهم وطار صيتهم في كل مكان .

— ٢ —

ففي اثناء القرن التاسع عشر كانت دول الاستعمار مشغولة بغزو العالم والسيطرة على مرافقه مسلحة بشتى الاسلحة الحديثة ، التي كشف عنها العلم وابتكرتها قريحة الانسان وعقله وذكاؤه ، ولكن الشعب الالماني كان بعيداً عن معارك السيطرة والغزو ،وكان شغله الأهم عنده هو الادب والفلسفة والبحث العلمي الذي كان أقوى عوامل التقدم الصناعي والتجاري العالمي ،وكان الادب الالماني في بداية القرن التاسع عشر في حياة مزدهرة ،فظهر في المانيا أكبر شعرائها عبقرية وثقافة والماماً واسعاً بتاريخ الشعر ،وقد نشر جوته عام ١٨١٩ م كتابه الذي اسماه « الديوان الشرقي الغربي » وقد احتوى على اشعار عديدة قلد فيها هذا الشاعر الملهم الروح الفارسي في الشعر ، كما احتوى على مقالات مختلفة بعضها في العلم والبحث والدراسة ، والآخر يتضمن مشاعر عميقة مستوحاة من روح الشرق الاسلامي وآدابه .

— ٣ —

ونتساءل من اين استمد جوته هذا الاهتمام الحي بنتاج الحضارة والثقافة الاسلامية العربية ، وبآثار العرب الخالدة في الشعر والتفكير ؟ ومن غير شك كانت حركة الاستشراق ذات اثر كبير في ذلك ، فقد ترجمت آثار اسلامية كثيرة على ايدي المستشرقين ، مما زاد من أجله اطلاع المثقفين في اوروبا على اللغات الشرقية ، وعلى انتاج الادباء العرب والفرس ، وفي ميدان الدراسات اللغوية يلفت النظر عالم عبقري اسمه هامر برجشتل ، كان قد درس اللغات العربية والفارسية والتركية في شبابه في مدرسة مخصوصة لتربية المترجمين من أجل الخدمة الدبلوماسية ، قد أسستها الامبراطورة النمسوية ماري تريز في القرن الثامن عشر ،وقد زار هامر برجشتل تركيا واقام فيها فترة مترجماً في السفارة النمسوية وجاء إلى مصر مع الجيش الانجليزي الذي اسقط حكومة نابليون الظالمة في وادي النيل،وكان « هامر برجشتل » قد بذل جهوداً كبيرة في سبيل جمع المخطوطات العربية ودراسة محتوياتها وبعد عودته إلى فيينا ترجم كثيراً من قراءاته وما ترجمه التائية المشهورة لعمر بن الفارض شاعر الحب الالهي ، كما ترجم قصة عنترة بن شداد ،وكتاب ايها الولد للغزالي،وديوان محمد شمس الدين حافظ الفارسي . ولما اطلع جوته في مدينة وايمار على تلك الترجمات أثاره جمال الشعر العربي الشرقي ، وعمق ما فيه من افكار ،وسحرته روح الشرق الذي قال عنه « ان من الشرق تهب روح الآباء » اي الأنبياء — الذين طالما قرأ عنهم جوته في الكتاب المقدس .

— ٤ —

وقد صدر الديوان الشرقي الغربي عام ١٨١٩ ، وسمى الشاعر الابواب المختلفة بأسماء أخذها من ديوان حافظ ، ومنها كتاب زليخا ، كتاب الخلد ، كتاب الساقي .

ومن يقرأ الديوان الشرقي الغربي يجد فيه افكارا اسلامية عديدة مثل « الأسماء الحسنى » والجنة والمعراج والهجرة ، وقد صور ذلك بالاعتماد على روح القرآن وبلاغته .

وكان جوته يفسر كل ذلك في هامش « الديوان » ويختار قصصا من حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — واخرى عن الملائكة، ويدون روايات عن مجنون ليلى يضمنها شعره، فصارت هذه القصص جزءا من صميم الادب الالماني الحديث . وفي المقالات كتب كثيرا عن شعر العرب في الجاهلية، وعن جمال القرآن وبلاغته وفائدته للانسانية، وعن خصائص الشعر الفارسي .

ويقول في شعر مشهور له :

ان من عرف نفسه وعرف غيره
لا بد أن يعرف هنا أيضا
ان الشرق والغرب لا يفترقان
واني لاستحسن ان يعيش الانسان فيهما
والخير في الاهتمام بالشرق والغرب جميعا

ثم يعبر عن رجائه في أن ينفتح الباب لفهم روح الشرق وتاريخه بتأثير الترجمة ، لروائع الشرق وآثاره الروحية والفكرية والادبية .

— ٥ —

وكان من اكبر تلاميذ جوته الذين يمثلون الروح الشرقي في آدابهم المستشرق فريد « رنج ركرت » وكانت له عبقرية العالم والاديب (وتوفي سنة ١٨٦٦م) وله ترجمة لخمسين سورة من القرآن الكريم، وقدضمن ترجمته لها كثيرا من خصائص بلاغة اللغة العربية، حتى السجع فقد كتب باللغة الالمانية باساليبه. وكذلك نشر ركرت ترجمة مقالات الحريري، وكل من له ذوق أدبي وثقافة عالية يعرف ان هذا الكتاب هو من الادب العالمي الذي لا يفهمه كل قارىء لما احتوى عليه من تصوير لشتى الوان المشاعر ودقائق الاحاسيس، ولما احتوى عليه من مختلف الاساليب والالفاظ العربية الفصيحة .

وقد قلد ركرت كل ذلك وقيل انه اجبر اللغة الالمانية على الرياضة ثم ترجم ركرت حماسة أبي تمام وكثيرا من الشعر الفارسي ، ونظم قصصا عديدة مأخوذة من قصص الأنبياء والرسل ، وأذيعت تلك القصائد في الكتب لتلاميذ المدارس الابتدائية . وهكذا كان الطفل الالماني يقرأ الكثير من حكمة الشرق الاسلامي التي احتوت عليها قصص النبيين وآداب الصوفية والشعر العربي الاسلامي والشعر الفارسي .

ومن أجل ذلك ازدهرت الدراسات الفارسية في المانيا وقدم الاديب الالماني « جورس Gorres » ترجمة الملحمة القومية الايرانية « الشاهنامة » نثرا للشعب الالماني وعلى هذه الطريقة اطلع القراء الالمان على عقلية ايران بعد الاسلام .

— ٦ —

وقد اهتم الشعراء الالمان بالشعر الفارسي وترجم اكبرهم « بلاتن Platen » غزل محمد شمس الدين حافظ مقلداً اسلوبه وشعره واظهر بسلاسة التعبيرات العاطفية في العشق والغرام كيف كان يفهم روح الشعر الفارسي ، وكان بلاتن يجيد اللغة الفارسية وتوفي عام ١٨٣٥ م .

— ٧ —

وبعد بلاتن ظهر « شاك Shack » الذي اهتم بالشعر العربي اهتماما كبيرا والف لنا فيه كتابا كبيرا عام ١٨٧٠ م حول الشعر العربي في الاندلس وفنونه، وقد اختار فيه طائفة كبيرة من القصائد والموشحات الاندلسية ومنتخبات من الزجل .

وله ترجمات اخرى من العربية والفارسية ، وقد قلد طراز الشعراء الشرقيين عموما في شعره ، ونشرت ترجماته واشعاره أيضا في الكتب لطلاب المدارس الثانوية .. واني لأعجب كيف كانت احدى قصائد « شاك » تحمسني في

صغري وهي التي صور فيها حياة البطل العربي سعد بن أبي وقاص الذي قضى على امبراطورية فارس وتغلب على الملك الايراني « يزدجرد » ولما طلب القائد الايراني منه ان لا يقتله الا بعد أن يشرب كأس ماء أجاب طلبه فتناول القائد الايراني الاسير الكأس ثم رمى بها قبل أن يشرب منها فاستبقاه البطل العربي برا بعهده قائلا : لن يخدع مسلم ضيفه أبدا . فكل من يتلقى تعليمه في المدارس الالمانية يعرف هذه القصيدة ويعجب بكرامة الابطال العرب .

— ٨ —

ولا ننسى هنا مستشرقا آخر اسمه « بودنستد » وكان مقيما في تفليس منذ سنين وقد قلد في شعره روح حافظ وعمر الخيام وانتشرت كتبه كثيرا بين محبي الشعر والأدب لانه كان متفوقا جدا في تنويع الشعر الالماني حسب الوزن والقافية الشرقية .

— ٩ —

واما شعر التصوف فكان أشهر من ترجم منه كثيرا « روزن Rasen » اذ ترجم جزءا كبيرا من المثنوي المعنوي لجلال الدين الرومي عام ١٨٤٩م، ولا يستطيع القارىء ان يملك اعجابه بسحر تلك الابيات الصوفية التي ترجمها أديب يجمع في عبقريته العلم والشعور الشعري .

— ١٠ —

وأما القرآن فاذكر هنا ما كتبه جوته في الديوان الشرقي الغربي قائلا : انه كان يكره قراءة هذا الكتاب في أول الامر ثم جذبه الى قراءته حتى اضطره اخيرا الى الاعجاب به وتقديره .

وقد انتشرت ترجمة القرآن في المانيا وطبع فيها مرارا ، ولم يفق احد من المترجمين عبقرية المستشرق « ركرت » الذي ترجم النص بالسجع .

واني في هذه الدراسة الوجيزة اراني مضطرا لاغفال الآثار العلمية للمستشرقين

الالمان وغيرهم ، انما اقتصرت على الشعراء المشهورين منهم وهم الذين كان لمؤلفاتهم تأثير عميق في قلوب الشعب الالماني .

وبمناسبة هذه الكلمة الموجزة ايضا أقول : ان كارل بروكلمان المستشرق الالماني الكبير ، قد ترجم كتابه المشهور « تاريخ الآداب العربية » الى اللغة العربية وظهرت بعض أجزائه في هذه الايام،وكان قد الف مختصراً لهذا التاريخ الادبي عام ١٩٠١ م وأوضح فيه اعجابه بالموهبة الاصيلة في الشعر العربي وفي القرآن الكريم :

— ١١ —

لقد كان ظهور جوته كعالم ومفكر وأديب رشاعر في المجتمع الالماني بداية لعصر جديد ، يسوده الاعتدال والانصاف والفهم لرسالة الاسلام ، خاصة وان النزعة السائدة في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي كانت تنكر الكتب السماوية والوحي الالهي ، وان اعترفت بوجود الله جل جلاله .

وبتأثير آراء جوته وانصافه أصبح الناس يعترفون بوجود قيم روحية في الاديان الاخرى غير المسيحية ، وان ذهب الكثير منهم الى انها ثمرة للعبقرية الانسانية .

انه لا عجب ان يؤثر جوته في عقلية المجتمع الأوروبي تأثيراً كبيرا ، وأن يخطو به خطوة كبيرة الى انصاف الرسالات السماوية ومن بينها الاسلام خاصة . وليس بغريب ان نجد مفكرا مثل جوته يهتم في عصر الاستنارة في أوروبا بكل ظواهر الادب والتفكير بقدر ما وصل اليه العقل البشري من مستوى آنذاك وفي أثناء محاولة نابليون غزو الشرق وضمه الى امبراطوريته .

ومن المهم أن نعرف آراء المفكرين والادباء في أوروبا ، وخاصة جوته حول دين الاسلام ونبيه الكريم ، ومما يلفت النظر اهتمام عباقرة الشعر الالماني في عصر التنوير بالقرآن .

ومن ثم رأيت أن أخصص هذا البحث للتعريف بآراء جوته حول الاسلام ورسوله والقرآن ومضمونه الديني ، وذلك بترجمة فصل من ديوان جوته

الشهير « الديوان الشرقي الغربي » الذي طبع في المانيا للمرة الأولى عام ١٨١٩ .

ونحن لا ننكر أن آراء جوته صادرة من شاعر ومفكر نشأ في عصر الاستنارة وتأثر بآرائه ، ولكن هذا المفكر العبقري الكبير كانت آراؤه أول خطوة كبيرة لانصاف الاسلام من روح العصبية التي كانت تسود اوروبا في عصره . ومن الموجب للامعان ان نجد تشابها كبيرا بين آراء جوته في الاسلام وما قاله بونابرت أثناء وجوده في القاهرة ، وهذه المشابهة تلفت النظر حقا ، وخاصة انها كانت تنطوي على الاعتراف بالقرآن وجماله وبلاغته ونزعته الانسانية وفائدته التي تعود بالنفع على مجتمعات الاسلام .

— ١٢ —

يقول جوته : ان نبي الاسلام كان رجلا قويا ممتازا في كل شيء،وكثيراً ما أوضح لقومه انه ليس شاعرا ، بل نبي فحسب.ومن ثم يجب أن ينظر الى قرآنه كشرح الهي وتعليم سماوي وليس كتابا انسانيا للدراسة والمتعة فحسب .

ويفرق هذا الشاعر الالماني العظيم بين الشعراء والانبياء قائلا ان الشاعر ليست له أهداف،انما يحاول اظهار بلاغة فنه واصالة موهبته؛وغرضه المتعة واللذة، ونيل الحياة المترفة ، أما النبي فهدفه:أن يعلن عقيدة،وان يعمل على جمع الشعوب حولها كما تجتمع على علم واحد .

وفي الكتاب الذي جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — تفسير لغاياته وشريعته ودعوته ، ويكرر القرآن بعض أفكاره وقصصه؛وفي الست الآيات الاولى من سورة البقرة بيان موجز لمضمون القرآن وأصوله وما وعد به المؤمنين من الجنة وما توعد به الكافرين من النار .

ويشتمل القرآن على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى قصص الانبياء مما اشتمل على بعضها أسفار العهد القديم.ونحن اذا قرأنا القرآن الزمنا بالاعجاب به وتقديره واحترامه وامعان النظر فيه .

وواضح أن المقصود الرئيسي للقرآن جمع كل معتنقي الديانات الموجودة في جزيرة العرب مع سكانها المتعددين الذين كان دين أغلبهم الوثنية حول

الاسلام ورسالة القرآن، ليؤمنوا بآله واحد قادر أبدي خالق كل شيء، والحاكم الأعلى، ورب كل الارباب، وليعبدوه، وليصدقوا بشريعة الاسلام وعباداته، وليقروا بأن محمدا نبي الله ورسوله الذي بعثه لينشر دين‌الله الحق، وليبشر به المؤمنين وينذر الكافرين، وليذيعه في الارض حتى يعترف الناس جميعا انه رسول الله .

ويسمي المسلمون العصر السابق للاسلام بالجاهلية ، ويؤمنون بأن عصر العلم والحكمة والتنوير لم يبدأ الا مع الاسلام .

ومن الجدير بالاعتبار كما يقول جوته : اسلوب القرآن ، هذا الاسلوب العظيم والقوي والرهيب والجليل حقا ، ويقول انه لا ينكر انسان عظمة تأثير أسلوب القرآن، ومن ثم يعتقد المؤمنون به انه ازلي وغير مخلوق .

ولا شك أن هذا الكتاب سيبقى مثيرا للفكر الانساني الى الأبد والى أعلى درجة من التأثير ، لانه قد نظم نظما بالغا عجيبا وفق أذواق شعب عربي أصيل ، تهزه البلاغة ويحافظ على تراثه وتقاليده .

وكان محمد يسلك أسلوبا منطقيا عاليا في ابلاغ دعوته، ومن ثم حارب الخرافات، وكره الشعر والاساطير ، انه كان ضد التخيلات الموهومة وقد حول مشاعر قومه الى قيم روحية جليلة ، تجلت في ايمانهم برسالة الاسلام ، التي تدعو الى الايمان بإله واحد ، والى طاعته والاعتماد عليه والثقة بحكمته وارادته العليا .

وعندما نتأمل في قصص نوح وإبراهيم ويوسف في القرآن يستبد بنـــا التأثير والاعجاب .

هذه هي آراء جوته في الاسلام ونبيه وكتابه كما سجلها في « الديوان الشرقي الغربي » .

وهي آراء تستدعي الاهتمام وامعان النظر ، والاعجاب بعبقرية جوته .

عبّاس بن فرناس

« عبقرية الفكر الاسلامي ،
ومفخرة الشرق السائرة ،
وحديث الانسانية الأولى ،
وأول طيار ركب متن الهواء ».

يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادي الأحلام والسحر ، وأن الفكر الاسلامي من نبعة الفكر السامي ، فيه اضطراب الفكرة ، والعجز عن إدراك الحقيقة في جوهرها ، والقنوع بالبحث في حواشيها ومظاهرها .

ويقولون : إن الحضارة الاسلامية حضارة عقيمة ، لم تسد للانسانية يدا ، ولم ينؤ بحمل منها جيد . فالجمل هو الجمل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة الاسلامية ، والمصباح هو المصباح ، زيت وفتيل ، استضاء به المسلمون في أزهى عصورهم ، كما استعمله الانسان منذ فجر عصور التاريخ ؛ والماء هو الماء ، تجري به الأنهار ، وتغص به الأودية ، ويحمله المسلمون على ظهورهم وفوق متون رواحلهم ، كما كان يصنع القدماء . والفن هو الفن ، لم تنبغ فيه في الاسلام يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا في الفن الاسلامي ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الأكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟ والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الاغريق ، ومعابد الرومان ، وجامعات الاسكندرية وجنديسابور وحران ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الاسلامية ركوب الجمل ، فحاولت تذليل الهواء ، وأنفت من هذا النبراس الضئيل ، فاتخذت الثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفافي الشوارع والميادين . وأبت أن تعيش في نصب البداوة ، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض ، وفجرته من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه » ، وأجرته إلى « البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة » والفن الاسلامي أمامكم فانظروه : في آثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفي قصور الزهراء والحمراء ومساجد الشرق العظيمة الشامخة ، التي تسخر بالزمن ، وتبسم في وجوه الأيام ، وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الاسلامي فاقرأوا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفي الادارة والسياسة والطب والعلاج ، وفي جميع ميادين النشاط الانساني ، لا تتعجلوا بالحكم عليها ، قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتئد هؤلاء في الحكم على حضارة أظلت العالم أحقابا طوالا ، ونقلت جميع الحضارات القديمة – بعد أن هضمتها وهذبتها ووجهتها توجيها جديدا – إلى العالم في أول عصر النهضة الحديثة ، وكانت السبب المباشر في قيام الحضارة الأوروبية التي يضيء نورها الدنيا الآن .

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيدا لبحثي عن أبي القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال .

نشأ «عباس » في بلاد الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري : والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير .

وكان لا بد له – ككل شاب طامح – أن يرد مناهل العلم ، ويغذي فكره

وعقله بالثقافة الاسلامية في مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتتلمذ على رجال العلم ، ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيدا عن عيون الناس والجمهور ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه . ثم خرج « عباس » إلى الحياة العامة ، شابا ثائر الفكر ، متأجج العزيمة مشتعل الذكاء ، لايريد أن يفكر كما يفكر الناس ولا أن يعيش كما يعيشون، ولا ان يعنى بما يعنون به ، بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر ، وان يستنبط ويخترع ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم .

وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوي من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة التي نسير على أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة .

ثم أخذت نفسه تحدثه : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون ، وفعلا تم له ما أراد ، فاخترع آلته البديعة « المنقالة » التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور ...

أيظل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرحب ؛ ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الانسان ؟

هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما تطير النسور في الهواء ؟

وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة

الفريدة ، التي هي أول محاولة بشرية للطيران ، فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الانسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء ، فارتفع في الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون .

ثم كان لا بد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويداً رويداً حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض في جسده .

لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه ، فآمن بأنهما وسيلته في الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ توازنه حين هبوطه إلى الأرض . فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشاً وجناحين ، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه .

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر في السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقريين في كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ، بل ويعادونهم عداء شديداً .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سبباً لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقي صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته .

وعلى أي فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته، والى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس ، ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذي سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

لم يسكن هذا الفكر الثائر ، والعقل الجبار ، بل أخذ يعمل ويبتكر ، حتى تمكن من وضع صورة في بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم

والغيوم والرعود والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سماء عباس الأديب أبي الـ   قاسم ناهيك حسن رائقها

...   .

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار ، في سبيل خدمة الحضارة ، والرقي بالحياة الإسلامية في عصره .

وكان مع هذا موسيقيا بارعـا ، يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان ، وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل ابن أحمد .

وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب ، اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ الى ٢٧٣ هـ ، فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة .

أنشد الأمير محمداً من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمـدا   وفي وجهه بذر المحبة يثمر

وخرج أهل طليطلة حوالي عام ٢٤٠ هـ على الامير محمد واستعانوا بالافرنج فخرج اليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم ، وفي ذلك يقول ابن فرناس :

أضحـت طليطـة معطلة   من أهلها في قبضة الصقر
تركت بـلا أهل تؤهلهـا   مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقي الله قنطـرة   نصبت لحمل كتائب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤوساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه :

ولو لم يشقني الظـاعنون لشاقـني   حمام تداعت في الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى　　نوائح ما تجري لهـن دموع

فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمود يدي حين خانهـا　　زمان لاسباب الرجاء قطـوع
بنى لمساعي الجود والمجد قبلـة　　إليها جميع الاجودين ركوع

ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات ، وله القليل منها مما بقي من أدبه محفوظاً في كتب الأدب الأندلسي ومصادره .

وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذي لقب بحق حكيم الأندلس والذي شغل الفكر الأندلسي حياً وميتاً ، وكان أول من فكر في الطيران ، والذي مضى على وفاته احد عشر قرناً من الزمان او يزيد .

الفَصْلُ العَاشِرُ

ابو دلف الخزرجي

كممثل للحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
العاشر الميلادي — الرحالة المسلمون قبل ابي دلف

تمهيد

أبو دلف الخزرجي

من الاعلام الكبيرة في تاريخ الإسلام والعروبة ، شاعر كبير عاش في عصر المتنبي والشريف ، وعلم رفيع من اعلام الأدب الساساني ، وأديب عبقري تتلمذ عليه أمثال بديع الزمان الهمذاني ، ورحالة جاب الاقطار والأمصار .

وجغرافي ترك أجل الآثار الجغرافية .
وجيولوجي له إلمام واسع بالحفريات الجيولوجية .
وعالم من علماء الآثار وقف عليها ، وتتبع أشهر مواطنها في آسيا .
وطبيب كما وصفه معاصره الشاعر السلامي في شعره .

وهو مع ذلك مجهول لا يعرفه أحد من أبناء العربية ، بينما حفلت دوائر الاستشراق بدراسة رحلاته الجغرافية ، والافادة منها في بحوثهم وكشوفهم .

لذلك ألفت عنه هذا الكتاب ، الذي وصلت فيه إلى نتيجة أدبية خطيرة نسيها تاريخنا الأدبي ، وهي أن أبا الفتح الاسكندري الذي ينسب بديع الزمان الهمذاني إليه انشاء مقاماته هو نفسه شخص أبي دلف الخزرجي .

ومع ذلك كله فهو ابن من أبناء الجزيرة العربية ، من ينبع ، ولد ونشأ فيها ، ثم طاف في العالم الاسلامي باحثا ومنقباً ، يجالس الملوك ، وينادم الوزراء ، ويتصدر مجالس الأدب ، وأندية الشعر .. وقد مضى اليوم على وفاته ألف عام (٣٩١ – ١٣٩١) ه.

لذلك كله اخترناه هنا ، وآثرناه بالحديث ، كممثل للحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

— ١ —

اسرة ابي دلف — بيئته — مولده

اسرة ابي دلف :

١ — يعرف تاريخنا الأدبي علمين ، كنية كل منهما هي أبو دلف :

أما الأول فهو القاسم بن عيسى العجلي الذي كني بأبي دلف ، وهو عربي كريم ، وقائد عباسي مشهور ، كان مع الأمين على أخيه المأمون ، في صراع الاخوين على الخلافة ، فلما انتهى الخلاف بينهما بانتصار المأمون ، عفا عن أبي دلف ، فعاش في الكرج بفارس (الكرك) ، ومات في بغداد عام ٢٢٥هـ — ٨٤٠م . وكان من أشهر شعرائه الذين مدحوه : علي بن جبلة (١٦٠ — ٢١٣ هـ : ٧٧٦ — ٨٢٨ م) ، وقد توارث أبناء أبي دلف بعده حكم منطقة الكرج ، ويسمون الدلفيين ، والكرج قريبة من نهاوند بإيران ، ويقول عنها أبو دلف : ان فيها آثاراً لآل أبي دلف ، وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة ، وهي الجادة — أي الحاضرة — بين الأهواز والري وبين أصفهان وهمذان [١] .

وأما الثاني فهو صاحبنا أبو دلف الخزرجي الينبعي أو الينبوعي ، الذي نخرج عنه هذا الكتاب .

٢ — اسمه مسعر بن المهلهل .

ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين في المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس . وللخزرج في الإسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال رسول الله لأن أم جده عبد المطلب «نجارية» .

أما الينبعي فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة في الحجاز ، ويوصف

(١) ص ٧٤ الرسالة الثانية لأبي دلف — نشر عالم الكتب — القاهرة

ابودلف أيضا بالينبوعي ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز .

٣ — لا نعرف عن المهلهل والدمسعر ولا عن قومه شيئاً ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبي‌دلف شحيحة ونادرة .. وقد عني المستشرقون بأعمال أبي دلف الجغرافية وحدهـا ، ومن بينهـم رور صوير ، ومينورسكـي ، وكراتشوفسكي .. ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمي ، كشف ما غمض من حياة أبي دلف نفسها .

أما أم أبي دلف فنجد في رسالة لابن العميد [١] ، كتبها وعيدا وتهديدا لأبي دلف ، ما يدل على أن صاحبنا ينتمي إلى ابنة محمد بن زكريا الذي كان يعاصر ابن العميد .

وقد أعياني البحث في المصادر القديمة عن شخصية محمد بن زكريا فلم أهتد الى أثر له ، وقد أستطيع في المستقبل الاهتداء الى ترجمة له تكشف عن شخصيته فأضيف الى صورة أبي دلف مزيدا من الوضوح والرؤية .

بيئة أبي دلف الأولى

وأبو دلف من ينبع ، ويقال لها ينبوع أيضا في لهجة ، وينبع موضعان : ينبع النخل وينبع البحر ، وبينهما نحو اثنين وخمسين كيلو مترا . ومن إضافة ينبع إلى المضاف اليه نعرف المراد منها ، أما عند إطلاقها من الاضافة ، ففي القديم كانت تنصرف الى ينبع النخل لشهرتها وقلة غناء ينبع البحر ، وفي العصر الحديث الأمر بالعكس فقد صارت ينبع البحر هي صاحبة الشهرة ، فإذا أريد ينبع النخل قيل ينبع النخل دون إطلاق .

وينبع النخل التي ينتمي اليها صاحبنا أبو دلف : هي ناحية واسعة فيها قرى وأودية وعيون ، وتقع غرب المدينة نحو الشمال ، وتبعد عنها بنحو خمسين

---

(١) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة ابي دلف بابن العميد — وراجعها في صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي

ومائة كيلو مترا ، وتقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام .. ويتبعها نحو عشرين قرية .

وكانت ينبع النخل مقرا لقبائل عربية كبيرة : كجهينة ، وحرب ، وغيرهما ، وكانت كذلك مقر كثيرين من الطالبيين ، « وقد استوطن علي ابن أبي طالب ينبع قبل أن يلي الخلافة وكان بها معجباً، ويروون عنه أنه نظر إلى جبالها ، فقال : لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » [١] .

ووصف البشاري [٢] في القرن الرابع الهجري — الذي عاش فيه صاحبنا أبو دلف — ينبع ، فقال :

« ينبع كبيرة جليلة ، حصينة الجدار ، غزيرة الماء ، أعمرُ من يثرب ، حسنة الحصن ، حارة السوق — كناية عن كثرة حركة البيع والشراء فيها — وعامة من يتسوق بالمدينة في الموسم منها » [٣] .

وقد انتقل أناس من الخزرج الى ينبع النخل ، فأقاموا بها ، ومن هؤلاء أسرة أبي دلف [٤] .

وجميع المعلومات التاريخية والجغرافية عن ينبع يمكن أن نجدها في كتاب العلامة حمد الجاسر « بلاد ينبع » وفي مصادر أخرى قديمة وحديثة ، من بينها كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

وبلدة السُّوَيْق في العصر الحاضر هي مقر الإمارة في ينبع النخل ، وقد أصبحت في الزمن الأخير تابعة لإمارة ينبع البحر وأصبحت قاعدة تلك الناحية [٥] .

وأغلب الظن أن أبا دلف ولد في ينبع ، وهو ما ذكره كراتشوفسكي في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » [٦] أيضا ، ويؤيد ذلك قولُ أبي

---

(١) ٢٧ بلا د ينبع — حمد الجاسر — منشورات دار اليمامة بالرياض

(٢) في كتابه « أحسن التقاسيم »

(٣) ص ٢٧ و ٢٨ بلاد ينبع

(٤) راجع ص ١٤٥ المرجع نفسه

(٥) ص ٤٣ بلاد ينبع

(٤) ص ١٨٨

دلف في رسالته التي وصف فيها رحلته الى الصين ، وهي الرسالة الأولى : « لما نبا بي وطني ، ووصل بي السير الى خراسان ، ضارباً في الأرض »[1] ويذكر خالدوف وبولغاكوف في تحقيقهما للرسالة الثانية لأبي دلف ذلك أيضاً ، أي أن ميلاده كان في ينبع ، ولكنهما يخطئان فيقولان : ان مكان مولده هو في مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر الأحمر[2] . ويقولان اثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبي دلف[2]، وهذا تناقض كبير .

ميلاد أبي دلف

تذكر بعض المراجع ، ومن بينها «الأعلام» للزركلي، ان أبا دلف مات نحو عام ٣٩٠ هـ – ١٠٠١ م ، وأنه عاش نحو التسعين عاما ، فيكون ميلاده إذن في خلافة المقتدر بالله العباسي عام ٣٠٠ – ٩١٣ م .

ويذكر الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » أنه عمر تسعين عاماً ، فيقول عنه : «خنق التسعين في الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب » . ولكنه لا يحدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته .

– ٢ –

أبو دلف في كتابات الباحثين – عصره – نشأته الأولى .

أبو دلف في كتابات الباحثين :

أبو دلف شاعر غربي كبير ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره إلا القلة من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسياناً تاماً .

---

(١) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت

(٢) ص ٨ الرسالة الثانية لأبي دلف – ترجمة محمد منير مرسي – نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة .

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجري كله أو جُلّه ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مُطوِّفاً في كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى أرمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، في دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة في القرن الرابع .

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » ، والقزويني في كتابيه « عجائب المخلوقات » و« آثار البلاد » .

والمصدر العربي القديم الذي ترجم لأبي دلف شاعرا ترجمة أدبية ، ليس فيها شيء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبي منصور الثعالبي شيخ الأدباء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري (المتوفى عام ٤٢٩ ﻫ) ، فقد ذكره الثعالبي في الباب السادس الذي خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجي الينبوعي ، مسعر بن المهلهل، شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية في الجدية ، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب في خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبي في الحديث عن أبي دلف ، فيقول : « كان ينتاب — يقصد — حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزوّد كتبه — أي رسائله الـتي تتضمن التوصية — في أسفاره » .

ويشير الثعالبي الى معركة الهجاء التي دارت بين أبي دلف والشاعر السلامي (٣٣٦ — ٣٩٤ ﻫ) .

ويذكر شعراً لأبي دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة (١) .

---

(١) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها «يتيمة الدهر» للثعالبي — بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

وفي موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبي عنه : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبي دلف مسعر بن مهلهل الينبعي، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامي على منزلته [١] .

ويشير الثعالبي الى أبي دلف في بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه في : « عجائب المخلوقات » و« آثار البلاد » [٢] ، وهما للقزويني ؛ وفي « معجم البلدان » لياقوت الذي يشير الى أبي دلف في ٣٤ اقتباساً، دراسات كراتشوفسكي تذكر ٢٤ اقتباساً لا يذكر فيها ياقوت اسم أبي دلف .

وفي «دائرة المعارف الاسلامية» في مادة« مسعر »ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا ؛ وجغرافياً مشهورا [٣] .

وتجيء إشارات صغيرة عنه في كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر [٤]

وفي كتاب الأعلام للزركلي ترجمة لأبي دلف في عدة سطور مما جاء فيها عنه : شاعر رحالة ، وكان يكنى بالرحالة الحجازي ، قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده في تلك الديار في كتاب ضخم ، نقلـه المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوروبية ، تجاوز التسعين من عمره توفي نحو عام ٣٩٠ هـ [٥] .

---

(١) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر

(٢) في كتاب « آثار البلا د » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبي دلف » وان كان لا يشير الى أبي دلف إلا في سبع منهــا ، وفي عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له، وأربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه

(٣) راجع الطبعة الانجليزية الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية

وقد ترجم النص الا نجليزي لهذا البحث الاستاذ وديع فلسطين – الطبعة العربية لم تصل الى هذه المادة

(٤) ١١٧ و١٤٥ بلاد ينبع

(٥) ٨ : ١٠٩ الاعلام للزركلي

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلي نسبه الى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل .

والثاني قوله : في « كتاب ضخم » .. ويقول العلامة الجاسر : إنه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكي وطبعت في مصر سنة ١٩٥٥ في ٣١ صفحة النص العربي والترجمة الانجليزية والدراسة في ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح في أنه ليس كتاباً ضخماً بل رسالة ، وأما قوله : « إن الرسالة حققها المستشرق مينورسكي الخ » فذلك ليس عن رسالة أبي دلف في وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهي التي تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبي دلف في وصف رحلته في آسيا الوسطى وهي التي تسمى الرسالة الثانية .

والرسالة الأولى لأبي دلف عني بتحقيقها المستشرق الألماني رور صوير .

أما الرسالة الثانية فعني بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكي ، ومينورسكي ، وحققها مينورسكي ، ثم خالدوف ويولغاكوف معاً في نصها العربي ، وهما مدرسان بجامعة لينينجراد .

عصر أبي دلف :

عاش أبو دلف في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي .. وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان في مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة في أنحاء العالم الاسلامي الذي كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ، ومن هذه الدول :

١ ــ الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ــ ٣٥٨ هـ) .

٢ ــ الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضا (٣٥٩ ــ ٥٦٧ هـ) .

٣ ـ والحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) .
٤ ـ والسامانية في تركستان ، وعاصمتها بخارى (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ) .
٥ ـ والزيارية في طبرستان ، ومن ملوكها الشاعر الأمير قابوس بن وشمكير (٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ) .
٦ ـ والغزنوية في غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ) .
٧ ـ ودولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من أحفاد الليث [١] بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة من عام ٢٥٤ هـ حتى عام ٣٩٠هـ .
٨ ـ الدولة العلوية في طبرستان ، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره [٢] (٢٥٠ ـ ٣١٦ هـ) .

وقد أثرت الاضطرابات والحروب بين هذه الدول في القرن الرابع الهجري في أحوال البلاد الاسلامية والمسلمين .

نشأة أبي دلف الأولى :

لا نعلم شيئا عن حياة أبي دلف الأولى ونشأته . وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، في وسامة ولطف . وكانت«ينبع »النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعراً ، وعرف كذلك طبيباً ومنجماً ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق .

وفجأة ينبو بأبي دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير الساماني نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار

---

(١) ٣ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه
(٢) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبي دلف ـ نشر «عالم الكتب» بالقاهرة

أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره في كثير من المهـام الرسمية .. كما سنرى ذلك في الفصل التالي .

— ٣ —

أبو دلف في ظلال السامانيين

السامانيون [١] أسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيرا في القرن الثالث الهجري حتى نال أميرها نصر الساماني (عام ٢٦١ هـ) في عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالا ذاتياً ، وظل يحكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ : ٨٩٢ م .. وخلفه من ذريته :

١ ــ اسماعيل الساماني (٢٧٩ ــ ٢٩٥ هـ) .

٢ ــ احمد بن اسماعيل (٢٩٥ ــ ٣٠١ هـ : ٩٠٧ ــ ٩١٤ م) .

٣ ــ نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ ــ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ــ ٩٤٣ م) ، وهو الذي عاش في ظلاله أبو دلف ، ولا نعرف شيئا عن الظروف التي قادته الى بلاط هذا الأمير ، ولا مقدمات صلته به . وفي عهد هذا الأمير الساماني كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزتها وذروة مجدها .

٤ ــ نوح بن نصر (٣٣١ ــ ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ ــ ٩٥٣ م) .

٥ ــ الى ملوك آخرين طار صيتهم في العالم الإسلامي ، ومنهم : نصر بن نوح الساماني (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ) ، ونوح بن منصور (٣٦٦ ــ ٣٨٧ هـ) .

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين ، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء .

وكان الجيهاني [٢] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيرا للسامانيين

---

(١) راجع ١١ : ٧٦ ــ ٨٢ دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) راجع عنه ٢١٩ ــ ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي ، وينقل القزويني عن الجيهاني كثيرا في المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزويني) . =

(توفي عام ٣٣٠ هـ : ٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفي بالعلماء ، ولعله هو الذي احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتباً له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك الساماني نصر بن أحمد .

* * *

وفي عهد الملك نصر بن أحمد وفد الى بخارى وفد هندي برئاسة الأمير الهندي كلاتلي في سفارة هندية الى بلاط الملك الساماني ، وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقاً لهم .

وزار أبو دلف في هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل ملبار ، ووصف ذلك كله في كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رسالتيه في وصف رحلاته [١] .

وفي آخر حكم نصر بن أحمد الساماني وفد على بخارى كذلك وفد صيني ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول : [٢]

« إن رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك الساماني لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره ، لحظْر الشريعة له ، فلما أبى ذلك عرضوا

= وينسب هذا الوزير الى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : إنه كان أديبا فاضلا . وقد ألف الجيهاني كتابا في صورة العالم – أي في الجغرافيا – بعنوان « المسالك في معرفة الممالك » وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ م ، وهو مفقود

والجيهاني هو الذي شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهما الجغرافية .

وهو الذي أغرى أبا زيد البلخي (٢٣٥ – ٣١٩ هـ) الفلكي بالانتقال الى بخارى ، وكان بين البلخي والجيهاني صلة وثيقة ، ولكن البلخي اعتذر له ، وألف البلخي كتابه « صور الأقاليم » عام ٣٠٨هـ – ٩٢٠م بتشجيع من الجيهاني. وفي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصور الأقاليم لأبي زيد البلخي » وهو برقم ١٤ جغرافيا – ويذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ان نسبة هذا المخطوط الى البلخي خطأ، وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

(١) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود ، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلي وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبي دلف ، وإنما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » .

(٢) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت

عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصيني تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية ، وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادي المقام ، فسندابل العاصمة .. ويقول أبو دلف [١] :

«ودخلت على ملكهم ، فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك الساماني نصر بن أحمد ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن إليّ وإلى الرسل ، وأقمنا في ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت إلى خراسان ، إلى نوح بن نصر ، فتزوج بها ، ويقول أبو دلف [١] :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها في الأحايين ، فيفاوضني في أشياء ، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام ، ثم استأذنته في الانصراف ، فأذن لي بعد أن أحسن إليّ .. »

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجع الى بلاده عن طريق سجستان .

وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف في دولة السامانيين ، ومن منزلته في عصره ، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة .

— ٤ —

أبو دُلَف في ظِلالِ البُوَيْهِيّين

تنقضي هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش في ظلال دولة البويهيين ، ولا ندري كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

---

(١) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان ، وفي مروج الذهب للمسعودي المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد : وقد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأي وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ، فهل يقصد المسعودي بذلك أبا دلف ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، والى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : اصبهان والري ، وبغداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهي نفسه .

* * *

وتاريخ البويهيين حافل بالانتصارات الكبيرة ، فهذه الأسرة الفارسية [١] التي بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها أحمد ابن بويه الى دخول بغداد في الحادي عشر من جمادى الاولى عام ٣٣٤ ﻫ في خلافة المستكفي بالله ، وأصبح بجوار الخليفة سلطانا أو ملكاً على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ — ٣٥٦ ﻫ) ، وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ — ٣٦٧ ﻫ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٣ ﻫ) ، وغيرهما من ملوك البويهيين .

واستبدّ البويهيون بالخلفاء استبداداً كبيرا ، فلهم الملك والنفوذ والسلطان . وصار الذي في أيدي العباسيين إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي كما يقول البيروني (ت. عام ٤٤٠ ﻫ) في كتابه « الآثار الباقية [٢] » ، وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا .

خلعوا المستكفي بالله بن المكتفي (٣٣٣ — ٣٣٤ ﻫ) ، وولوا مكانه المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ — ٣٦٣ ﻫ) ثم خلعوه ومات بعد عام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ — ٣٨١ ﻫ) ، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ ﻫ) ، فقال في ذلك الشريف الرضي :

---

(١) ينسب البويهيون أنفسهم الى بهرام جور (٨ : ١٩٧ ابن الأثير) . وبهرام جور هو القيصر الساساني بهرام الخامس (٤٢٠ — ٤٣٨ م) . وأحمد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ — ٣٦٦ ﻫ) ، وعلي عماد الدولة : حكم هؤلاء الأخوة الثلاثة العالم الإسلامي باسم الخليفة العباسي وأقام معز الدولة في بغداد ، وركن الدولة في الري ، وعماد الدولة في شيراز .

(٢) ٢ : ١١٣ المرجع .

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كـان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضرّاء يبكيني[1]

ومن أشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ – ٣٦٠ هـ) وكان إمام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسي في دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهي (٣٢٠ – ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ٩٧٦م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهدداً برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدي في كتابه « مثالب الوزيرين »[2] ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ انك لي مكايد ، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور .. »

إلى أن يقول ابن العميد :

« تقاعست عني بلا عذر ، ووقفتني بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك أنك تدّعي بُنُوّةَ محمد بن زكريا . من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمداً وما خلف بنتا » .

ثم يقول ابن العميد في غضب ظاهر :

«إن في الموت خلاصاً منك ، ومفارقة لمثلك، والله ما أندب إلا حسن ظني بك ، ومباهاتي أهل مجلسي بفضلك ، وقولي : « أبو دلف وما أدراك ما أبو

---

(١) ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضي ، ٣ : ٢٠٢ تجارب الأمم لمسكويه ، كتابي « الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني » .

(٢) ص ٢٨٩ – ٢٩٢ المرجع المذكور .

دلف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فإن وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة » .

« فما زلت أقول هذا وشبهه ، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر ، ويخالفونني بعلمهم في الباطن ، حتى كان الفلج لهم ساعة هذه ، لأني احتجت الى علمك فخيبت عهدي ، وأقبلت عليك فأعرضت عني ، ووهبت لك كلي ، فبخلت ببعضك علي .. ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك .. »

ويقول أبو حيان التوحيدي [1] :

قلت لأبي دلف : ما أجبته عن هذا الكلام ؟

قال : عملت شيئاً لم أجسُرْ على إظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلته .

وتوفي ابن العميد عام ٣٦٠هـ وولي ابنه أبو الفتح منصب أبيه في عهد ركن اللولة ، ثم في عهد مؤيد الدولة الذي كان يؤثر تلميذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقدمه، وانتهى الأمر بمقتل أبي الفتح الوزير عام ٣٦٧ هـ .

أما الوزير الثاني من وزراء البويهيين الكبار : فهو الصاحب بن عباد (٣٢٤ – ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ – ٩٩٥ م) الوزير البويهي الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧ – ٣٨٥هـ) .

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب [2] ، يجلس في مجالسه في أصبهان والري منادما ، ومادحا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر [3] ، وظل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٣٦٧ – ٣٨٥ هـ) ، وكانت له خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب [4] .

---

(١) ٢٩٢ مثالب الوزيرين

(٢) راجع عنه : ٢ / ٢٦٨ – ٢٧٠ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان – كتابي الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني – ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت

(٣) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان

(٤) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، من يُرْبِي عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعاني . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان والري وجرجان مثل : أبي الحسن السلامي ، وأبي سعيد الرستمي ، والبديع الهمذاني ، والقاضي الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي دلف ، والصابي ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبي في « يتيمة الدهر »[1] .

ويذكر الثعالبي أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه[2] .

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبي دلف مسعر بن مهلهل الينبعي ، يشعر ويتطبب ويتنجم[3] .

وكان الأدباء يجدون في ظل الصاحب أمناً وأماناً لهم ، مما حل بالبلاد في عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسي - بيت الفتن والغلاء[4] واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة ، كأبي حيان التوحيدي (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة[5] الملك البويهي في بغداد ، وجلس في مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبي دلف عند هذا الملك البويهي الكبير ، وقد رواها الثعالبي في كتابه « لطائف المعارف » :

جرت بين أبي علي الهائم وأبي دلف الخزرجي في مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة .

---

(١) ٣ / ١٦٩ اليتيمة
(٢) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه
(٣) ٢ : ٤٠٠ المرجع
(٤) ١١٣ أحسن التقاسيم
(٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبي ، والسلامي ، وغيرهما . ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو علي الفارسي الذي أهداه كتابه « الإيضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) .

فقال أبو علي لأبي دلف :

صبّ الله عليك طواعين الشام ، وحُمّى خيبر ، وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وسَنَاقِرَ دِهِسْتَان [1] ، وضَرَّبك بالعرق المدني [2] ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال له أبو دلف :

يا مسكين ، أتقرأ « تبت » على أبي لهب ، وتنقل التمر الى هجر .

بل صب الله عليك : ثعابين مصر ، وأفاعي سجستان ، وعقارب شهرزور وجرّارات [3] الأهواز .

وصبّ عليّ برود اليمن ، وقصب مصر ، ودبابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمائم الأبُلّة ، وسقلاطُون [4] بغداد ، وسِنْجَاب [5] خِرْخير [6] ، وسَمّورَ [7] بلغار ، وثعالب الخزر [8] ، وفنك [9] كاشْغَر ، وفاقُم [10] التُغزُغز ، وحَواصل [11] هَرَارة ، وتِكَكَ [12] أرمينيةَ ، وجوارب قزوين .

وأفرشني : بُسُطَ ارمينية ، وزَلاَليَّ قَالِيقلا ، ومَطَارحَ [13] مَيْسان ، وحُصُر بغداد .

---

(١) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه ودهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(٢) مرض يصيب الانسان ، ينسب الى المدينة ، لكثرته فيها .

(٣) نوع من الحشرات .

(٤) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(٥) حيوان تصنع منه الفراء .

(٦) موضع ينسب إليه جنس من الترك .

(٧) دابة يتخذ من جلدها فراء ثمينة .

(٨) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) .

(٩) ثعلب صغير .

(١٠) حيوان فروه من أفخم الفراء .

(١١) الجلود تلبس للتدفئة .

(١٢) رباط السراويل .

(١٣) بسط .

وأخدمني : خصيان الروم ، وغلمان الترك ، وسراريَّ بخارى ، ووصائف سمرقند .

وحملني على : عتاق البادية ، ونجائب الحجاز ، وبراذين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغال برذعة .

ورزقني : تفاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجوز الهند ، وباقلاء الكوفة ، وسُكّر الأهواز ، وعسل اصبهان، وتَمْر كِرْمَان ، ودِبْس أرَّجَان ، وتين حلوان ، وعنب بغداد ، وعُنّاب جرجان ، وإجّاص بست ، ورمان الرّي، وكمثرى نهاوند ، وسفرجل نيسابور ، ومشمش طوس ، ومُلبّن مرو ، وبطيخ خوارزم .

واشمّني : مسك تُبّت ، وعود الهند ، وعنبر الشّحْر ، وكافور فَنْصُور (١) وأُتْرُجّ طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السِّيرَوَان (٢) ، وورد جور ، ومنثور بغداد ، وزعفران قُمّ (٣) .

فأعجب عضد الدولة بكلام أبي دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان في كل مكان من العالم الإسلامي .. ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التي لم يقلها ملك في أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة في تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف (٤)..

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » .

وأمر له بخلعة وصلة حسنة .

وتدل هذه القصة على ما يلي :

---

(١) بلد قرب الصين .

(٢) بلد بالجبل .

(٣) ٢٣٤ - ٢٣٩ لطائف المعارف للثعالبي - بتحقيق الابياري والصيرفي .

(٤) ٢٢٩ المرجع السابق .

١ – كثرة طواف أبي دلف بالعالم الاسلامي ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه .
٢ – حضور بديهته ، ووفرة أدبه .
٣ – ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .
٤ – وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .
وتوفي عضد الدولة عام ٣٧٣ ﻫ ثم توفي بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ ﻫ .

– ٥ –

وفاة أبي دلف

تقاذفت الأيام بأبي دلف ، وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريما كالملك الساماني ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البويهي .

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفي بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبا من رعايتها .

وشاهد نتائج رحلاته وطوافه بالبلاد ، وتدوينه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شيئا مذكورا .

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبي ، السلامي ، القاضي الجرجاني ، وأبا سعيد الرستمي ، والبستي .

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمي ، البديع الهمذاني ، الصابي ، الصاحب ، ابن العميد .

وقد طوت كل هؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحياة الى مصيرها المحتوم .

فأسلم نفسه للمقادير ، الى أن لقي ربه نحو عام ٣٩١ ﻫ – ١٠٠١ م كما

أرجح ، أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلي في « الأعلام » ، والعلامة حمد الجاسر في كتابه « بلاد ينبع » نقلا عن « الأعلام » .

— ٦ —

الرحالة المسلمون قبل أبي دلف

اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعا كبيرا ، بتأثير الحج والتجارة ، والرغبة في نشر الاسلام ، ولطلب العلم ولقاء العلماء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيام ببعض المهام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفدون الرسل والسفراء الى مختلف أنحاء العالم .

ومنذ خلافة أبي بكر الصديق نجد عبادة بن الصامت ، رهشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون الى القسطنطينية في رسالة من الخليفة أبي بكر الى ملك الروم يدعوه فيها الى الاسلام ، ويقول عبادة بن الصامت : وأقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا إله الا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفة ضربها الريح .

ولما لقوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم .. ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صندوقاً فيه صور الأنبياء من آدم إلى محمد عليه السلام [١] .

واستمرت الرحلات السياسية خلال العصور ، فنجد عمارة بن حمزة يحمل رسالة من المنصور الى ملك الروم [٢] .

ومن الرحلات المشهورة رحلة سلاّم الترجمان الى سور الصين الشمالي بأمر الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ — ٨٤٧ م) .

(١) راجع ص ١٤١ — ١٤٣ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه
(٢) راجع ١٣٧ و١٣٨ المرجع السابق

ثم رحلة سليمان السيرافي ، وقد زار الهند والصين مرارا ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ : ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه في القرن الرابع الهجري مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافي أول رحالة مسلم يشير الى الشاي الذي يشربه الصينيون كثيرا ، ويسمونه « ساج » .

وقد قام بعده ابن وهب القرشي برحلة الى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ : ٨٧٠ م .

وفي كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة ان بعض التجار المسلمين وصلوا إلى كوريا .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٠٩ هـ : ٩٣١ م برحلة الى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذي أسس في بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما في حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر اتل كما تسميه المصادر الاسلامية) ، أما الأخرى ففي حوض نهر الطونة .

وقد زار ابن فضلان الأولى [1] على نهر الفولجا . ويذكر ابن رسته في كتابه « الأعلاق النفيسة » الذي ألفه نحو عام ٢٩١ هـ : ٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الاسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل الرحلة بأعوام .

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسي عام ٣٠٩ هـ الى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الاسلام .

وقد خرج الوفد من بغداد في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ : الحادي والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها في الثاني عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ : الثاني عشر من مايو عام ٩٢٢ م .

---

(١) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التي كانت تقع شرقي نهر الفولغا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلومترات من شاطىء الفولجا الأيسر .

وقد أدت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا الى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التي تعرف برحلة ابن فضلان ، ويبدو أن ما كتبه هو الذي قدمه إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله .

وقد نقل ياقوت الحموي جزءا من رحلته في مادة : اتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم .

ونشرت الرحلة في روسيا عام ١٨٢٣ م ، وأفاد منها بروتولد الروسي في الدراسة التي كتبها عن البلغار في دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام في دراستين له عن البلغار المسلمين .

وفي عام ١٩٢٤ عثر العالم التركي أحمد زكي الوليدي في مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبي دلف ، ورحلة ابن فضلان وهذه الرحلة تعد أقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان اليها ، ويصف في رحلته حفل دفن زعيم روسي وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان ، وزين بهذا الرسم أحد جدران المتحف التاريخي في موسكو .

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطي الأندلسي صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » عام ٥٤٠ ه : ١١٣٥ م .

وقد تحدث المسعودي (ت. ٣٤٦ ه : ٩٥٧ م) في الجزء الأول من كتابه « مروج الذهب » عن البلغار .. وقد سقطت مملكة البلغار نهائيا عام ١٢٣٦ م ، وخرّب الروس بلادهم عام ١٣٩٩م، كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية (٤ : ٩٩) .

ومن نتائج هذه الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين للابرة المغناطيسية ، وقد أخذها الغرب عن المسلمين في الحرب الصليبية الثانية .

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية في تاريخ هذه البلاد وجغرافيتها القديمة التي لم يكتب عنها أحد قبل الرحالة المسلمين ، ولا كتب عنها بعدهم

أحد من الأوروبيين إلا بعد أجيال طوال (١) .

— ٧ —

جهود أبي دلف في ميدان الرحلات

١ — يحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام .

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين في القرن الرابع الهجري ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التي رحل إليها وطاف بها .. وقد حفظ لنا ابن النديم في كتابه « الفهرست » ، وياقوت في « عجائب المخلوقات » ، و« آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبي دلف للبلاد التي جابها ، والأسفار التي قام بها رحالتنا العالمي المسلم أبو دلف في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، في أنحاء كثيرة من العالم ، المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهي الأسفار والرحلات التي طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس في عصر أبي دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتي نال أبو دلف بها في حياته مجدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه في دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية .

---

(١) راجع : تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي ، الرحالة العرب لنقولا زيادة ، والرحالة المسلمون لزكي محمد حسن ، والرحلات لشوقي ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنون الأدب العربي ، تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان ، وتاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وحديث السندباد القديم لحسين فوزي ، والجغرافيا والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ، ودائرة المعارف الإسلامية في مادة رحلات ، رحلة ابن فضلان بتحقيق الدكتور سامي الدهان (المتوفى في أغسطس ١٩٧١) وهي من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

يصفه ابن النديم [١] بالجوالة ، ويذكر القزويني أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد[٢] عجائبها ، وأنه كان سياحاً زار البلاد ، وأخبر بعجائبها [٣] .

ويذكر كذلك القزويني بلاد بهى وعجائبها وهي من بلاد الترك ، ثم يقول : أخبر بهذه كلها ، أعني بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فإنه كان سياحة رآها كلها [٤] .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع ، وإن كان ياقوت الحموي يقول عنه : إنه كان يحكى عنه الكذب [٥] ، ويعني بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكي وسواه من المستشرقين ، وسيأتي كلامهم .

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية .

فمع أن العالم الإسلامي في عصر أبي دلف ، وهو القرن الرابع اهجر ي ، كان مقسما إلى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، إلا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة خاضعاً للتأثير الإسلامي وحده ، ومن ثم كان في إمكان أبي دلف أن يجوب البلاد ، وأن يسير في الممالك الإسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحدّه حد ، ولا يغله قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمي حائل .

---

(١) ١ / ٣٤٦ الفهرست
(٢) ٢ / ٢٦٧ آثار البلاد
(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات
(٤) ٥٨٩ المرجع السابق
(٥) ٥ / ٣٢٦ معجم البلدان لياقوت

٢ ــ وقد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوي على رحلته عبر الصين والهند التي قام بها عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد قام المستشرق الألماني رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة، التي ساح فيها .

وفي مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف [١] :

« إني لما رأيتكما يا سيدي ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلي دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت اليّ مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الإخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » .

والظاهر ــ كما أرجح ــ أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة الى هذا ، وأخرى الى ذاك ، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة .

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمانية ، وشاركه في ذلك المستشرق فراين في « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التي نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقى المستشرق الروسي غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها في المؤتمر الدولي الثالث عشر للمستشرقين المنعقد في بطرسبرج .

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبي دلف الى الصين .

وكذلك فعل بارتولد ، ومينورسكي (١٩٦٧) الذي قال عنها : إن في

(١) ٥ / ٤٠٨ و٤٠٩ معجم البلدان

الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقي ، وبعضها من نسج الخيال ، وفي وصف أبي دلف لرحلاته – كما يقول مينورسكي – خلط وتعقيد شديدان ، وإن كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند . ويشكك أخيرا هذا المستشرق في حدوث رحلات أبي دلف .

ويرد عليه كراتشوفسكي في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي »[١] مؤكدا أن رحلة أبي دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم في كتابه « الفهرست » عن أبي دلف[٢] . بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل قيران (١٩١٣) .

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، إذ إن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها في سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبي دلف في محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفي وصفه لمشاهده عامة .

وفي هذه الرحلة يذكر أبو دلف الأواني الصينية وأنها كانت مفضلة في الأسواق ، وأن الخزف الصيني كان يقلد في بعض البلدان ، ولا سيما في ملبار وإيران .

٣ – وفيما بين عام ٣٣١ – ٣٤١ هـ : ٩٤٢ – ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الثعالبي في «اليتيمة» ، أماكن مختلفة في إيران وآسيا الوسطى في حماية الوالي علي سيستان من قبل أبي محمد بن أحمد (٣٣١ – ٣٥٢هـ: ٩٤٢ – ٩٦٣ م) وألف أبو دلف في وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وإيران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول في مقدمتها على طريقته نفسها في مقدمة الرسالة الاولى :

---

(١) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٢) ٣٤٦ و٣٤٧ الفهرست ، ٣٥٠ و٣٥١ الفهرست أيضا .

« جردت لكما ، يا من أنا عبدكما ، أدام الله لكما العز والتأييد ، والقدرة والتمكين ، جملة من سفري من بخارى الى الصين ، ورجوعي منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض [1] » .

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة .

ولهذه الرسالة الثانية في وصف رحلته في أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد قليل .

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التي تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » في جنوبي أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة في خراسان وإيران والقوقاز وأرمينية ، ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام، والتاريخ الجغرافي والجيولوجي والأثري لهذه البلاد ، وهي إلى جانب هذا تحتوي على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول [2] .

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التي تضعها في عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافي لآسيا الوسطى . وتحتوي على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية في باكو ، وبالمعادن المفيدة في أرمينية، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط في باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين

---

(١) ٢٩ و٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب - مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية ، في الرسالة ص ٢٩ محرفة الى كلمة « شافية » ، وهو خطأ .

(٢) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية

تفليس [1] ، ولا يستغني عن دراستها مؤرخ أو جغرافي أو جيولوجي ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين .

ولقد حقق مينورسكي هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام١٩٥٠م في ٣١ صفحة النص العربي + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسة .

ثم طبعت في موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م .

وطبع تحقيقها في القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦ م

وفي عام ١٩٢٤ عثر في مدينة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رسائل :

١ — رسالة أبي دلف .

٢ — رسالة ابن فضلان .

٣ — رسالة في أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤ — رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة في تراث أبي دلف ، وفي تاريخ البحث العلمي الجغرافي القديم .

ورسالة أبي دلف في مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرتا على أنهما كتاب واحد .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى«عجائب البلدان» كما نقلنا عن القزويني وياقوت ، وذكرها بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

٤ — وأبو دلف في رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذي يحاول فهم الاشياء والوصول الى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافي الذي قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهي بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن في وادي ساركوتز في الاتحاد

(١) ص ٢٢ مقدمة الرسالة الثانية .

السوفياتي .. ومن وصف أبي دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره في صعوده الى قمة جبل دبناوند في فارس ودخوله كهفاً في هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه [١] .

ويذكر أبو دلف أنه سار في مغارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين في وصول أبي دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري . وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام في عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبي دلف في ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا في صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر في صورة الجغرافي المتمكن ، والأثري المنقب ، والجيولوجي الدقيق العالم بطبقات الارض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك في صورة الطبيب الذي يعلم أماكن المصحات الطبيعية التي تلائم طبيعة المرضى والتي تساعدهم على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودي عن نفسه : « قطعت بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتارة بأقصى خراسان، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان »[٢]

---

(١) الرسالة الثانية ص ٨٧

(٢) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ)

أبو دلف كاتبا

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبي دلف ، منها رسالتاه في وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة .

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبي دلف الادبية .

انه كاتب متعمق المعاني ، كثير التجربة ، عظيم الخبرة ، دقيق الافكار .

وهو الى جانب ذلك سمح الاسلوب ، عذب اللفظ ، واضح الصياغة ، وضوح معانيه ، ليس في أدائه تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حوشية ، أو معاظلة .

أسلوبه أقرب الاساليب الى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح أساليب المعاصرين ، وكأنه أسلوب صحفي معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغة والبلاغة .

وقد كان أبو دلف يعيش في عصر المطبوعين على البيان ، وفي ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمي ، والبديع ، والصابي ، وأبو حيان ، وغيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفني .

وأبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمي ، ويبعد عن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشديد في رسائله ، ومع الوصف الدقيق للاشياء التي يصفها .

ومقدمتا رسالتيه تمتازان باسلوبهما الفني السهل ، ومع ذلك فان سعة ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة أو حرف قد جيء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام .

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه في كتاباته ، فهو كاتب موضوعي أكثر منه كاتبا وصفيا .

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته .

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر الى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية ، وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة .

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحي حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبي دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعي المتميز جعله نموذجا حيا للساساني الخالص [1] . وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر اليها مثل البديع الهمذاني في اكبار واجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا في عمله الادبي الجديد في فن المقامة ، مما سنحيط به في شيء من التفصيل بعد قليل .

— ٩ —

أبو دُلَفٍ شاعِرًا

— ١ —

عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها في عصر ازدهار الشعر ونهضته

(١) حب أبي دلف للفن وظرفه جعله يحترف الأدب الساساني احترافا مبدعاً ، حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة ، والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى في عصرنا أناسا يرتدون — من أجل الظرف والفكاهة — رداء أشعب في جشعه وطمعه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعا . وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه من ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه في قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، واذا علمنا أن أبا دلف عاش في قصور الملوك ونال جوائزهم ، وكانت له ألف حرفة — كما يقولون — أدركنا أنه لم يكن ساساني التكسب ، بل ساساني الفن وحده .

في القرن الرابع الهجري ، عصر المتنبي (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضي (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ) ، وأبي فراس الحمداني (٣٢٠ — ٣٥٧ هـ) والرفاء (٣٦٦ هـ) ، والسلامي (٣٩٤ هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالديين ، وابن الحجاج (ت. ٣٩١ هـ) ، والوأواء الدمشقي (ت ٣٩٠هـ) والصنوبري (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ : ١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) ، والبستي (٣٣٠ — ٤٠٠هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسي .

وشهر — أول ما شهر ابن ينبع — بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبي دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبي في « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبي لنا من هذا التراث الشعري قصيدة أبي دلف — أو رائيته الساسانية ، التي سوف نتحدث عنها بعد قليل .

— ٢ —

وأشهر أغراض شعره : المدح — والهجاء — والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الإطلاق هو شعره الساساني الذي سنتعرض له .

ولنبدأ بمقتطفات مما بقي من شعره ، لنتعرف الى شاعريته ، ونقف على مدى اصالته .

١ — كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة في رثاء البرذون الراحل ، وينشدها في مجلسه ، ويقدمها الى أبي عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، في مجلس حافل من مجالس

الصاحب الوزير ، وألقى كل منهم قصيدة [1] .. وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة في رثاء الفقيد ، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر في هذا الموضوع ؟ استمعوا الى أبي دلف ينشد [2] :

دهر على أبنائه وثاب
يا لك دهراً كله عقاب
أصبح لا يردعه العتاب
واها لناءٍ ما له اياب
لـكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الانساب
قد كملت في طبعه الآداب
كـأنما غـُرَّتهُ شهاب
كـأنمـا لَبَّاتُه محراب
لا خبرٌ منك ولا كتاب
تناوبتك للـردى أنيـاب
تجزع من أمثالها الأحباب
وكنت لو طالت بك الاوصابُ
يخف في مصرعك المصاب
وأنت فردٌ ما له أتراب
قل لأبي عيسى : وما الاسهاب
بنافع : تم لك الثواب
فاسكن فهذا الصاحب الوهّاب
في جـوده وفضله منـاب

(١) ٣ : ٢١٣ – ٢٣٦ يتيمة الدهر
(٢) ٣ : ٢٢٣ – ٢٢٥ المرجع

٢ – ويقول أبو دلف أيضا يصف ترفه وشجاعته [١] :

اني امرؤ كسروي الفعال | أصيفُ الجبال وأشتو العراقا
وألبس للحـــرب أثوابها | واعتنق الدارعين اعتناقا

يقول ابن الفقيه [١] : اختار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونة مائه وهوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها .

٣ – ولما طوت الاحداث حياة أبي دلف المترفة ، فأحالته فقيرا بعد غنى قال [١] :

ألم ترني حين حال الزمان | أصيف العراق وأشتو الجبالا
سموم المصيف وبرد الشتاء | حنانيك حالا أزالتك حالا
فصبرا على حدث النائبات | تأبى الحوادث الا انتقالا

٤ – ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر في الشام ، فقال [١] :

ما صورتان بتدمر قد راعتا | أهل الحجى وجماعةَ العشاق
غَبَرَا على طول الزمان ومَرِّه | لم يسأما من ألفـــة وعنـــــاق
فليرمين الدهر من نكباته | شخصيهما منه بسهم فراق
وليُبلينّهمـــا الزمانُ بكرِّه | وتعاقب الإظلام والاشراق
كي يعلم العلماء أن لا دائم | غير الالـــه الواحـــد الخلاق

٥ – ولأبي دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة [٢] :

هي المقادير تجري في أزمّتها | فاصبر فليس لها صبر على حال
دع المقادير تجري في أعنّتها | ولا تبيتن الا خالي البـــــال
ما بين طرفة عين وانتباهتـــا | يغير الله من حال الى حـــــال

---

(١) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه – طبعة بريل ١٣٠٢ هـ

(٢) كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء ، منهم : الشافعي ، والواثق العباسي ، واسحاق الموصلي .

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شعره مفقود الا النماذج القليلة التي رواها الثعالبي .

٦ — ويذكر الثعالبي أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقل اليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيه شعرا . وفي يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر في مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف [1] ، فأنشد كل منهم قصيدة طويلة في مدح الصاحب ووصف القصر ، وقد ذكر الثعالبي هذه القصائد ومن بينها قصيدة أبي دلف . ومطلع قصيدة أبي دلف هو :

رأينا طلعة الـــدار   شموسا مـــع أقمار
ولي مســألة بعدُ   فعــاجــلني بإخبار
بنيت الدار في دنيا   ك ، أم دنياك في الدار؟

٧ — ولننتقل الى قصيدة أبي دلف الساسانية المشهورة العجيبة .. وقبل ان نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساساني » .

— ٣ —

الشعر الساساني له بذور قديمة في شعر الصعاليك ، وفي مزاح أشعب وطبقته ، وفي أدب الجاحظ وبعض كتاباته .

وقد عمّ الفقر البلاد الاسلامية في العصر البويهي ، كما ذكرنا آنفاً ، وما أقسى ما قاله أبو حيان في كتابه « الامتاع والمؤانسة.. [2]» : القوت لم يكن اليه سبيل الا بإخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ؛ أو ما يقوله ابن لنكك البصري :

جار الزمان علينا في تصرفه   وأي دهر على الاحرار لم يجر

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين والحواة يجوبون

(١) ٣ : ٢٠٢ — ٢١٣ اليتيمة .
(٢) ٢ : ١٤٢ الكتاب المذكور .

البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ويتفننون في اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون أحيانا انهم صدقا وان كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم في الطريق ، أو مرضى أو غير ذلك ، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون [1] وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم [2] .

وظهر الشعراء والادباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم في الاستجداء، وفي الاحتيال على أخذ المال من أي طريق،وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والادباء أيضا : ساسانيون وقيل لادبهم وشعرهم : أدب وشعر ساساني . وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس .

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها الا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بني ساسان » ، كان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظاً عجيباً ، كما يقول الثعالبي في اليتيمة [3] ، وكان يعجبه من أبي دلف وفور حظه من هذه اللغة في شعره ، وبخاصة في قصيدته الساسانية الطويلة ، التي كتبها وقدمها [4] الى الصاحب ، ووصف فيها حيل بني ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبي في اليتيمة نحوا من مائتي بيت .

هذا هو معنى الشعر الساساني باجمال ، فمن هو ساسان الذي نسب اليه ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية [5] الفارسية المالكة ، حزن لما تولت

---

(١) ١١ / ٤٦ و٤٧ دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ٧ أحسن التقاسيم للمقدسي .

(٣) ٣ / ١٧٦ اليتيمة .

(٤) ٢١٨ « الأدب في ظل بني بويه للزهيري » – طبعة عام ١٩٤٩ م .

(٥) أسرة فارسية حكمت ايران ، أولهم أرشير (٢٢٦ – ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ – ٦٥١ م) الذي سقطت الامبراطورية الفارسية في عهده في أيدي المسلمين (راجع ١١ / ٤٧ – ٥٥ دائرة المعارف الإسلامية : و ١ : ١٤٢ « ظهر الإسلام لأحمد أمين » .

أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنماً ، وجعل يرعاها ، ويعير بأنه راعي غنم ، فنسب إليه كل من احترف الكدية .

وقيل [١] : ان الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بني ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان الى مكان ، فصارت نسبتهم الى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد .

وقيل ان ساسان كان رجلا من عامة الناس ، ماهرا في الحيلة والاستجداء ، فنسب اليه هؤلاء .

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم وأنضج الالم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه في رفعة المنزلة في الأدب الساساني ، وهو الاحنف العكبري ، الذي قيل عنه : انه آدب بني ساسان في بغداد ، وقال الثعالبي عنه : هو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام [٢] .

---

(١) هو رأي محمد عبده في شرحه لمقامات البديع – ص ٩٧ .

(٢) ٣ / ١١٧ اليتيمة – ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة .

ولقد ذكر الجاحظ – في « المحاسن والأضداد » وفي « البخلاء » ص ٣٦ – الكدية والمكدين . وفي المحاسن والمساوىء للبيهقي نصوص عن الجاحظ في ذلك (٦٢٢– ٦٢٤ المحاسن للبيهقي) . ويذكر بديع الزمان في مقاماته اللصوص وحيلهم – راجع المقامة الرصافية – كما يذكر الكدية كذلك ، وفي مقامته الساسانية ، التاسعة عشرة ، يدافع عن الكدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدي (١٤٣ / ٢ الإمتاع والمؤانسة) الساسانيين راثيا لحالهم .

وفي مقامات الحريري المقامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصي أبو زيد السروجي ابنه وولي عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعده بصناعة الكدية ، وبالزهد في غيرها من الصناعات ، ولو كانت إمارة أو تجارة أو زراعة أو صناعة .

وأدوات صناعة الساسانيين كما صورها الحريري : الفطنة والذكاء والوقاحة ، وأن يكون الساساني أجول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجد والمثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمل الدأب ، وعليه بالاقدام ولو على الضرغام ، مع تحليه بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصوغ اللسان ، وأخدع بسحر البيان الخ .

ولصفي الدين الحلي قصيدة ساسانية طويلة في ١٤٥ بيتا .

وقد أكثر العكبري من تصوير بؤسه وحرمانه ، يقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن تأوي اليه وما لي مثلها وطـن

ويقول أيضا :

كنت في ذلة وقلة مـــال واغتراب في معشر أنذال
بالأماني أقول لا بالمعاني فغذائي حـلاوة الآمال [1]

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

عـلى أني بحمـد الله في بيـت مـن المجـد
بـإخواني بـني ساسـا ن أهل الجَد والجـد
لهم أرض خراسـان فقـاشان إلى الهنـد
الى الروم إلى الزنـج إلى البـلغـار والسنـد
قطعنـا ذلك النهـج بلا سيف ولا غمـد

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التي حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسي (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) - الذي لم يكن يملك في ظلال البويهيين من الأمر شيئا ، حشره في جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكان ذلك مما يتندر به الصاحب وعضد الدولة ، وهو على أي حال تندر مر لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة ، إذ كان الخليفة في ظل البويهيين لا شأن له بشيء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائما في فقر وحرمان .

قصيدة أبي دلف الساسانية [2] :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبي في اليتيمة وشرح كثيرا مـن اصطلاحاتها الساسانية ، ولها أهمية كبيرة ، لا في شعر أبي دلف ، ولا في الشعر الساساني ، وحدهما بخاصة ، بل في الشعر العباسي عامة .

(١) راجع ٣ : ١١٧ - ١١٩ اليتيمة .
(٢) ٣ : ٢٥٤ - ٣٧٢ اليتيمة .

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماما شديدا ، فعنوا مثلا بما جاء فيها من وصف الأواني الصينية [١] .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها في هذا الباب أثر أدبي آخر إلا مقامات البديع .

وقد استخدم أبو دلف بكثرة في القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبي وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا . وكان ابو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب إياها النجاح وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين .

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفونٌ دمعها يجري ... لطول الصد والهجر
وقلبٌ ترك الوجد ... به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمين ... من حلو ومن مر
ومن كان من الاحرار ... يسلو سلوة الحر
كأمثالي ، وفي الغربة ... أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا ... وألوانا من الدهر
على اني من القوم الـ ... بهاليل بني الغرّ
بني ساسان والحامي الـ ... حمى في سالف العصر
فنحن الناس كل النا ... س في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق ... من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل في كل ... أرض خيلنا تسري
لنا الدنيا بما فيها ... من الإسلام والكفر
فإن ضاق بنا قطر ... نسر عنه إلى قطر

---

(١) « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » ، د. زكي حسن .

ويقول أبو دلف في القصيدة أيضا :

ومنا شعراء الأر ض أهل البدو والحضر
ومنا سائر الأنصا ر والأشراف من فهر

ويستطرد أبو دلف ، فيجعل الخليفة المطيع لله العباسي من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين ال مطيع الشائع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان [1] .

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه :

سقى الله بني ساسان غيثاً دائم القطر
ألا إني حلبت الدهـ ـر من شطر الى شطر
وجبت الأرض حتى صر ت في التطواف كالخضر
وللغربة في الحر فعال النار في التبر
وما عيش الفتى إلا كحال المد والجزر
فبعض منه للخير وبعض منه للشر
فإن لمت على الغربـ ـة مثلي فاسمعن عذري
أمالي أسوة في غر بتي بالسادة الطهر
فإن أظفر بآمالي شفيت غلة الصدر
وقد تخفق فوقي عز ة ألوية النصر
وإما تكن الأخرى فلا أبت مع السفر
ولا عدت متى عدت بلا عز ولا وفر

هذه هي أبيات من القصيدة الساسانية ، التي نظمها أبو دلف ، وأنشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة .

---

(١) ٦ / ٨٦ و٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

ولا نقول عنها إلا أنها وثيقة أدبية كبيرة [1] الدلالة في الشعر العباسي ، وأنها أرفع نماذج الشعر الساساني وهي حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة .

— ١٠ —

أبو دلف نموذجاً رفيعاً في مقامات البديع

كان ابتكار البديع الهمذاني (٣٥٨ — ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ — ١٠٠٧ م) في القرن الرابع الهجري لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً في الأدب العربي .

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذي طالما دار بين بطلها أبي الفتح الاسكندري وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفني الرفيع الذي تمثل في شخصية الساساني أبي الفتح البطل .

وفُتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتاناً شديداً .

وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة في الأدب العربي ، وصاحب الفضل في إنشائها ، ويؤيد ذلك الحريري أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ — ٥١٦ هـ) في مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعاً إلى بديع الزمان ، وعلامة همذان، وكذلك جعل الثعالبي في « اليتيمة » البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم في ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، إذ يقول [2] : إن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذي ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

---

(١) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « في الحضارة الإسلامية » ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها : إنها وثيقة اجتماعية في القرن الرابع

(٢) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذي يقول [١] : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الأدب العربي .

هذا هو الرأي السائد في نشأة المقامة ، ولكن الحصري صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب في كتابه [٢] إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكي مبارك [٣] أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وإن كان له فضل في نشأتها ، وينفي مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصة القصيرة » وهو مصطفى الشكعة [٤] أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجعل آخرون البديع محتذياً حذو أستاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في رسائله الحوارية .

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقي ضيف ، [٥] أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك في المضمون ، فإن شكل المقامة الفني يبقى جديداً كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة في أي عمل أدبي أو غير أدبي .

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا في الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه

(١) ص ١٦ « مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته » — مازن مبارك .
(٢) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » .
(٣) « النثر الفني » لزكي مبارك .
(٤) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشكعة .
(٥) ٢٠ « المقامة » لشوقي ضيف — طبع دار المعارف .

الدليل ، ولا تنهض به الحجة [1] !

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسي ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان ، إذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ... فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفي بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ — ١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقي بهار [2] أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صداه في الأدب الفارسي ، وأن حميد الدين قلد البديع والحريري في مقاماته ، ويذكر الأنوري إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين .

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفني الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التي دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذاني ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره .

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانياً هو أبو الفتح الاسكندري ، وهو الذي مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل أحداثها .

وشخصية أبي الفتح — كما تبدو من خلال المقامات — شخصية رائعة حقاً ، فهو بطل الموقف كله في المقامة ، وهو — كما يصوره الهمذاني — عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد في الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام . وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب في الأندية ، ويهز الناس بفصاحته وبلاغته .

---

(١) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني » للمؤلف .

(٢) « تاريخ تطور النثر الفارسي » — محمد تقي بهار .

وكنية أبي الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته في مواقفه العجيبة في الكدية .

أما وصف الاسكندري الذي لازمه فقد يكون معززاً لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبي الفتح في أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر . وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر في مقاماته قوله « اسكندرية داري » [1] ، نسبة إلى الاسكندرية لا إلى الاسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ – ٣٢٣ ق. م) .. ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته إلى الاسكندرية مقصوداً بها الرمز إلى شبهه في فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التي تنتسب إليه مدينته .

ويقودنا ذلك إلى التساؤل : أية اسكندرية كان يعني البديع ، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساساني ؟

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه : إني امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية . وفي المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية ، ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الاسكندرية في مواضع كثيرة أخرى .

فاذا رجعنا إلى ياقوت [2] وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التي صار اسمها سمرقند ، والتي صارت مرو ، والتي سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم – نهر اشبيلية – وهي التي رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور

---

(١) راجع مثلا في المقامة الأربعين – العلمية – قول البديع :

اسكندرية داري   لو قر فيها قراري

(٢) ١ / ٢٣٥ معجم البلدان .

الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع . إلا أني وجدت رحالة عربياً في القرن الرابع – هو أبو دلف – يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : إن الخليفة الأموي مقيم بها [١] ، فهل كانت هذه المدينة قديماً تسمى الاسكندرية أيضاً ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقي أن الاسكندرية بين بغداد والحلة[٢] ، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة إلى نهر آموي [٣] – جيحون – وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هي مدينة الاسكندر على نهر آموي .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في بيداء سحيقة .

* * *

فمن هو أبو الفتح الاسكندري إذاً ؟!

١ – هناك رأي سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوي المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريري في مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهذا ما رجحته منذ عشرين عاماً في كتابي « الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني » . ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسي إيوار ، فيقول : وضع البديع شخصاً خيالياً ابتكره وسماه أبا الفتح ، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخاً للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان ، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم ناشيء من قول

---

(١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٥ / ٤٠٩ معجم البلدان .

(٢) يعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريري ، واسمه طارق العوسج ، وهو مدرس بمكة المكرمة حالياً .

(٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام في كلية الآداب عام ١٩٤٤ م .

البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام ، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذي كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكبر انطباقاً على الموضوع .

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذي يقول : حاولنا أن نجد لبطلي المقامات صدى تاريخياً فلم نعثر لهما على أثر والغالب انهما من ابتكار خيال البديع نفسه [١] .

٢ ــ وهناك رأي جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ، إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية .

وأنا معهم في ذلك . ولكني أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبي الفتح بطل المقامات البديعية .

ويذهب باحث عراقي [٢] سبق الاشارة إليه إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك في كتابي « الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني » [٣] حيث ذكرت أنه قد يكون في حياة أبي الفتح شيء من صفات البديع نفسه ، وشيء من أخلاقه . ولكني أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر [٤] إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة أبي الفتح « نجد من أعلامها في عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (تـ ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (تـ ٣٨٥ هـ) وأبي الورد ،

---

(١) بديع الزمان ص ٢٣٢ .
(٢) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري .
(٣) ص ١٥٧ و١٥٨ الكتاب المذكور .
(٤) ص ٢٣٤ « الأدب في ظل بني بويه » للزهيري – طبع مصر ١٩٤٩ .

ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبي حيان التوحيدي، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبي دلف والأحنف العكبري » ... ومجمل هذا الرأي أن اشباه أبي الفتح الاسكندري كثيرون في عصر البديع ، وأن أقربهم شبهاً به هو أبو دلف والأحنف . وهذا الرأي لا يأتي لنا بجديد ولا بأمر مؤكد في البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأي معين له .

٣ — ورأيي الذي أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة في عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجي وحده .

وهذا الرأي لا يسبقني فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب في القرن الرابع ... ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبي في « يتيمة الدهر »[١] قال :

أنشدني بديع الزمان لأبي دلف ، ونسبه في بعض المقامات إلى أبي الفتح الاسكندري :

ويحك هذا الزمان زور　　　فلا يغرنك الغرور [٢]
لا تلتزم حالة ولكن　　　در بالليالي كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١ — أنشد البديعُ الثعالبيَّ شعراً لأبي دلف .

٢ — وهذا الشعر نفسه نسبه البديع في مقاماته إلى ابي الفتح ، فتكون النتيجة هي أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع .

٣ — كان البديع راوية لشعر أبي دلف ، ويبدو لي أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

وإذن يكون أمامنا رأي جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته

---

(١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمة .

(٢) هذا الشعر في المقامة القريضية إحدى مقامات البديع .

اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبي الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساساني يصلح بطلا للمقامات ، لان حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذي صوره البديع في المقامات في شخص أبي الفتح الاسكندري ، ولأن شهرة وتجارب أبي دلف كانت تصلح معيناً يستقي منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح — وذلك ما قد كان .

بل إني أضيف إلى ذلك أن البديع الهمذاني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد ، واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره في مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكي بابتكار فن المقامة في الأدب العربي ، في القرن الرابع ، وفي عصر أبي دلف .

الحديث عن أبي دلف

وبعد ، فهذا هو أبو دلف الخزرجي .

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة في القرن الرابع .

وعالم وطبيب وكيميائي وجيولوجي من الطراز الأول في عصره .

ومنادم في الذروة ، جلس في مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة .

وشاعر رفيع المنزلة في عصره في الشعر ، وعلم من أعلام الشعر الساساني الذي كان له طرافته وروعته في عصره .

ونموذج فني رفيع للساسانية التي تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة وحضور البديهة وسرعة النكتة ... وعلو ذوقه وجمال فكاهته مما حببه إلى الملوك وقرّبه إلى الوزراء .

وشخصية فذة اهتزت دوائر المشرق بدراسة أفكارها ونتائج رحلاتها القديمة في شتى أنحاء آسيا .

ولقد كان بديع الزمان الهمذاني وثيق الصلة بأبي دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفي اليتيمة ما يدل على ذلك [1] . وكانت شخصية أبي دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه في الأرض موضع عجبه واستظرافه كما كانت شيخوخة أبي دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته ، الساسانية وهو علم فيها ... كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه ، لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخذ من أبي دلف وحياته وشخصيته بطلا للمقامات التي أبدعها ، ورمز إليه باسم أبي الفتح الاسكندري .

ونقول تأكيداً لذلك : إن جميع ما صور به البديع بطل مقاماته أبا الفتح الاسكندري تنطبق على أبي دلف تمام الانطباق .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهو جوالة في الآفـــاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفاً ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعود همته مع حسن آلته ، وهو كهل قد غبّر في وجهه الفقر ، وهو كما يقول البديع في المقامة الصيمرية على لسان أبي الفتح :

« خرجت أسيح كأني المسيح ، فجلت خراسان إلى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، إلى طبرستان ، وإلى عمان ، إلى السند والهند ، والنوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف ، فجمعت من النوادر والأخبار والأسحار والفوائد .. ما قصر عنه فتيا الشعبي » .

وهذا هو أبو الفتح في أدق صوره، وأوضح مثالاته ... وبالله التوفيق .

---

(١) ٣ : ٣٢٣ اليتيمة .

المصادر والمراجع

رجعنا في هذا البحث الى كثير من المصادر ، التي نكتفي بذكر بعضها :

١ – يتيمة الدهر للثعالبي – بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد – ٤ اجزاء.
٢ – معجم البلدان لياقوت طبعة مصر ١٣٢٣ هـ .
٣ – مروج الذهب للمسعودي – بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
٤ – اخبار الزمان للمسعودي – طبعة بيروت .
٥ – التنبيه والاشراف للمسعودي .
٦ – مقامات بديع الزمان .
٧ – مقامات الحريري .
٨ – عجائب المخلوقات للقزويني بتحقيق الصيرفي والابياري .
٩ – آثار البلاد للقزويني – دار صادر ١٩٦٩ .
١٠ – الجماهر في معرفة الجواهر – والآثار الباقية : للبيروني .
١١ – تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني .
١٢ – مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .
١٣ – المسالك والممالك للاصطخري – طبع القاهرة ١٩٦١ م .
١٤ – معجم الأدباء لياقوت – نشر فريد رفاعي .
١٥ – ديوان الصاحب .
١٦ – رسائل الصاحب .
١٧ – رسائل البديع .
١٨ – رسائل الصابي .
١٩ – البخلاء للجاحظ – بتحقيق الجارم .

٢٠ ـ الحيوان للجاحظ بتحقيق هارون .
٢١ ـ البيان والتبيين بتحقيق هارون .
٢٢ ـ المحاسن والأضداد للجاحظ .
٢٣ ـ المحاسن والمساوىء للبيهقي .
٢٤ ـ الخراج لقدامة .
٢٥ ـ احسن التقاسيم للمقدسي .
٢٦ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ تحقيق احمد أمين والزين .
٢٧ ـ الأغاني لأبي الفرج ـ طبع دار الكتب .
٢٨ ـ عيون الاخبار لابن قتيبة ـ طبعة دار الكتب .
٢٩ ـ الأخبار الطوال للدينوري ـ مصر ١٣٣٠ هـ .
٣٠ ـ الأمالي للقالي ـ طبعة دار الكتب المصرية .
٣١ ـ الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ـ طبعة مكتبة الحياة بيروت .
٣٢ ـ رسائل الجاحظ ـ تحقيق هارون .
٣٣ ـ تاريخ الاسلام للذهبي (طبعة مصر) خمسة اجزاء .
٣٤ ـ تاريخ بغداد للبغدادي ـ ١٤ جزءاً ـ طبعة القدسي .
٣٥ ـ تاريخ جرجان ـ السهمي ـ حيدر آباد ١٩٥٠ .
٣٦ ـ تاريخ اصبهان لأبي نعيم ـ ليدن ١٩٣١ .
٣٧ ـ تاريخ الطبري ـ طبع دار المعارف بمصر ـ عشرة اجزاء .
٣٨ ـ الكامل للمبرد ـ طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .
٣٩ ـ فحولة الشعراء للاصمعي بتحقيق المؤلف .
٤٠ ـ الصناعتين للعسكري ـ طبعة عيسى الحلبي .
٤١ ـ معجم ما استعجم للبكري ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٩٤٦ .
٤٢ ـ تجارب الأمم لمسكويه .
٤٣ ـ البحوث الأدبية للمؤلف ـ طبع دار الكتاب اللبناني .
٤٤ ـ الفهرست لابن النديم ـ طبعة مصر .

٤٥ — الفهرست لابن النديم — طبعة مصر .
٤٦ — المكتبة الجغرافية — طبعة ليدن — ٨ مجلدات .
٤٧ — مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده — جزءان .
٤٨ — كشف الظنون لحاجي خليفة — طبعة المعارف التركية جزءان .
٤٩ — نهاية الارب للنوبري — طبع دار الكتب المصرية .
٥٠ — صبح الأعشى للقلقشندي — طبع دار الكتب المصرية .
٥١ — النجوم الزاهرة لابن تغري بردى — دار الكتب ٧ أجزاء .
٥٢ — دائرة المعارف الاسلامية — الطبعة الانجليزية الجديدة . في الحديث عن أبي دلف — والترجمة العربية — طبع مصر — في مواضع كثيرة تتصل بالبحث
٥٣ — مقدمة ابن خلدون — المكتبة التجارية .
٥٤ — الجغرافيون العرب لصبري محمد حسن — طبع النجف .
٥٥ — الجغرافيا والرحلات عند العرب — نقولا زيادة .
٥٦ — اعلام التاريخ والجغرافيا — المنجد — طبع بيروت .
٥٧ — شمس العرب تسطع على الغرب لهونكة — طبع بيروت .
٥٨ — العرب والملاحة في المحيط الهندي — حوراني .
٥٩ — حديث السندباد القديم — حسين فوزي .
٦٠ — ابن فارس للاستاذ هلال ناجي — بغداد .
٦١ — المجلة الجغرافية — مصر .
٦٢ — تاريخ التمدن الاسلامي لزيدان .
٦٣ — الرواد نشر المقتطف .
٦٤ — الرحالة العرب — نقولا زيادة .
٦٥ — الرحالة المسلمون في العصور الوسطى — زكي محمد حسن .
٦٦ — الرحلات — دار المعارف — بقلم د. شوقي ضيف .
٦٧ — الجغرافيا عند العرب : يسن الحموي .
٦٨ — تاريخ الأدب الجغرافي العربي — كراتشوفسكي — نشر الجامعة العربية

٦٩ ــ جهود المسلمين في الجغرافيا ــ نفيس احمد ــ القاهرة .
٧٠ ــ الحياة الادبية في الاندلس والعصر العباسي الثاني ــ المؤلف .
٧١ ــ ابن المعتز ــ المؤلف ١٩٥٨ القاهرة .
٧٢ ــ ابو عثمان الجاحظ ــ المؤلف ١٩٦٣ القاهرة .
٧٣ ــ مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته مازن المبارك .
٧٤ ــ بلاد ينبع للعلامة حمد الجاسر ــ دار اليمامة بالرياض .
٧٥ ــ بديع الزمان للشكعة ــ نشر دار الفكر العربي بالقاهرة .
٧٦ ــ بديع الزمان لمارون عبود .
٧٧ ــ الكامل لابن الأثير ــ المنيرية ١٣٥٧ هـ .
٧٨ ــ تاريخ اليعقوبي ــ بيروت ــ دار صادر ١٩٦٠ .
٧٩ ــ المقامات لشوقي ضيف .
٨٠ ــ الحياة الأدبية في العصر العباسي ــ المؤلف .
٨١ ــ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان .
٨٢ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان .
٨٣ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .
٨٤ ــ ديوان صفي الدين الحلي .
٨٥ ــ ديوان الشريف الرضي .
٨٦ ــ الرسالة الثانية لأبي دلف .
٨٧ ــ الاعلام للزركلي ــ القاهرة ــ ١٩٥٧ .
٨٨ ــ تاريخ خليفة بن خياط ــ النجف ١٩٦٧ .
٨٩ ــ وفيات الأعيان ــ لابن خلكان ــ ٣ اجزاء .
٩٠ ــ مجلة قافلة الزيت عدد المحرم ١٣٩١هـ ــ مارس ١٩٧١ ــ مقال عن ينبع .

إلى غير ذلك من المراجع التي اشرنا إليها في هامش الكتاب وإلى غير ذلك من المراجع التي رجعنــا إليها ولم نستفد منها كثيراً في كتابة البحث .

وبالله التوفيق .

الفهرس